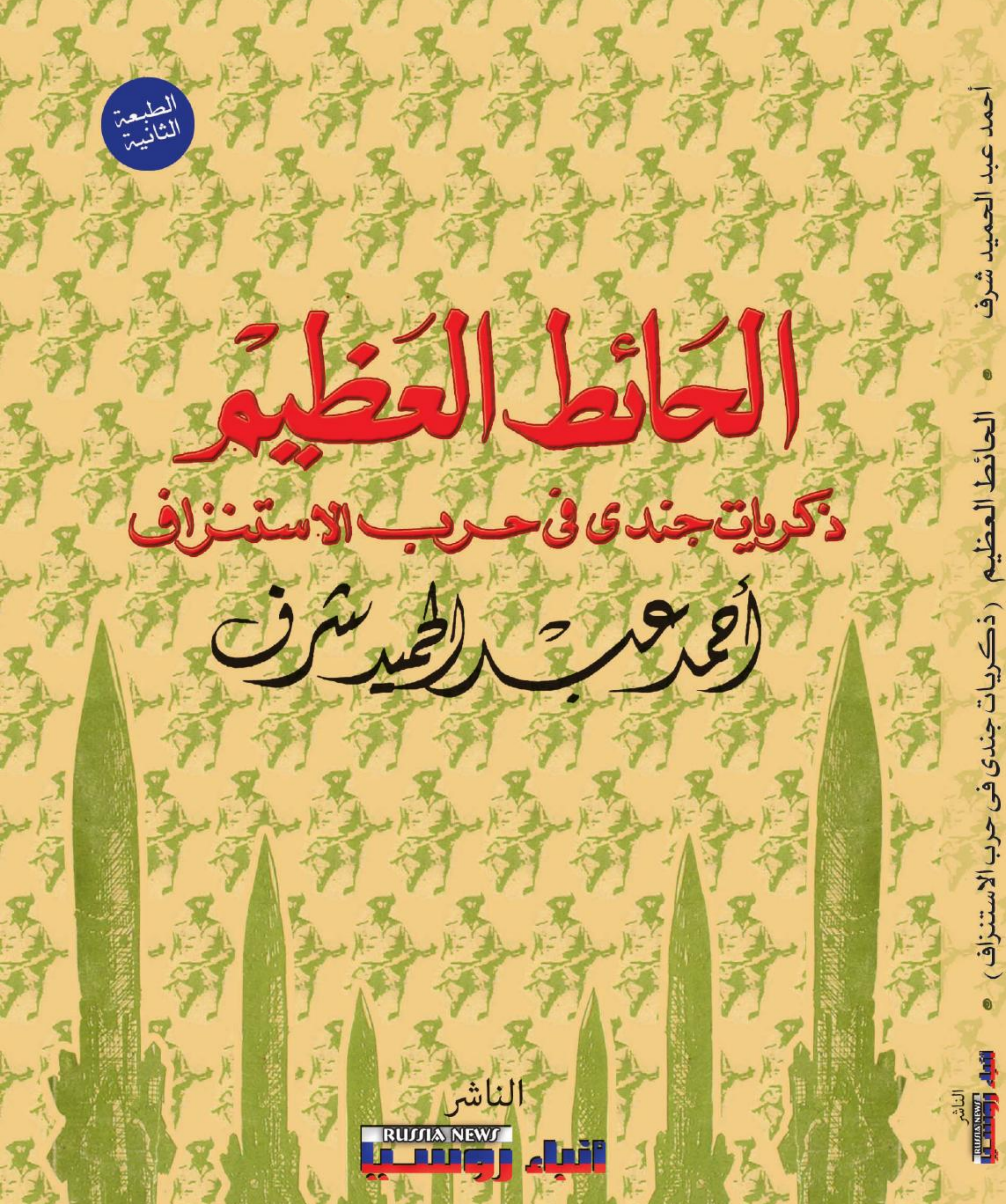

الطبعة الثانية
الحائط العظيم
ذكريات جندى فى حرب الاستنزاف
أحمد عبد الحميد شرف
الناشر
RUSSIA NEWS
انباء روسيا
أحمد عبد الحميد شرف • الحائط العظيم (ذكريات جندى فى حرب الاستنزاف) •
الناشر
RUSSIA NEWS
انباء روسيا



الحائط العظيم

ذكريات جندى فى حرب الاستنزاف

أحمد عبد الحميد شرف

الناشر
RUSSIA NEWS
أنباء روسيا

الناشر

RUSSIA NEWS

أنباء روسيا

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعي

h.elshafie57@mail.ru

المراسلات

القاهرة - مدينة العبور

44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي

ص. ب. 72

Tel. & Fax: + (202) 24 77 38 70 & 71

E-mail: secertary_ert@yahoo.com

شارك في الإعداد

شيماء محمد الشافعى

أحمد محمد نجيب

التصحيح والمراجعة

حامد أحمد محمد

الإخراج الفني

مـــى مجـدى

تحرير

نور الهدى الحسن عبد الكريم

ولاء عماد قاسم

مارى دانيال

الطباعة

دار الطباعة المتميزة

مدينة العبور - القاهرة

Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 1988

مطبعة إخوان مورافتلى

شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية 2014

دار نشر أنباء روسيا

رقم الإيداع

بالتعاون مع

الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم

При содействии
египетско –российской
ассоциации по культуре и науке

إهـــــــداء

إلى ..

رباب ... شادى ...

هذا هو ماضيكم ، فثقوا فى مستقبلكم فلسوف يثمر الغرس ،

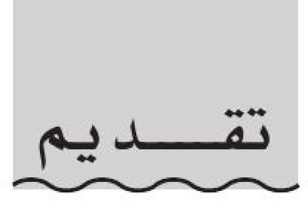
وتسطع شمس الحقيقة ، وتنتصب قامة مصر .

فى يوم سيكون طوع بنانكم

بالجهد والعلم والإخلاص

أبوكم

أحمــد شرف



تقـــــديم

ذكريات جندى مصرى التحق بالخدمة فى الثلث الأخير من عام ١٩٦٨ ، واستمرت خدمته بالقوات المسلحة لأكثر من ست سنوات شهد فيها من صنوف المعارك والمعاناة الكثير.

تذكر الجندى – آنذاك – أحمد شرف قصة الإعداد لنصر ١٩٧٣ من خلال حرب الاستنزاف المجيدة ، والتى شملت مجموعة ضخمة من العمليات العسكرية المستمرة والمتواترة بهدف إرهاق وتشتيت قدرات العدو الصهيونى ، وجعله فى حالة استنفار دائم ، وحتى تستعيد القوات المسلحة عافيتها ، وتصبح جاهزة لمعركة المصير التى انتصرت فيها القوات المسلحة وحطمت أسطورة عدو لا يقهر.

كما كانت مبادرة حرب ١٩٧٣ بأيدى قواتنا ، كانت حرب الاستنزاف أيضاً مبادرة مصرية فُرضت على العدو الصهيونى ، وسَطر فيها الجندى المصرى أروع بطولاته وتضحياته.

إنها ذكريات عن البشر والسلاح ، تسجل مرحلة تاريخية هامة التقى فيها المصرى والسوفيتى ليخطًا ملحمة بناء جبارة لن تسقط من ذاكرة الشعبين.

فى الذكرى الأربعين لنصر ١٩٧٣ ، ما أحوجنا أن نتذكر هذه الملحمة ، و التى اكدت أن عشق الأوطان و الزود عنها يكون بالبناء و العمل ، فهما اللذان صاغا النصر و سيظلان عماده

الناشر

دار نشر أنباء روسيا

يناير ٢٠١٤

الحائط العظيم

ذكريات جندى فى حرب الاستنزاف

أحمد عبد الحميد شرف

مقـــدمة عــامة

منذ فترة طويلة والذكريات بين أيدينا تلح على ، والأصدقاء يزدادون غضباً وتبكيتاً لي ، كلما جاءت سيرة أيام الجندية، ويطلبون حداً لصمتى ، ويؤكدون أن ما لدى ليس ملكى وحدى ، وقد آن له أن يخرج إلى الناس . وكثيراً ما عللت صمتى برغبة فى إعطاء البحث حقه ، وتناول حرب الاستنزاف فى دراسة توثيقية دقيقة . وكلما مرت الأيام ازدادت الصعوبات أمامى . فأنا بعيد عن نطاق الدراسات العسكرية ، وما كتب عن حرب الاستنزاف قليل جداً .

فهناك بحث إسرائيلى كتبه العميدان زئيف ، وجازيت ضمن دراسة عن حروب إسرائيل ، وهناك دراسة أو دراستان نشرها اللواء حسن البدرى فى السياسة الدولية ، وهناك تناول سريع لما صاحبها من أحداث ، نشرها الأستاذ أحمد حمرش فى كتابه الخامس عن تاريخ ثورة 23 يوليو سنة 1952 وهو خريف عبد الناصر . ودراسة هنا وهناك كتبها معلق إسرائيلى أو باحث عربى . وهذه مجموعة من الدراسات تقل عن ما كتب فى المواضيع المشابهة كثيراً .

« صدر بعد ذلك حرب الثلاث سنوات للفريق أول محمد فوزى، وكان لصدوره الفضل فى الإفراج عن هذه الدراسة المكتوبة منذ مايو 1983» .

وإزاء الرغبة فى البحث والتوثيق من جهة ، وقلة المعلومات من جهة أخرى ، والإلحاح على إخراج ما وعدت به أصدقائى وما سردت بعض تفاصيله فى أحيان كثيرة ، وتباعد الأيام التى تؤدى إلى النسيان ، كان على أن أحسم الأمر بأن أسلك طريق تسجيل الذكريات وعلى قدر الإمكان أن أطابق بين الذكريات وبين ما تم توثيقه . ولا أدعى أننى سأقدم بحثاً علمياً دقيقاً ، ولكن كل ما أدعيه أن هذه ذكريات ، أردت بتسجيلها أن أضعها أمام القارئ ، وكلى أمل أن تساعد على إزاحة بعض الغموض الذى لازم تلك الفترة فى حياة مصر وشعبها ، بل والشعب العربى عامة .

ولأن ما سأكتبه أقرب إلى المذكرات ، فإن مجال تركيزى سيكون حول الدفاع الجوى ، باعتباره السلاح الذى خدمت فيه كل سنوات تجنيدى ، ولأنه المجال الأقرب إلى معارفى وتجاربى. وعليه : فما أقدم على عرضه يخص الدفاع الجوى أكثر من غيره من فروع القوات المسلحة المصرية . وهنا يضيق العرض ليشرح قصة بناء حائط الصواريخ ونظام الدفاع الجوى المصرى ، ولا يعنى هذا أنى سأعرض الأمر منعزلاً عن باقى معارك حرب الاستنزاف ، ولكن أردت التنبيه إلى نقاط تركيزى .

وبعد ..

لعل ما سأسجله على الصفحات التالية يستحق ما كتب به من مداد ، وإن كنت أعلم علم اليقين أنه سيعجز عن الوفاء لقطرة دم واحدة سالت من شهيد واحد ، ضمن كوكبة شريفة مضحية من أبناء هذا الوطن .

صعوبات البحث

يصعب على الباحث العربى أن يخوض فى مسائل البحوث الاستراتيجية عموماً والعسكرية خصوصاً . ولا يحتاج الأمر عناءً كبيراً لتبين مدى هذه الصعوبات . فما زال الفكر الاستراتيجى والعسكرى العربى جنيناً لم ير بعد نور الحياة ، وتجرى عملية نقل التجارب والأفكار العسكرية الخارجية ببطء شديد ، فلم تتعد بعد دائرة ضيقة من المتخصصين ، تنقل لهم دون ربطها بظروف نشأتها على كافة الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأيديولوجية ، وتقدم هذه التجارب دون تلاؤمها وتكيفها مع الفن الإنتاجى الذى نشأت فى إطاره ، ولا تحسب على ضوء عناصر القوة والضعف للظروف التى تجرى فيها ، أى أنها تقدم وكأنها أفكار وتجارب مجردة ، وهذا بعدها الأول ، ثم لا تنشر ولا تعمم ، كى تكون فى متناول دوائر أوسع من المهتمين ، ومن المثقفين عموماً ، وصولاً إلى الاتساع الجماهيرى المعنى فعلياً بالمشاركة فى صراع مستمر لا هوادة فيه مع عدو يزحف صوب حدوده ، بل وعواصمه ، ولا مانع من تقدمه إلى بيوته ومخادعه ! ، وهذا بعدها الآخر .

وتأتى بعد ذلك صعوبات أخرى لا تقل أهمية فى مجال البحث العسكرى العربى . فلم تتحدد بعد الفواصل بين ضرورات المعرفة وضرورات الأمن . وتتعقد تلك المسألة بتعقد الظروف العربية ذاتها . فالفكر العسكرى العربى ، والعمل العسكرى العربى متحوصلاً بالقهر فى يد قلة تضيق ، وذلك عكس اتجاه الصراع وشموله مع الإمبريالية والصهيونية . والحكومات العربية مازال أغلبها ذو طابع عسكرى ، بالمعنى الشكلى للكلمة والمستمد أساساً من طابع القهر والإلزام الجبرى ، والذى يتخلى عن المفاهيم العلمية لإدارة الصراع ، وطابع عمليات الالتزام الطوعى التى تبنى بإذكاء الوعى بالمصالح والوجود فى مناخ الإرادات الحرة والديمقراطية . إن هذه الصعوبات تضع الباحث العربى فى المجال العسكرى فى دائرة عميقة من التردد بين الخوف من العقاب بالمعنى القانونى والسياسى لدى تناوله لقضاياه العسكرية العربية ، وبين الخوف من نشر وإبراز ما لديه إذا كان قد عايش تجربة أو حقيقة ، بفعل رقابة الضمير أو ما يسمى بالرقابة الداخلية ، وسط ساحة تحمل - ولو ظاهرياً - تقدماً مضطرداً للعدو ، وتقهقراً وانكماشاً للعسكرية العربية فى مجالها الرسمى غالباً .

وتزداد الصعوبات أمام الباحث العسكرى العربى فى ظروف غياب الاستراتيجية العربية ، أو ما يسمى باختفاء نظرية للأمن القومى العربى . ونقصد بهذا الغياب إما عدم وجود استراتيجية مطلقاً ، وإما وجود مشوه لها لا يساير مقتضى الظروف الفعلية التى تحياها المنطقة العربية .

ويمكن القول : أن هاتين الحالتين تخصان الحكومات والأنظمة العربية عموماً ، بل وتخصان كثيراً من القوى السياسية الفاعلة على الساحة العربية ، ويوجد الاستثناء لدى بعض القوى الطليعية التى لم تحل بعد معضلة التحام الطليعة بالجماهير .

إن هذا الغياب لوجود استراتيجية عربية ، أو نظرية للأمن القومى العربى ، يحمل عدم تواجد البنيان المكتمل ، عدم تواجد من القواعد المنهجية المستقرة لبناء مثل هذه النظرية تكون محل اتفاق عربى واسع . لقد قدم الفكر الاستراتيجى مثل هذه القواعد المنهاجية لبناء استراتيجية ، واستقر على أن الأخذ بأصولها يوصل إلى بنيان استراتيجى متكامل . ويتحدد الفرق بين بنيان استراتيجى أو آخر صواباً أو خطأ ، بمدى التحديد الصادق للعناصر المكونة لهذا البنيان .

ولو استعرضنا فى عجالة هذه الخطوات ، وزاد أملنا فى أن تستقر فى العقل العربى كخطوات علمية لتحديد البنيان الاستراتيجى العربى ، يمكن بعد ذلك أن نرصد الخلط والتشويش المصاحب لتحديد عناصرها ، ورد هذا الخلط إلى الفكر الذى يعكس مصالح القوى المسيطرة على السلطات العربية ، وتبين مصالح القوى الجماهيرية والشعبية والأفكار المعبرة عنها ، والتى توجب تحديد عناصر البناء الاسترتيجى بما يعكس هذه المصالح والأفكار .

لتحديد مدى الصعوبات التى تقابل الباحث الاستراتيجى والعسكرى العربى نجمل هذه الخطوات ، ونحاول تتبع ما يلحق بها من خلط وتشويش وذلك من الآتى :

1 - إن طبيعة استراتيجية أى مرحلة تتحدد بإظهار التناقض الرئيسى الذى يحكم هذه المرحلة. ويتم إظهار التناقض الرئيسى بإظهار موضوعه . بعد ذلك يتم فرز هذا التناقض وتمييزه عن التناقضات الثانوية ، ويعتبر حل التناقض الرئيسى هو محور الحركة العامة لهذه المرحلة .

فى نطاق هذه الخطوة نلاحظ أن التشوش العربى يبلغ مداه، فهل الصراع الرئيسى هو صراع عنصرى بين العرب واليهود ؟ موضوعه الشخصية العربية بمكوناتها لو جاز التعبير ؟
أم هل هو صراع طبقى بين المستغلين العرب ؟ وموضوعه ملكية وسائل الإنتاج العربية ؟ أم هو صراع قومى ديمقراطى بين الامبريالية والصهيونية وحلفائهما فى الداخل من القوى الاجتماعية المشاركة بالفتات والتابعة لهما! ، وبين مجمل القوى الوطنية الديمقراطية داخل الوطن العربى وموضوعه السوق العربية والثروة العربية ،ومدى استقلاليتها أو تبعيتها للأجنبى ؟ أم هو جماع ذلك ؟

هل التناقض الرئيسى موجه ضد إسرائيل والصهيونية وضد الامبريالية وبالذات الأمريكية منها ؟ أم أنه موجه ضد دول أخرى؟ أيهما الرئيسى والثانوى ؟

2 – تحديد القوى صاحبة المصلحة فى حسم التناقض الرئيسى لصالحها ، بما يتماشى مع حقها ، ومدى ملائمة هذا الحق لمنطق التطور التاريخى ، أى تحديد القوى الصاعدة .

3 – تحديد القوى المضادة للحق التاريخى ، والتى تشكل طرف الصراع الذى يبغى المحافظة على الوضع الخاطئ والمضاد لحركة التاريخى ، أى القوى المعاكسة أو القوى الهابطة .

4 – تحديد مجمل أهداف ومهام المرحلة على ضوء مصالح هذه القوى الصاعدة ، وتقويض دور ومصالح القوى المعاكسة ، وترتيب هذه المهام حسب أولويات تحدد الحلقة الرئيسية فى الصراع ، واتجاه الضربة الرئيسية ، والشعار الرئيسى ، وتحديد أسلوب إدارة الصراع سياسياً أو عسكرياً أم بالاثنين معاً .

إن عدم التحديد الدقيق للعناصر التى تتطلبها هذه الخطوات لإنجاز بنيان استرتيجى متكامل ، يعبر عن مصالح الجماهير الشعبية العربية ، يجسد أخطر الصعوبات أمام الباحث العربى فى مجال الاستراتيجية عموماً والعسكرية خصوصاً . لقد صار العدو صديقاً لدى البعض ، وصار الصديق عدواً لدى الكثيرين. والسلاح لا لملاقاة العدو لدى البعض ، ولكن لتوجيهه إلى صدور الأشقياء بل للمواطنين فى البلد ذاته أحياناً . وسوق السلاح غابت فيها المصالح الوطنية ، والتكنولوجيا العسكرية صارت تطلب لاستهلاك المزيد من الموارد العربية ، ولتلبية متطلبات العنجهية لبعض الحكام دون أن تكون عملية محسوبة على ضوء الاحتياجات الفعلية للواقع العربى .

هذه بعض القضايا المعقدة التى يثيرها غياب ، أو تشوه ، استراتيجية عربية . لكل ما تقدم تبرز صعوبات أساسية أمام الباحث العربى فى مجال الاستراتيجية العربية عموماً ، والباحث فى مجال الدراسات العسكرية خصوصاً.

وتزداد تلك الصعوبات بالنسبة لشخص مثلى ، فأنا لست متخصصاً فى الشئون العسكرية ، بمعنى أننى لست مزاولاً لمهنة العسكرية وكان وجودى داخل صفوف القوات المسلحة المصرية من موقع الجندى المجند إجبارياً . وهذه أول محاولة لى لدخول ميدان الكتابة العسكرية ، بل هو أول محاولة لمثلى ، فلم يعودنا الواقع العربى أن يفكر الجنود ، فالفكر العسكرى له سدنته ، ودائرة لا يلجها إلا الجنرالات ، ولكن رغم كل الصعوبات العامة والخاصة رأيت أن أبدأ بقهرها بمجرد النزول إلى ميدان الكتابة ، وكما قررت سلفاً ، سأدخل هذا الباب عن طريق الذكريات ، ووضع ما عشته من تجارب أمام الجميع لعلى أستطيع أن أقدم إلى عملية بناء استراتيجية عربية، عناصره مفيدة ، فقد يكون الجزء مفيداً فى تجميع الكل ، وقد يكون القليل دافعاً لمحاولة تجميع الكثير ، وقد يكون الفرعى باعثاً لخلق الشامل ، سواء كان كل ذلك على مستوى النظرة أو على مستوى بناء النظرية . وليغفر لى القارئ بدايةً ما قد يبرز من إرتباط للعام بالخاص والموضوعى بالذاتى، فهذه وقفة مع الذكريات تلك حدودها ، ولا أدعى بها عملاً توثيقياً متكاملاً ، فهذا فوق جهدى ، وخارج إمكاناتى .

بـدايـة التعـارف

بعد مولدى بسنوات قليلة ، فرض على أسرتى الصغيرة صراع اجتماعى حاد كان موضوعه أكثر من نصف حيازة والدى الفلاح الصغير من الأرض الزراعية ، ولسوء الحظ وقعت قطعة الأرض هذه أمام قصور عائلة إقطاعية عريقة ، وكانت هذه القطعة مكاناً مثالياً بالنسبة لهذه العائلة ليقام عليها وابور لمياه الشرب النقية ، ضمن خطة وزارة الشئون الاجتماعية والبلدية آنذاك ولم يغير من مزايا هذه الأرض أنها كانت تبعد أقل من 500 متراً عن أراضى بور وقف . ودار الصراع من جانب أسرتى الصغيرة فى اتجاهين : أبى يعتمد على حكمته وتدينه فى الشكاية والسعى بين الوزارات ، والدعاء لأولياء الله الصالحين أن يرفع عنا هذه الغمة ، وأخوتى من الشباب يريدون التصدى بالقوة ، فهم يلقون بحديد المشروع تارة فى الترعة ، ويعاركون المقاولين والمهندسين تارة ، ويوضعون فى الحجز تارة أخرى ، وتقصر مجهودات أبى وأخوتى عن إنهاء الصراع لصالحهم .

ولا أنسى ما حييت البشر والسرور الذى علا وجه أبى صباح 23 يوليو 1952 ، وهو يضع جهاز الراديو البدائى على أذنه ، والذى لا يستطيع آخر أن يسمعه . وكيف خرج أبى عن وقاره المعهود ،

وأخذ يصيح « لقد استجاب الله لدعائى ، بركتك يا إمام يا شافعى ، الجيش قام بحركة ضد الفساد » . وتردد تعبير حركة الجيش المباركة كثيراً أمام مسامعى ، وأخذ والدى فى آخر أيام حياته تعويض أرضه . وتمكن أخوتى من شراء بديل لها يتجاوز الفدان ببضعة قراريط . وانكسرت شوكة الإقطاعيين كثيراً مما ثبت تعبير حركة الجيش المباركة بمعانى الخير ومقاومة البغى والفساد فى وجدانى الصغير .

وفى عامى العاشر جرت أحداث العدوان الثلاثى على مصر ، ولا أنسى نشاط أخى الكبير (الفلاح البسيط) وتطوعه فى المقاومة الشعبية هو ومعظم شباب قريتنا . ولا أنسى التفاف الجميع حول جهازين أو ثلاثة للراديو وقت نشرات الأخبار ، وهى تلك الأجهزة التى كانت تحوزها قريتنا . ولا أنسى دأبى أنا وأطفال قريتنا فى اقتياد أحد الكلاب الهزيلة ، وربطه بحبل وجره طول اليوم فى طرقات القرية ، وسط صيحاتنا « أجرى يا إيدن» ، ولا أنسى أن كل شىء وكل شخص دميم أخذ أحد المسميات ، إيدن - موليه ، بن جوريون ، جولدا مائير .

وحفزت هذه الأحداث رغباتى للمعرفة ، وتفتح وعيى العام على تلك الأحداث ، أحداث العدوان الثلاثى على مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، لترسم أمامى بعد صقل الدراسة والبحث الملامح الآتية :

1 ـ لم يصدر هذا العدوان عن قوة واحدة أو دولة واحدة . وكان الطرف المعادى حلفاً قوياً ، يجمع بين قوى الامبريالية البريطانية

والفرنسية ، وبين الصهيونية العنصرية ركيزة الامبريالية فى الوجود والعدوان داخل منطقتنا ، والمتمثلة فى إسرائيل . وإن هذا العدوان حفز بعض القوى الاجتماعية فى الداخل إلى الدعوة للتسليم تحت مقولة « إنه لا قبل لنا بمعاداة هؤلاء الكبار» .

2 ـ لم تتصد لهذا العدوان وتقاومه قوة واحدة . ففى الداخل شاركت فى رده قوات المقاومة الشعبية إلى جوار القوات المسلحة المصرية ، وبدور للأولى ـ إن لم يكبر الثانية ـ فهو لم يقل عنه . وخارج مصر ، اشتعل العالم العربى بحركة عارمة تشارك فى توجيه الضربات للمصالح الامبريالية ، لعبت فيها القوى الشعبية العربية دوراً يفوق دور الأنظمة والحكومات ، ووقفت شعوب ودول حركة التحرر الوطنى إلى جوار الحق المصرى والعربى ، وضد قوى العدوان الاستعمارية . ووقفت شعوب ودول المعسكر الإشتراكى ، وعلى رأسها الشعب والحكومة السوفيتية ، موقفاً حاسماً فى تأييد حق مصر فى الاستقلال ورد العدوان .

مد الاتحاد السوفيتى مصر بالسلاح بدءاً من صفقة الأسلحة التشيكية سنة 1955 وتتابعت الإمدادات بعد ذلك ، حتى الإمداد بالطائرات الحديثة ، ثم وصولاً إلى التأييد السياسى الذى تجسدت قمته فى الإنذار السوفيتى الشهير " إنذار بولجانين " لوقف العدوان بالتدخل السوفيتى إلى جانب مصر فى المعركة.
فى داخل الدول الامبريالية ذاتها وداخل معسكرها ، تفجرت التناقضات الثانوية حول توقيت العدوان واختلفت إدارة أيزنهاور فى موقفها من العدوان عن إدارة إيدن ومولييه ، وانفجرت

الحركات الديمقراطية والعمالية فى البلاد تندد بالعدوان وتدينه ، حتى فى عقر دار المعتدى ذاته ، داخل بريطانيا وفرنسا .

3 ـ اتضح للجميع أن هذا العدوان لم يكن مجرد صراع قومى عنصرى ، أو دينى بين بريطانيا وفرنسا ، وإسرائيل أو اليهود من جانب . وبين مصر والعرب من جانب آخر ، ولكنه صراع وطنى ديمقراطى بين الامبريالية والعنصرية وحلفائها فى الداخل وبين مصر الوطنية التى ارتكب نظامها سابقة ـ أو سوابق ـ فى مجال تحرير الإرادة الوطنية ، والاتجاه فى العمل القومى العربى المعادى للإمبريالية والصهيونية ، والالتجاء إلى حلف معاداة الامبريالية (سواء المعسكر الإشتراكى – أو حركة التحرر الوطنى) .

4 ـ إن رد العدوان كان إنتصاراً فى حدود أهداف ومهام محددة، تأكدت بانسحاب قوات العدوان ، وتحرر إرادة الفعل المصرى صوب التوجهات التى بدأت بالسير فيها نحو تقويض التبعية للاستعمار وبناء الاستقلال الوطنى إقتصادياً وسياسياً .

إن هذه الإنتصارات تمت تحت قيادة سلطة وطنية قادها مجموعة من الضباط الشبان على رأسهم جمال عبد الناصر . مما دعم لدى ولدى جيلى حباً وثقة أخذا يتناميان فى العسكرية المصرية ، بعدما عرفت دور القوات المسلحة المصرية فى النضال الوطنى التحررى للشعب المصرى ، بدءاً من دور أحمد عرابى قائد أول حلقات الكفاح الوطنى التحررى للشعب المصرى فى تاريخه الحديث ضد قوى العدوان الامبريالية ، وانتهاء بحركة الجيش المباركة التى صاغت قيادتها والتأييد الشعبى العارم لها أحداث ثورة 23 يوليو المجيدة .

وأخذت هذه المشاعر تكبر معى كلما توطد انتصار جديد سطرته قيادة ثورة يوليو سنة 1952 . ولا أنكر أن أجهزة الإعلام حينذاك أثرت فى تضخيم مشاعرى المحبة للقوات المسلحة ، فالسلطة طابعها لعام ، الطابع العسكرى ، والإعلام يصور أن أى خلل فى الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية ، أو حتى السياسية إذا امتدت إليه يد القوات المسلحة تحسن وضعه وتعدل . فالقوات المسلحة تقوم بالإشراف على هيئة النقل العام بالقاهرة وكثير من كوادرها يحتلون مواقع القيادة الإدارية فى مؤسسات الدولة والقطاع العام الإنتاجى ، والمشير عبد الحكيم عامر يتقدم ليرأس لجنة تصفية الإقطاع فى منتصف الستينات ، ليقضى على الجيوب الاجتماعية المتخلفة والموجودة من بقايا عهد الاستبداد فى الريف المصرى ، وقوات الشرطة العسكرية والمخابرات تتقدم لتساعده فى هذه المهمة .

لكل شىء إذا ما تم نقصان !

هكذا تنامى حبى للعسكرية المصرية وثقتى بها ، ولم يك هذا حالى وحدى ، بل كان التيار الغالب فى جيل بأكمله . ولكن لكل شىء إذا ما تم نقصان ، فما كانت لهذه الصورة الوردية أن تستمر فى وجدانى الغض ، طالما أن الواقع أكثر تعقيداً من أحادية المشاعر ، أو حتى أحادية المعرفة المتعقلة .

فى بداية الثلث الأخير من سنة 1966 حدثت واقعة أضافت إلى نظرتى أبعاداً جديدة لاستكمال ملامح الصورة ، فقد حان وقت تجنيدى . وكان لابد من الذهاب لتوقيع الكشف الطبى على

لتحديد صلاحيتى من عدمها طبياً ، وبالتعبير الدارج « لايق أو غير لايق» . فإذا ثبتت لياقتى ، أحصل على تأجيل لحين إنهاء دراستى الجامعية .

وذهبت إلى معسكر الاستقبال فى منطقة الإسكندرية، وكان ذلك فى سبتمبر سنة 1966 ، وكانت أول تجربة لى للاحتكاك بالقوات المسلحة من الداخل . ووجدت فيها ما راعنى، وفجرت لدى مشاعر القهر التى أحملها كابن فلاح مصرى على كتفى من آلاف السنين فقد تصادف حضورى أنا واثنين ، حالتهم كحالتى ، مع دفعة من شباب الفلاحين القادمين من محافظة الغربية ، وشاهدت هؤلاء الشباب من الفلاح يعاملون وكأنهم بقايا عبيد الأرض ، أو جيش السخرة التى بنت الأهرامات وحفرت قناة السويس .

فالضرب والاهانات بلا سبب ، والإرغام على مزاولة بعض حركات القردة دون ما مبرر هى الأساليب التى شاهدتها فى يومى الأول فى هذا المعسكر وحركت هذه المظاهر أحاسيسى، فقد اخترت منذ شهرين فقط كعضو باللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكى . ومشاعر حب الوطن والخدمة العامة تتحركان بداخلى ، وميراث مقاومة الظلم والقهر ، كل ذلك يستصرخنى للتقدم لوقف هذه المهزلة ، وهذا النعت الذى لا مبرر له ، ولكن تحت إلحاح الاثنين اللذين لم أرهما طوال حياتى ولا أذكرهما الآن ، بأن مهمتنا ستنتهى فى يوم أو اثنين و نخرج ، فلماذا الاحتكاك؟ والتعرض لموضوع أكبر من قدرتنا على رده؟

مر اليوم الأول بهدوء خارجى وغليان يجرى بداخلى ، وجاء اليوم الثانى ونفذت طاقة احتمالى أمام فجاجة ما أراه وبشاعته ، فتقدمت لوقف إجراءات الضرب بمحاولة التفاهم مع صف الضابط ، موجهاً كلامى لهم ، بأنهم إما أخوة لأمثال هؤلاء الشباب الفلاحين ، وإما هم أبناء فقراء المدن والحال لا يختلف كثيراً ، وإذا كان الهدوء والطاعة هما المرجوان ، فيمكن الوصول إليهما بالإرادة الحرة والاختيار الطوعى فى حالة المعاملة الحسنة . ولكنهما أحالانى على ضابط برتبة ملازم أول ، وبدلاً من أن يفهم ما أطلبه ، قام بصفعى ، وانفجرت بصوت جهورى أخاطب الجميع - بل وأخاطب نفسى - هل ينسجم ما أراه الآن ، مع الحرية ومع الاشتراكية؟، هل هذا الذى يجرى ، يتم فى نفس الجيش الذى يترأس قائده العام لجنة تصفية الإقطاع؟ .

وصعدت الأمر وأشركت كل القيادات الشعبية لمدينة الإسكندرية من خلال أجهزة الشباب والاتحاد الاشتراكى فى التصدى لهذا الموقف ، ومع قيادة منطقة التجنيد بها لمدة تقرب من ثمان ساعات ، استخدمت فيها كل صنوف الضغط والتهديد بإبلاغ الأمر إلى الرئيس عبد الناصر والمشير عامر .

تمكنا من الوصول إلى نتيجتين :

أولاً : أن تأتى قيادة منطقة التجنيد ، ومندوب من كبار الضباط فى المنطقة الشمالية للاعتذار للشعب فى شخصى داخل مبنى الاتحاد الاشتراكى بالمنشية .

ثانياً : دعوة الإتحاد الاشتراكى لتشكيل لجان رقابية لمعاملة شباب معسكر الاستقبال للتجنيد العسكرى ، معاملة لائقة .

وخرجت من هذه الواقعة بعدة دروس مستفادة ، فمهما بلغت طاقة القهر ، يستطيع المقهورون ردها بإلحاحهم على حقهم فلا يضيع حق من وراءه مطالب . ويتم هذا بحشد كافة الإمكانات لتقويض طاقة الظالمين ، بما فيها إمكانات حلف معاداة الظلم والقهر فى مختلف جوانبه . وخرجت أيضاً بفكرة غامضة لم أتبين أبعادها إلا بعد مرور حوالى عشرة أشهر ، فلقد قابلت فى هذه الواقعة ضباطاً كثرين ، كان أقربهم إلى الصورة التى فى ذهنى عن طابع رجال القوات المسلحة الوطنيين العلميين ، هو عميد مصرى علمت منه أنه درس فى الاتحاد السوفيتى وحصل على أعلى الأنواط العسكرية نتيجة لكفاءته . ولكنه أتى به إلى هذا المكان الإدارى للراحة ، خوفاً من أن يذهب العلم بعقله داخل الوحدات القتالية . وذلك عل حد تعبير ضابط يحمل رتبة صغيرة ، قالها فى معرض إشادتى بهذا الرجل إزاء أحداث اليوم .

الأبعاد الأخرى للصورة تستمر فى الظهور :

بعد واقعة سبتمبر سنة 1966 بشهور ، وفى المسافة بينهما وبين عدوان سنة 1967 حدثت غارة إسرائيلية واسعة على قرية السموع الأردنية . وراعنى أن يمر هذا العدوان دون أن يتحرك أحد . فالكل يقف مكتوف الأيدى . وناقشت الأمر مع زملاء لي فى اللجنة المركزية لمنظمة الشباب الإشتراكى آنذاك . وتأكد

أن أحاسيسنا واحدة . وفى أول اجتماع تالى للجنة المركزية للمنظمة ، وضعنا هذه الأحاسيس فى صورة تساؤل أمام السيد على صبرى نائب رئيس الجمهورية آنذاك ، وكان رده يعكس تصوراً يقوم على أن لكل فعل رد فعل ، وأن هذه سياستنا مع إسرائيل . فعلى قدر العدوان يكون الرد . وإننا لا ننوى ولا نرى أن هناك حربا شاملة مع إسرائيل فى المدى القريب ، ورغم أن هذا الرد المحدود لم يحدث ، فقد كانت الإجابة ترجو استمرار صمتنا أكثر من الرغبة فى الحوار والمشاركة بالرأى . وما هى إلا شهور وجاء عدوان 1967 ، وكانت الهزيمة المؤلمة ، وانعقد اجتماع آخر للجنة المركزية لمنظمة الشباب بعد فترة قليلة من نهاية الأحداث المصاحبة لحرب يونيو سنة 1967 . وقدم السيد على صبرى تحليلاً للعدوان ، يقوم على أنه نبع من ضرورة ضرب مصر قبل أن تدخل ما يسمى بتجاوز النقطة الحرجة على منحنى النمو الاقتصادى ، تلك النقطة التى يبلغ فيها معدل النمو الاقتصادى حداً متصاعداً لا يمكن أن ينكسر ، ورغم اقتناعى بأن هذا التحليل هو عين الصواب ، وأن إسرائيل أرادت بعدوانها ضرب النموذج الاقتصادى المستقل المصرى ، وأنها قامت بعدوانها بمباركة الامبريالية عموماً والأمريكية خصوصاً ، إلا أن تناقض الرأى فى ذات المدى الزمنى ، وتبين الحقيقة بعد حلول الكارثة قد ترك فى وجدانى وعقلى أهمية وضوح الاستراتيجية لدى قوى الدفاع عن الوطن ومصالحه ، أن غياب هذا الوضوح يكلف الكثير .

وهذا ما دفعنى فى محاولة دؤوبة لاستمرار البحث عن الحقيقة ، ومعرفة جوانب الصورة بتعقيداتها المستمدة من تعقد الواقع ذاته،

بل دفعنى للسعى نحو إظهار هذه الحقيقة ، وأجهدت نفسى فى إظهار هذا داخل منظمة الشباب . وتصورت أن ضرورة وصول رأينا إلى الرئيس شيئاً هاماً . ولكنى خبرت كم من الحواجز تقف أمامى لمجرد توضيح ما أصبح واضحاً فى ذهنى ووجدانى .

وفى يوم 20 فبراير سنة 1968 ، سمعت ضمن من سمع إعلان أحكام قادة سلاح الطيران . وقدرنا كم هى رخيصة حوادث التقصير فى حياة الأوطان لدى من هم فى دائرة السلطة ، فثمن الهزيمة العسكرية أحكام سجن لقلة بضع سنوات ، وفى اليوم الثانى: انفجر غضب عمال حلوان ، وخرجت مظاهرتهم إلى الشارع ترفض تلك الأحكام ، وتدين المسئولين عن التقصير ووقوع الكارثة ، وفتحت النيران عليهم ، وكان هذا دافعاً إضافياً لنا حيث خرجنا نحن الطلبة فى مظاهرة ، سجلت مع سابقتها العمالية أول مظاهرات شعبية سياسية معارضة منذ أحداث مارس 1954 ، وتفجرت فى الأيام التالية سلسلة من المظاهرات نشط فيها الطلاب ، وطرحت شعارات التغيير الثورى كمطلب فورى .

وكان من نتيجتها بيان 30 مارس سنة 1968 . وهو تلك الوثيقة الديمقراطية الهامة ، التى صدرت فى الأعوام الأخيرة من حكم الرئيس جمال عبد الناصر .

لقد كان الدرس واضحاً ، فالجماهير هى التى تملك طاقة التغيير . وتملك الضغط لحدوثه متى أعطيت لها حقوق المبادرة

والتحرك المنظم ، وأنها ستنفجر غضباً حتى ولو قيدت حركتها كما كان فى أحداث الطلاب فى نوفمبر سنة 1968 .

ومع بداية الثلث الأخير من سنة 1968 تم انخراطى فى سلك الجندية ، ودخلت إلى القوات المسلحة كجندى مؤهلات عليا . وكانت تجربة طويلة وعميقة . فلقد امتدت لأكثر من ست سنوات. وتخللتها كثير من صنوف المعارك والمعاناة، تعرضت فيها للموت ثلاث مرات . فى كل مرة منها كنت أنطق بالشهادتين انتظاراً لأمر الله ، وكانت النجاة من نصيبى ، ولكن كان الدمع ساخناً على شباب افتدى بروحه حرمة الأوطان ومصالح الشعب المصرى العتيد ، وكان ـ وسيظل ـ العرفان لهؤلاء الشهداء بعض من الواجب الواقع على كاهلى وكاهل كل من يحيا على أرض مصر الحبيبة .

تحضيرات حرب الاستنزاف

نقلت نشرة وكالة وفا « وكالة الأنباء الفلسطينية » فى أوائل سنة 1975 ، تعليقاً التقطته من إذاعة العدو الإسرائيلى، لكبير المعلقين العسكريين الإسرائيليين فى الراديو حاييم هرتزوج ، رئيس المخابرات الإسرائيلية السابق ، عن حرب الاستنزاف، قال فيه « إنها الحرب الرابعة بين إسرائيل والعرب ، وهى أخطر الحروب على إسرائيل ، ففيها كان يتعلم المصريون كل يوم جديد . إنها كانت مدرسة لتربية العسكرية المصرية ، ظهرت نتائجها بعد ذلك . لذا كان لزاماً علينا العمل على وقفها » .

لم أجد كمعايش لهذه الحرب أبلغ من تلك الكلمات لوصف حرب الاستنزاف ، حقاً أنها كانت مدرسة ، تتعلم فيها العسكرية المصرية كل يوم دروساً جديدة ، وتطور من أساليبها وفنونها القتالية، وتضيف بإنجازاتها أنصع الصفات لكتاب تاريخها المجيد ،ولكن كيف كان ذلك ؟

بعد إنتهاء عمليات يونيو 1967 ، كانت المهمة الأولى للقوات المسلحة المصرية هى لم الشمل ، واستجماع ما يتاح من عناصر القوة البشرية ، واستعواض الأسلحة والذخائر لتكوين خط

دفاع غربى قناة السويس ، لصد أى هجوم أو تصعيد محتمل من جانب القوات الإسرائيلية صوب العمق المصرى غرب القناة .

وبقدر تشتت القوات ، وما أصاب القيادة من شلل ، والخسائر العالية فى البشر والمعدات ، كانت صعوبة هذه العملية ، وكان لابد من انتقاء قيادة عسكرية جديدة ، ليست مرتبطة بتلك المجموعة التى تولت قيادة الجيش على أسس شللية ، بعيداً عن مقتضيات الفن العسكرى ، والتى عملت على استرجاع عناصر السلطة والسلطان فى يدها مرة أخرى . ولكنها فشلت .

وكان العامل الثانى بعد اختيار القيادة هو استعواض السلاح وفى هذا المجال لعب الإتحاد السوفيتى دوراً هاماً وملموساً بالمبادرة الذاتية أحياناً ، أو بواسطة بعض التحركات العربية . (زيارتا بود جورنى للقاهرة وبومدين لموسكو) .

وكان العنصر الثالث ، يكمن فى إعادة تنظيم القوات المسلحة ، وإقامة ما يسمى بنهج التعاون بين فروعها من ناحية، والنزول بهذا التعاون حتى مستويات أدنى من قيادات الفروع ، وصولاً لقيادة التشكيلات الميدانية الصغيرة .

وفى هذا الصدد يذكر الجميع ذلك الخلاف الشهير بين الفريق مدكور أبو العز وبين القيادة العامة ، حول دور سلاح الطيران فى تلك المرحلة ورغبته فى استخدام الطيران لردع القوات الإسرائيلية على أساس الموقف المستقل لسلاح الطيران المصرى فحسب ، دون مراعاة لوضع القوات الأخرى وموازين القوى المترتبة على ذلك .

وكان لابد من انتصار نهج التعاون ، وخروج الفريق مدكور أبو العز من قيادة سلاح الطيران ، هذا الانتصار الذى توج عملية الموائمة بين السلاح وخصائصه الفنية والتكتيكية من جانب ، وبين الأسلوب العسكرى فى إدارة المعارك استراتيجياً وتكتيكياً والمتوافق مع هذه الأسلحة ، أى أنه بمثابة عقد للزواج بين أسلوب إدارة العمليات حسب ما يسمى بالمدرسة السوفيتية القتالية وبين السلاح السوفيتى ذاته .

وتطلب تنظيم القوات فى تلك الفترة استخدام عناصر أخرى، كان فى مقدمتها تجنيد المؤهلات العليا والمتوسطة بأعداد كبيرة ، وحشدهم فى مستوى الجنود وصف الضباط ، لتسهيل عملية فهم الأسلحة الحديثة المعقدة ، وزيادة كفاءة تشغيلها ، والوصول إلى أعلى معدلات أداء باستخدامها .

ثم تطلب التنظيم أيضاً انبثاق قيادة مستقلة لفرع رابع من أفرع القوات المسلحة هو الدفاع الجوى ، فرع يمثل مجموعة من المعارف والأساليب الاستراتيجية والتكتيكية المتنوعة ويضم مجموعة هائلة من الأسلحة والمعدات المصممة والمستخدمة لأرقى الأساليب العلمية والتكنولوجية . إنه الفرع الذى يرسم أبعاد النمو الهائل الذى ينتظر القوات المسلحة المصرية ، ويحضر للدور الهام والحاسم فى إدارة مجمل المعارك القادمة ، إنه ـ وبلا أدنى شك ـ القوة الرابعة .

ويمكن القول إجمالاً أنه مع حلول شهر نوفمبر سنة 1967 كانت قوى الدفاع المصرية قد قاربت الاستكمال . وذلك بعد

إعادة تنظيم القوات المسلحة المصرية ، واستعواض الأسلحة والذخائر بكميات كبيرة ومتقدمة ، وزيادة دور المستشارين والخبراء السوفيت فى عمليات التخطيط والإشراف على متابعة التنفيذ والتدريبات الشاقة والمستمرة ، ثم بوجود قيادة حديثة كان من أبرز رجالها الفريقان محمد فوزى وعبد المنعم رياض .

بعد هذه المرحلة التى يمكن تسميتها مرحلة استجماع قوى الدفاع والتماسك ، أى مرحلة الصمود ، بدأت مرحلة جديدة ، يمكن تسميتها بمرحلة الردع ، وهى مرحلة تقوم على منازلة العدو ، فى نقط الاحتكاك به ، وكان أبرز أحداثها تدمير القوات البحرية المصرية للمدمرة الإسرائيلية آيلات بأحد زوارق الصواريخ البحرية المصرية . وخوض معركة شدوان . ثم بداية التراشق المدفعى عبر قناة السويس ، وعمليات عبور القوات الخاصة للبر الشرقى من القناة . ثم كانت البداية الحقيقية لحرب طويلة ، امتدت على مدى ما يقرب من عامين . إنها حرب الاستنزاف ، الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل .

حرب الاستنزاف

يمكن القول منذ البداية ، أن حرب الاستنزاف التى خاضتها القوات المصرية تجاه إسرائيل ، كانت تتكون من مجموعة من العمليات العسكرية المستمرة والمتواترة ، وذات الطبيعة الجزئية ، بهدف إرهاق العدو الإسرائيلى ، وتحميله أكبر خسارة ممكنة ، وجعله فى حالة توتر واستنفار مستمرة ، بحيث تكون هذه العمليات عوضاً عن حرب شاملة لم تستعد القوات بعد لخوضها ، وتحضيراً فعلياً للحرب الشاملة على مسرح العمليات كله فى مرحلة تالية .

لقد شنت القوات المصرية هذه الحرب ، وقد امتلكت المبادرة فى فرضها على العدو ، وظل تاريخ هذه الحرب ، هو تاريخ المحافظة على تلك المبادرة فى أيدى القوات المصرية ، والسعى إلى استعادتها ، كلما أدخل العدو عنصراً جديداً فى الميدان لانتزاعها ، وتطوير القوات المصرية لتلك المبادرة فى حالة استعادتها حتى تمكنت من شل فاعلية المبادرات الإسرائيلية ، إلى أن انتهت بعجز القوات الإسرائيلية فعلياً عن تطوير مبادراتها وخساراتها لمواقع عسكرية ، استرتيجية وتكتيكية كانت تعنى انتقال المؤشر فعلياً لغير صالحها فى المدى الطويل .

ويمكن تحديد البداية الفعلية لحرب الاستنزاف فى أواخر سبتمبر سنة 1968 . وعلى وجه التحديد فى اليوم الثامن والعشرين منه . حيث بدأت مرحلتها الأولى ، بتوجيه وابل من النيران ، قامت بصبه مدفعية الميدان المصرية عبر قناة السويس وتجاه المواقع الإسرائيلية فى الضفة الشرقية من القناة . واعتمدت هذه المرحلة إجمالاً على الاستخدام المكثف لنيران مدفعية الميدان ، ومهاجمة المواقع الإسرائيلية شرق القناة بواسطة وحدات صغيرة تقوم بعبور قناة السويس . وذلك بهدف إجبار القوات الإسرائيلية على التحوصل وعدم الانتشار وعدم تمكينها من إقامة تحصيناتها فى الضفة الشرقية من القناة ، والتأثير فى معنوياتها وتكبيدها خسائر كبيرة .

وفى هذا المجال استخدمت القوات الإسرائيلية كافة أنواع الخداع والحيل لإرباك القوات المصرية ، وبالذات قوات مدفعية الميدان . فعلى سبيل المثال كانت تقوم ليلاً بوضع مجموعة كبيرة من أعمدة النور فى خط أفقى يحاذى قناة السويس ، وتقوم بإضاءة أنواره بالتتابع أى لو بدأت من اليمين تنير العمود الأول ثم الثانى، ثم الثالث ... وهكذا ، وفى ذات الوقت تضع مكبرات الصوت تذيع من خلالها أصوات محركات العربات والمركبات وذلك لكى توحى بأن هناك أرتالاً عسكرية تتحرك ، وذلك كى تستجلب نيران مدفعية الميدان المصرية على الرمال ، وتعمل هى على استنزاف هذه الأسلحة ومحاول إتباع ما يسمى بسياسة « قلب المائدة » ، ومن ناحية أخرى كانت تريد من تلك المناورات رصد المواقع المصرية وتحديد إحداثياتها لدكها بعد ذلك ،

لكن هذه العمليات فشلت من جانب إسرائيل فى خداع القوات المصرية ، بل على العكس لقد جاءت بنتائج باهرة على الجانب المصرى ، تمثلت فى تحسين أداء قوات مدفعية الميدان، وذلك على مستوى تحديد الأهداف بدقة وتدريب مجموعات كبيرة من الكوادر المؤهلة ، لفهم مختلف العمليات الفنية ، والقدرة على تحديد إحداثيات المواقع المعادية بأكثر من طريقة فنية حديثة كاستخدام الصوت والضوء والرادار .

ومن ناحية أخرى ، فقد حملت هذه العمليات للجانب المصرى قدرة متتابعة فى النمو على كيفية إدارة حرب المدافع من مواقع ثابتة ، والقدرة على المناورة بالنيران ومصادرها الأرضية. وكانت هذه من أول الخبرات الهامة فى حياة العسكرية المصرية، لقد كان واضحاً عجز القوات الإسرائيلية المماثلة عن التصدى لنيران المدافع المصرية الكثيفة ، حتى كان شهر مارس سنة 1969 حينما حسم الأمر نهائياً فى حرب المدفعية لصالح القوات المسلحة المصرية ، وبدأت عمليات العبور تزداد حجماً وكثافة حتى كادت تكون شبه مستمرة ، ووصلت حتى عبور كتيبة كاملة بمعداتها .

ذكرى تستحق التكريم :

فى غمرة حرب المدافع ، وارتفاع مستوى أداء القوات المصرية ، وارتفاع الروح المعنوية معها وفى صباح يوم ساخن من أيام القتال، تواجد القائد الكبير وسط قواته ، وتقدم فى الدخول إلى أقرب المواقع لملاقاة العدو ، وبنيران العدو الإسرائيلى .

استشهد الفريق عبد المنعم رياض فى 9 مارس سنة 1969 . وباستشهاده واصل تقدمه إلى داخل قلب أمته ووجدانها . ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الرجل ذكرى عطرة ومثالاً للتضحية والفداء ينحنى أمامه جبين كل محب لأرض مصر وشعبها ، ونموذجاً وضاءً لعطاء القوات المسلحة المصرية للدفاع عن وطنها. واستحق أن يسجل يوم استشهاده ، كيوم لكل شهداء مصر ، ممن سقطوا فى معارك الدفاع عن الوطن ، وعن مواطنيه ، وعن أحلامهم المشروعة فى لقمة هنية وعيشة رضية كريمة .

ولن أنسى ما حييت ، يوم جنازة الشهيد ، وقد خرجت جماهير شعب مصر عن بكرة أبيها . لم يدعها أحد ، ولم تصفق بطريقة منتظمة كما عودتنا منظمة الشباب والإتحاد الاشتراكى .

ولكنها (كل الجماهير) انتظمت فى موكب واحد طويل، يهتف من القلب ، تحية للشهيد ، ووعداً باستكمال المشوار . وكيف أن الزحام ، زحام البشر ، وزحام عواطفهم ومشاعرهم ، قد أفقد أجهزة الأمن السيطرة على الموقف ، وكيف خرج جمال عبد الناصر عن دائرة التحكم الأمنية؟ وكيف تكونت حوله حلقة من الأجساد الشابة المتشابكة ؟، ومشى بها ومشت به من أول شارع طلعت حرب فى ميدان التحرير وحتى جامع شركس حيث نهاية الجنازة الرسمية .

إن جنازة الشهيد تسطر الدرس الواضح والمعتاد للشعب المصرى، إن من يكرم هذا الشعب بالإصرار على أهدافه ومصالحه ، يكرمه الشعب حتى عتبة قبره ، بل يسجله الوجدان الشعبى بطلاً ومثالاً حتى بعد الحياة ذاتها .

ولأن الدور الذى كان يضطلع به الشهيد دوراً فى منظومة من الأدوار ، وجزءاً من كل ، فى عجلة بدأ دورانها يحدث الأثر الهام، ويخرج بالنتائج الباهرة ، تواصلت المعارك بنفس معدل تقدمها، وشهد عام 1969 بعد استشهاد الفريق عبد المنعم رياض تطوراً ملحوظاً ، وتنامياً فى كفاءة قوات مدفعية الميدان المصرية ، صاحبه إرتفاع ملحوظ فى الروح المعنوية لأفراد القوات المسلحة، وبخاصة الجنود وصف الضباط إلى الحد الذى فجر مجموعة من التسميات الفكاهية على صوت مدافع الهاوتزر ، وإلى الحد الذى طمأن الجميع على اعتياد ممارسة حياتهم اليومية وسط اشتباكات المدفعية التى لا تنقطع . فأفراد الوحدات المناوبة تغتسل ، وتقوم بغسل ملبوساتها ، وتعريضها للهواء الطلق والشمس إلى الحد الذى يفجر غضب القادة المصريين والمستشارين السوفيت لما تحمله هذه التصرفات من كشف للمواقع .

وعلى الجانب الآخر يكون البعض منهمكاً فى إعداد الطعام وسط صيحات الجميع « زغرد يا أبا جاموس خلى ولاد الأبالسة يشوفوا الويل»، وكان أبو جاموس هو مدفع الهاوتزر المصرى الثقيل ، وبالطبع فإن أولاد الأبالسة هم الإسرائيليون على الجانب الآخر من قناة السوس .

لقد شهدت هذه الفترة ، وبالذات منذ مارس سنة 1969 وحتى ديسمبر سنة 1969 ، ما يسمى بميلاد التفوق المصرى فى مجال مدفعية الميدان ، واستخدام النيران الكثيفة من الثبات أو شبه الثبات ، وإحداث المناورة بالنيران وبمصادرها بكفاءة عالية .

كما شهدت هذه الفترة أيضاً القدرة على تقديم تجارب حية على عمليات العبور لقناة السويس ومداهمة مواقع العدو بكفاءة متنامية ، شكلت فيما بعد - وإلى جانب مراحل التدريبات المستمرة والشاقة - الأساس الموضوعى لكفاءة القوات المسلحة المصرية كلها فى عبور قناة السويس أثناء حرب أكتوبر سنة 1973 .

وشهدت هذه الفترة أيضاً امتزاج الخبرة السوفيتية بالسلاح السوفيتى فى تعليم وتدريب قيادات وكوادر مصرية على مستويات عديدة ، إلى الحد الذى أصبحت لكل وحدة حتى مستوى الكتيبة ، بل مستوى السرايا فى بعض الأحيان ، مستشار سوفيتى برتبة مناظرة لقائد الوحدة المصرية ، إن لم يكن أعلى ، وزاول قيادة مثل هذه الوحدة داخل جيش بلاده .

لقد كان كل المستشارين السوفيت يقدمون مجهوداتهم الكبيرة والدؤوبة ، والتى كانت محل رصد كل رجال القوات المسلحة جنوداً وصف وضباط فى إطار المعونة الأخوية الصرفة ، فكانت حكومة الاتحاد السوفيتى هى التى تتحمل مرتباتهم وبدلات سفرهم ، ولا تتحمل القوات المصرية إلا إقامتهم السكنية وتكاليف معيشتهم داخل الوحدات كأفراد عاديين على مستوى الضباط فقط .

وشهدت هذه الفترة أيضاً إجهاض محاولات إسرائيل فى إقامة تحصيناتها وتحطيم ما يسمى بخط بارليف الأول ، الذى لم تتمكن من تحصينه إلا بعد سنة 1971 . لقد بلغ إرهاق القوات

الإسرائيلية خلال هذه الفترة مدىً بعيداً ، وهذا ما سأحاول تبيانه فى الصفحات القادمة . وسوف أستخدم معلوماتهم هم ، رغم علمى مقدماً أنهم لا يقولون الحقيقة ، فهم يبرزون الأمور فقط من وجهة نظرهم وبما يخدم مصالحهم .

فى هذه الأثناء - ومع أوائل سنة 1969 - تم استدعائى من وحدتى وتوجيهى لدراسة اللغة الروسية كى أعد كمترجم روسى - عربى ، ولكى أصاحب الخبراء والمستشارين السوفيت فى السلاح الذى تم توزيعى عليه منذ البداية ، ألا وهو الدفاع الجوى، السلاح الوليد ، أو القوة الرابعة المضافة إلى القوات المسلحة ، تلك القوة التى عشت مراحل بناءها ، وشاركت فيها من موقع العارف والمحنك بمستويات متعددة . فمن حيث المعيشة أنا جندى بين الجنود ، ومن حيث المهام مصاحب للقادة ، ووسيط الحديث بينهم وبين المستشارين والخبراء السوفيت ، مما مكننى من أخذ كثير من الدروس سوف أعمل على وضعها فى متناول يد القارئ ، لعلها تقدم له أضواءً على تلك الفترة الهامة فى تاريخ وحياة مصر ، بل والعرب أجمعين .

الدفاع الجوى :

فى منتصف شهر سبتمبر سنة 1968 ، سمعت لأول مرة عن فرع للقوات المسلحة يسمى (الدفاع الجوى) ، حيث تم توزيعى، وتوزيع معظم الجنود المؤهلات للانخراط فى صفوفه . ولم يك ما سمعناه جديداً على مسامعنا فقط ، بل كان الأمر كذلك فعلاً . فلم تكن القوات المصرية تعرف هذا الفرع كفرع مستقل للقوات قبل ذلك التاريخ بكثير .

وعلى الرغم من تدافع أصحاب الحظوة والوساطة للبحث عن مخرج ينقذهم من الخدمة فى هذا الفرع الجاد والمرهق حسب ما تنامى لأسماعنا ، وصدقته التجربة بعد ذلك ، إلا أن ارتباط هذا الفرع بمفردات كالرادار ، والصواريخ ، والصواريخ الموجهة ، والمدفعية المضادة للطيران ، والطائرات ، كان عامل جذب شديد لى ، كى أستمر فى الخدمة فيه ، ليس هذا فحسب ، بل يجب أن أقبل عليه بكل حمية وعزم وإصرار . فالخدمة به ستكون ولاشك ، دافعة للاحتكاك بالعلم الحديث والتكنولوجية المتقدمة ، هو مجال أشعر أنه يمثل نقطة ضعف فى بناء قوة وطننا العسكرية ، إن لم يك فى مختلف الميادين ، وهذا المجال حتماً سيمكننى من استكشاف مدى قدرتنا على مجاراة إسرائيل بسلاحها وتكنولوجيته الأمريكية ، ومدى القدرة على التصدى لهما، فى جو امتلأ العالم فيه صخباً حول إسرائيل، واحة التقدم والحضارة فى منطقة الشرق الأوسط ، وإلى الحد الذى راح فيه فيلسوف شهير كجان بول سارتر يعزف على تلك الوتيرة أثناء جولته الشهيرة فى المنطقة فى تلك الفترة ، ويعلن ـ بلا أدنى تحفظ ـ انحيازه إلى التقدم الحضارى والديمقراطية فى مواجهة التخلف والديكتاتورية ! ، ولا يشغل نفسه – ولو لحظة ـ بالسؤال الآتى « أين يقف الحق ؟ ومع من ؟» .

ذهبنا لتلقى التدريبات الأولية للجندية فى معسكر للاستقبال يسمى مركز أساس فى إحدى المدن ، وتشكلت وحدتنا التعليمية من عدة مئات من المؤهلات العليا ، وعلى الرغم من أن دخول المؤهلات العليا كجنود بأعداد كبيرة ، شكل

تطوراً ملحوظاً فى بنية القوات المسلحة من حيث الوعى والمستوى التعليمى ، بما يوفرانه من سرعة الاستجابة للتعامل مع الأسلحة الحديثة المتطورة ، إلا أنه على الجانب الآخر لم يحمل القادة فى المستويات الدنيا، والمستويات الأعلى استعداداً لملاقاة هذا الواقع ، ومقابلته بفكر جديد وبأسلوب جديد للتعامل ، فروح الإدارة تقوم على استبداد مطلق ، تغلفه مجموعة من الشكليات فرغت من أى محتوى أو مغزى موضوعى لتقريرها ، واستمرت سياسة التعامل معنا بإتباع أساليب تعليمية وإدارية أقرب إلى فنون التعامل مع كائنات غبية ، هى السياسة السائدة، ناهيك عن إتباع مجموعة من الأساليب الفجة التى تكرس التمايز الفئوى بين الضباط والجنود .

لقد شهد هذا المعسكر نتيجة لهذه السياسة فى التعامل واقعة تعد الثالثة من نوعها ، حيث جرت الواقعتان السابقتان فى معسكرى أساس المشاة والمدرعات ، أيضاً مع الجنود المؤهلات العليا ، ويمكن اختصار هذه الواقعة ، فى حدوث ما يمكن أن نسميه (حركة تمرد عام) .

كان سببها المباشر بسيطاً ومعتاداً فى أجواء يسودها توتر العلاقات اليومية فى جيشنا . ولكنها فجرت سخطاً عاماً ، غذاه منطق بيروقراطى من قائد المعسكر حول ضرورة إطاعة الأمر حتى ولو كان الوقوف على قلة فوق كرسى يعلو منضدة ، إن هذا المنطق قابله منطقى ومنطق زملائى بأننا نستهون أرواحنا ونسترخص دمائنا ، فما بالنا بالجهد والعرق فى سبيل علو شأن

هذا الوطن والدفاع عن أرضه ، وصد العدوان الذى حرق أكبادنا فى يونيو سنة 1967 ؟ ؛ ولكن لن يكون ذلك إلا باختيارنا الطوعى ، و الذى يدخل كعنصر ثابت ضرورة التحرك خلف قائد صوب مهمة نعرف خططها العام ، وندرك مغزى تحركنا ولو فى أقل الحدود بما يحفظ الأمن والأسرار . ولكننا نرفض أن نساق كقطيع الماعز.

لقد كان من نتيجة هذه الوقائع الثلاث أن سطر القائد العام الفريق محمد فوزى مجموعة من التعليمات حول كيفية التعامل مع الجنود بطريقة إنسانية ، وخاصة على ضوء دخول حاملى المؤهلات العليا ضمن صفوف الجندية بأعداد هائلة .

إن هذه التعليمات التى تسطر بداية أسلوب جديد يستجيب لتغيرات جديدة ، كانت تهدف إلى تجاوز آثار الهزيمة بروح تدعم صلابة الصلات داخل القوات المسلحة ، والعمل على قيام علاقات دافئة وحميمة بين الضباط والجنود ، وكانت خطوة للأمام ، لا أقول نحو إقرار علاقات ديمقراطية فى حدود الإلزام العسكرى الجبرى والقائم على وحدة العمل ، والمفترض أن يهدف إلى أن يقوم على حد أدنى من وحدة الهدف المدعمة على المعرفة بالمصالح، والمبنية على الإرادة الحرة ولكن أقول: أنها كانت خطوة للأمام فى حدود تحسين العلاقات فى جيش مازال يحرم السياسة فى داخله ، ويستبدلها بشىء من التلقين والتوجيه المعنوى الذى غالباً ما يعكس حالة عدم الوضوح العام فى الأهداف والخطط ، أو عدم الوضوح الإستراتيجى عامة .

إن ما حصلنا عليه من حقوق كان ثـمرة لرفضنا لتلك المعاملة التى لا تتماشى مع الضرورات الموضوعية التى تتطلبها هذه الفترة، وكان تجسيداً للحكمة الأبدية أن الحقوق تؤخذ ولا تعطى ، وأن الكفاح من أجل الحقوق يكون فى كل الظروف حتى ولو اشتدت أطر القهر الذى يوضح فيها المكافحون ، كما أن استجابة القيادة لهذه الحقوق يدخل ضمن وطنيتها وتقديرها العام للظروف المحيطة ، ولمتطلباتها وأهدافها العزيزة التى تتطلب الحشد والالتفاف حولها والتضحية من أجلها ، والتقدم بثبات وبإرادة طوعية نحو إنجاز هذه المهام .

بعد فترة إتمام التدريبات الأولية ، تم توزيعنا على الوحدات القتالية ، ووزعت على تشكيل عسكرى فى الجبهة دون إعداد تخصصى ، ومع ذلك تمكنت من تعلم ما أسند إلى من مهام بأسلوب التعلم الذاتى ، وبمساعدة زملاء العمل القدامى من الجنود وصف الضباط .

ولم يلبث وجودى فى هذا التشكيل طويلاً ، حتى تم استدعائى لتعلم اللغة الروسية باعتبارى خريج إحدى الكليات التى تدرس اللغات الأجنبية بصورة واسعة نسبياً ، وبالرغم من تمتع هذه الدراسة بعوامل طرد كثيرة لدى الكثيرين ، ككون اللغة المدروسة هى الروسية بما تحمله من صعوبات دراسية وعدم جاذبية لمجتمعنا الذى احتك باللغات الغربية اللاتينية أكثر ، أو كون هذه الدراسة ستمد خدمتنا لأطول مدة ممكنة ، إلا أننى أيضاً أقبلت على الدراسة بمنتهى الجدية، وما كانت مبررات إقبالى تختلف كثيراً عما سقته من مبررات سابقة شدتنى للإقبال

على الدفاع الجوى ، بل إن الأمر فى هذه المرة الأخيرة حمل دوافع إضافية ، ففرص الاحتكاك بالخبرة والتقدم التكنولوجى حتماً ستكون أكبر ، والتعامل المباشر مع السوفيت وبلغتهم سيجعلنى أقف على مستوى الفكر العسكرى العصرى ، والمفاهيم الاستراتيجية والتكتيكية المرتبطة بذلك .

وتمكنت مع كثيرين من إتمام هذه الدراسة ، والإلمام المبدئى بأصول اللغة الروسية . وتأهلنا للعمل كمترجمين مباشرين كلٌ فى فرعه . وبدأ عملى كمترجم ، ورغم التعثر فى البداية، إلا أننى تمكنت من إتقان العمل شيئاً فشيئاً . ومع بداية عملى كمترجم بدأت معارفى بقضايا الدفاع الجوى تتكون وتزداد ، وأخذت تتكون معها بعض المعارف بالعلوم العسكرية وبقواعد التكتيك والاستراتيجية العسكرية ، والأهم من كل ذلك بدأت أدخل الميدان الحى وأقف على مجموعة من التجارب والمشاهدات عشتها بكل انتباهى . وسأعمل جاهداً على وضعها - وبصفة خاصة من جانبها العام - أمام القارئ ، لعلها تفيد - كما سبق أن أثرت - فى تكوين عناصر هامة تدخل فى بنيان استراتيجية عربية موجودة .

صواريـخ سـام وقصتـها معنا

فى البداية لابد أن أقرر أننى حتى الآن لا أعرف معنى كلمة «سام» فهى ليست كلمة روسية ، كما أننى لا أعرف ماذا تعنى هذه الكلمة بالإنجليزية ، هل هى اختصار لمجموعة كلمات وسام حروفها الأولى ؟ ؟ المهم أنه لا ضرر من استخدامها ، بمعنى أنها تلك الصواريخ السوفيتية الصنع أرض - جو المضادة للطائرات. كما أننى أيضاً لا أعرف مدلول أرقامها على وجه التحديد ، فهناك سام 1 ، 2 ، 3 ... إلخ ، ومدى انطباق هذه الأرقام على مدى التطور فى صناعة هذه الصواريخ ذات الخصائص الفنية المختلفة.

ولكن ما أعرفه أن هذه الصواريخ تحمل أسماءً روسية أخرى، وأعرف أن السوفيت يقومون بتسمية كل نوع منها على اسم أحد أنهار بلادهم الشاسعة ، فهناك نهر الديفينا ويوجد صاروخ الديفينا ، وهناك نهر الديسنا ويوجد صاروخ الديسنا ، وهناك نهر البتشيورا ويوجد صاروخ البتشيورا .. وهكذا .

وتبدأ قصة هذه الصواريخ فى مصر منذ أوائل الستينات ، حيث أدخلت إلى وحدات المدفعية المضادة للطائرات فى الفترة ما

بين سنتى (1962 ، 1964) ، وكانت من حيث وضعها داخل التشكيلات لا تتمتع بالاستقلال الذاتى ، سواء على مستوى التنظيم القتالى ، واشتراكها فى مهام حماية بعضها ، وذلك بتداخل أقواس نيران وحداتها ، أو على مستوى إدارة النيران وصدور أوامر القتال . فهى لم تعدو أن تكون وحدات مكملة للتركيبة الأساسية للدفاع الجوى ، والتى تعتمد على المدافع م / ط (أى المضادة للطائرات) ، وهى ما تسمى اصطلاحاً « بالمواسير»، لذا كانت وحدات الصواريخ المضادة للطائرات منتشرة على رقعة واسعة ، مما يجعل عملية التنسيق بين الوحدة والأخرى ضرباً من المستحيل .

أما من حيث أطقم التشغيل العاملة عليها ، فكانوا فى الغالب من الضباط العاديين ، أى الذين لم يتلقوا التعليم الهندسى الطويل ، سواء فى الكليات العسكرية الفنية أو المدنية .

وكان الجنود والصف من المتطوعين ، وأغلبهم من أكمل دروس المرحلة الإعدادية والتحق متطوعاً بالجيش . على الرغم من أن هذه الصواريخ تتمتع بخاصيتين محددتين ، أولهما التعقيد الفنى الشديد والمعتمد فى أسسه على علوم الكهربية والمغناطيسية والالكترونات ، وثانيهما أن قواعد الضرب والاشتباك بها تحتاج معارف عالية من الدراسات الرياضية والهندسية ، وأن القرار له جانب فنى معقد إلى جوار جانبه التنفيذى ، حيث يحتاج لمجموعة من الحسابات الدقيقة .

وفى الفترة ما قبل يونيو سنة 1967 ـ وكما روى لى كثير

من العاملين فى وحدات الصواريخ آنذاك ـ كانت الصواريخ تعامل وكأنها تحف منزلية نادرة . فكانت أبواب المحطة تقفل بالإقفال ويأخذ مفاتيحها القائد الذى غالباً لا يعود لفتحها مرة أخرى إلا كل ثلاثاء ، وهو اليوم المتفق عليه آنذاك لإجراء أعمال الصيانة الأسبوعية لهذه الصواريخ . وكانت عملية الصيانة تجرى بمعناها الميكانيكى ، أى عملية التنظيف وإزالة الأتربة، وعمليات التزييت والتشحيم ، ولا تجرى الصيانة بمعناها الكهربى ، أى تشغيل المعدات وقياس كفاءة وحدات التشغيل والصمامات والترنزاستورات ، ناهيك عن عدم عمل أى تدريبات على وحدة المقلد الملحقة بالمحطة ، والتى تمازج بين أعمال الصيانة والتدريب أى مطابقة الخصائص الفنية والتكتيكية، ومدى كفاءتها مع قواعد الاشتباكات والضرب وقدرة هذه الوحدات على أداء المهام القتالية بأعلى كفاءة ممكنة .

وعليه لم يك الأمر غامضاً أو ملفتاً للنظر حينما نعلم أن وحدات الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات لم تشتبك مع الطيران الإسرائيلى فى يوم 5 يونيو سنة 1967 ولا الأيام التى تليه ، أو أن اشتباكاتها كانت غير مؤثرة . وكذلك لم يك مدهشاً ـ وإن كان مثيراً للأسى – أن نعلم أنه أثناء عمليات الانسحاب ، تم ترك عدد من البطاريات بكامل عدتها وشكلها الميدانى دونما حتى تفكير فى تفجيرها أو تدميرها قبل الإنسحاب ، وبالتالى سقطت بين أربع وست بطاريات صواريخ سام كاملة فى أيدى القوات الإسرائيلية بوثائقها ، ومخططاتها الكهربية والهندسية،

وصناديق الشفرة الرادارية المستخدمة فيها .

وفى أعقاب هزيمة يونيو سنة 1967 ، أدخل على سلاح الصواريخ المضادة للطائرات بعض محاولات الإصلاح كما أدخلت إصلاحات على غيره من الاسلحة، ويمكن القول أن ذلك السلاح دخل مرحلة جديدة بدأت بانسلاخ الدفاع الجوى ذاته مشكلاً فرعاً جديداً وقوى رابعة للقوات المسلحة المصرية .

الصواريخ المضادة للطائرات حتى انتهاء سيادة مدفعية الميدان :

يمكن اعتبار المرحلة الثانية بالنسبة للصواريخ المضادة للطائرات ، تلك المرحلة التى تمتد بعد انتهاء حرب 1967 وحتى نهاية سنة 1969 ، ولهذا التحديد مغزى سوف نلمسه جلياً فيما بعد ، ولكن قبل ذلك لابد من تبين خصائص تلك المرحلة ، ومدى تميزها عن المرحلة الأولى التى سبقتها .

إذا كانت المرحلة الأولى هى مرحلة سيادة المدافع المضادة للطائرات بالنسبة للصواريخ المضادة للطائرات ، ضمن نطاق وسائل الدفاع الجوى ، سواء كان ذلك بالنسبة لعدد أو كمية النيران المطلوبة ، أو مدى الفاعلية ، أو بالنسبة للشكل التنظيمى الملائم لكل منهما ، أو حتى بالنسبة للإمكانات البشرية التى تتطلبها هذه أو تلك ، فإن المرحلة الثانية شهدت بعض التغيرات فى التركيبة النسبية لحجم الصواريخ المضادة للطائرات ، بما يعنيه ذلك من حدوث كثير من المتغيرات التى يستلزمها هذا الأمر ، فعندما زاد عدد وحدات الصواريخ ضمن حيز

القوة الرابعة، زاد الدور المطلوب منها من حيث كمية النيران ومدى الاعتماد عليها ، وبالتالى بدء الإعداد السليم والمتطور للكوادر الفنية الصالحة للتعامل مع هذه الأسلحة المتطورة ، وذلك على مستوى الإعداد الفنى للتشغيل ، وإصلاح الأعطال ، وعلى المستوى القتالى بالنسبة لقواعد الرمى أو الضرب ، وتكتيكات الاستخدام ، كما بدأ التنسيق بين بطاريات الصواريخ ومحطات الرادار يأخذ شكلاً دقيقاً من حيث استخدام المعلومات ، وانتظام ورودها ، وسرعة الاتصال بين المراكز القيادية لهما ، كذلك بدأ التنسيق بين الصواريخ المضادة للطائرات وبين سلاح الطيران يدخل مرحلة نوعية جديدة ، سواء فى مجال التدريبات الحية ، أو فى مجال التنسيق أثناء العمليات الحربية وتوزيع الأدوار بينهما .

ولكن بقيت مشكلة خطيرة لم يتم حلها أو حتى التصدى الجاد لها ، ألا وهى مشكلة وضع وحدات الصواريخ فى نظام متكامل للدفاع الجوى ، تقوم فيه وحداتها بالحماية المشتركة لبعضها البعض ، وحيث تصير لكل وحدة صواريخ جزء من المهمة فى تأمين الوحدة الأخرى المجاورة لها ضد هجمات الطيران، وذلك كما يقال عنه « تقاطع أقواس نيرانهما» . وبالرغم من ذلك ، تم تحسين مجال الدفاع حول الوحدة الواحدة من الصواريخ المضادة للطائرات ، وقد حدث ذلك فى اتجاهين ، الأول : تأمينها ضد هجمات الطيران بالبدء فى إحاطة كل وحدة بتشكيل أو أكثر من وحدات المدفعية المضادة للطائرات ، ذات الأعيرة الخفيفة لتأمين الصواريخ ضد هجوم الطيران المعادى المنخفض والمباغت ، والثانى : تأمين الدفاعات الأرضية لوحدات الصواريخ

المضادة للطائرات بواسطة قوات المشاة والمدرعات ، ضد عمليات التخريب وأعمال الكوماندز المعادى ، وعلى الرغم من سطو إحدى فرق الكوماندز الإسرائيلى على إحدى المحطات الرادارية الصغيرة على ساحل البحر الأحمر ، وما كشف عنه من خلل معيب ، إلا أنه كشف أهمية التحصين الأرضى لقوات الرادار وقوات الصواريخ المضادة للطائرات .

كما أن هذه المرحلة شهدت زيادة كبيرة فيما يقدم من المعاونة السوفيتية ، فوضع إلى جانب كل قائد فى مستوى الكتيبة مستشار سوفيتى مقيم بالوحدة ، كان هذا المستشار يبذل أقصى الجهد فى عمليات الإشراف اليومى على التدريبات، وصيانة المعدات ، سواء على مستوى الصيانة الميكانيكية ، أو الصيانة الكهربية ، وكان يقوم بتحضير المشروعات التدريبية سواء على مستوى إدارة المعركة وفنون القتال ، أو بالنسبة لعمليات التحرك والفك والتركيب المصاحب لها .

لقد كان متوسط ساعات عمل المستشار السوفيتى كقائد الكتيبة لا يقل بأى حال من الأحوال عن عشر ساعات عمل يومياً ، متنقلاً بين هذه المهام المتعددة ، ومختلطاً بالضباط والجنود فى تخصصاتهم . كما أن مثل هذا المستشار ينتظم فى جهاز هرمى كامل من المستشارين من أول مستشار قائد السلاح ومستشار رئيس العمليات حتى هذا المستوى الأدنى ، وكان إلحاحهم جميعاً ينصب على استمرار وتواتر عمليات التدريب يومياً بمعدلات متزايدة .

كذلك استعانت القيادة المصرية على المستويات العليا والوسطى بمجموعات من الخبراء المتخصصين السوفيت ، وهم غالباً مهندسون فنيون ومصممون وعاملون فى مصانع إنتاج هذه الصواريخ ، وكانت مهماتهم تنحصر فى الإشراف الفنى، وإصلاح الأعطال ، والتدريب للأطقم الفنية وأطقم إصلاح الأعطال ، وكان وضع الخبير يختلف عن وضع المستشار ، حيث أن الخبير كان يأخذ مرتبه كاملاً بالتعاقد مع القوات المسلحة المصرية من خلال القوات السوفيتية ، أى أن مرتبه كاملاً كان على حساب مصر ، وكان تواجده يرتبط بمهام محددة ، وذلك غير وضع المستشار الذى كان يأخذ مرتبه كاملاً من حكومة بلاده ، وكان تواجده يرتبط بفترة محددة ، يتبدل فيها مع غيره حينما تنتهى مدة الأول ... وهكذا .

ودخلت التدريبات فى المرحلة الثانية طوراً من الجدية لم تشهده المرحلة الأولى من قبل ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت أن مثل هذا لبتدريب لم يك بدأ أصلاً من قبل ، فقد تم التوسع فى إرسال البعثات التعليمية والتدريبية داخل الاتحاد السوفيتى على المستويين الفنى والتكتيكى، وتم تنشيط المعاهد التعليمية الداخلية وزاد الإقبال عليها ، كما بدأت وتطورت التدريبات الميدانية تحت إشراف المستشارين السوفيت على مختلف مستويات التشكيلات القتالية .

ويمكن القول - بالرغم من تميز المرحلة الثانية عن الأولى - إلا أنها ظلت حلقة وسطى بين ما سبقها وما سيتلوها ، بما تعنيه الحلقة الوسطى من حملها لخصائص الأولى والتدرج نحو

اكتساب صفات التالية ، فعلى قدر ما شهدته هذه المرحلة الثانية من تطورات، إلا أن سلاح الصواريخ المضاد للطائرات لم يصل فيها إلى اعتباره القوة الأساسية ضمن وسائل الدفاع الجوى المختلفة. كما أن هذه الفترة لم تمتد بالدفاع الجوى لتجعل منه نظاماً متكاملاً يمكنه تأمين محيط البلاد فى حده الأقصى ، أو تأمين وضع الجيشين الميدانيين وبعض الأهداف الحيوية داخل الوطن فى حده الأدنى .

صدفة لابد من الوقوف أمامها :

فى الشهور الأخيرة من عام 1969 ، دخلت حرب الاستنزاف ـ كما سبق الإشارة إليه ـ مرحلة هامة ، تسيدت الموقف فيها وسائل النيران الأرضية المصرية ، وعلى الأخص مدفعية الميدان . وأصبحت الحرب من مواقع ثابتة علامة شؤم ووبال على إسرائيل، فمدفعية الميدان المصرية ذات الضرب المباشر تقصف أى تحرك معادى فى مدى نيرانها ، وتمنع أى تجهيزات أو تحصينات إسرائيلية من أن تقوم وتجهض وتحطم ما سمى بخط بارليف الأول .

وتشكل غطاءً فعالاً لعمليات عبور وحدات الفدائيين ، ووحدات القوات الخاصة التى تعمل على إقلاق العدو وتكبيده خسائر فادحة ، ولكى نقف على حجم الخسائر المادية المتنامية لإسرائيل سوف نستعرض بعض بياناتهم ، بالرغم من أهمية التنبيه على أن هذه التقديرات معادية ومهونة للواقع ، فحسب تقديرات العميدين الإسرائيليين زئيف وجازيت « أن معدلات خسائر إسرائيل فى الفترة التى سبقت حرب الاستنزاف ، وعلى

وجه التحديد من 11 يونيو 1967 إلى 7 سبتمبر 1968 لم تتعدى إصابة أقل من عشر جنود شهرياً ، بينما ارتفع هذا المعدل فى الفترة من 8 سبتمبر 1968 إلى 4 يونيو 1969 ليصبح من (40 - 50 جندى مصاب شهرياً) ، وارتفع فى الفترة التالية لذلك وحتى نهاية حرب الاستنزاف إلى 72 إصابة شهرياً ، وهو ما يرفع ما خسرته إسرائيل فى حرب الاستنزاف إلى ثلاثة أمثال ما خسرته فى حرب يونيو 1967 كلها» .

على الجانب الآخر ، لم تستطع إسرائيل وقف هذه التطورات التى تحمل لها نذر الخطر ، وتنبئ بهبوط منحنى قوتها ، لقد فشلت قوات العدو الإسرائيلى فى استخدام وسائل مماثلة من مصادر النيران الأرضية للتصدى لمصادر النيران الأرضية المصرية. وظلت مدفعية الميدان المصرية فى وضع التسيد للموقف ، وبدا الأمر وكأن الميزان مال لصالح القوات المصرية ، وحسم تفوق مصادر نيرانها الأرضى . عند هذا الحد لم يك أمام إسرائيل إلا خيارها السهل ، ألا وهو ضرورة استخدام يدها الطولى ، ونقطة القوة فى بنيان قواتها ، سلاح طيرانها ، فلم يك بمقدور إسرائيل عبور القناة بأرتالها المدرعة لمواجهة هذه القوات المصرية ، فالعبور عملية صعبة فى حد ذاتها ، وغير مضمونة النتائج من ناحية ثانية ، وتبدو وكأنها تصعيد خطير فى جو وظروف دولية لن تكون مواتية لها تماماً ، لذا لم يك أمامها غير حلها الأسهل، وعليه أقدمت على ما ليس منه بد ، ودخلت بسلاحها الجوى ميدان المعركة دخلة قوية .

وفى الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر سنة 1969 ، كان الرئيس جمال عبد الناصر يقوم بزيارة للمغرب العربى . وقبل أن يقوم بهذه الزيارة عين أنور السادات نائباً له ، وتولى السادات ـ لأول مرة ـ إدارة شئون الدوله بالنيابة .

وفى يوم 25 ديسمبر سنة 1969 يوم عيد الميلاد المجيد حسب التقويم الغربى ، ويوم عيد ميلاد السادات ذاته ، قامت إسرائيل بعملية قصف مركزة على كل مواقع الصواريخ فى منطقتى القناة وشمال البحر الأحمر فى توقيتات متقاربة ، أو بالأحرى فى توقيت واحد . وتمكنت فعلياً من تدمير وإعطاب معظم – إن لم يك كل ـ بطاريات صواريخ سام التى أغارت عليها فى هذا اليوم. وكانت نهاية مرحلة ، وبداية أخرى . ربما صاغها القدر كى تكون مصادفة تشكلت على طالع السادات ، وربما تكون شيئاً آخر ينسجم مع تاريخ السادات ، قبل وبعد هذا اليوم . ولكن المؤكد أن إسرائيل أقدمت على فعلتها وهى تعلم أن إمكانات هذه القيادة المؤقتة ستوفر المناخ السهل لتنفيذ غدرها والمرور منه بسلام وأن الارتباك والإهمال وبطء الحركة كحد أدنى لهذه المصادفة أو إن شئنا الدقة الواقعة – يكفل لها الضمان المرجو للإقدام على ما أقدمت عليه .

وعلى الرغم من عجزنا فى تبين أبعاد هذه القضية وافتراض أن حدها الأدنى هو الحد المقبول والمعقول حتى هذه اللحظات ، إلا أننا لا نجد صعوبة حينما نقرر أنه قد بدأت فعلياً فى هذا اليوم عملية فتح أبواب مصر أمام طيران العدو . وبدأت مرحلة غزو

الأعماق المصرية فيما يسمى (بغارات العمق) ، وبدأت بالتالى مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف انتقلت فيها المبادرة إلى أيدى إسرائيل ، وقلب الميزان لصالحها .

الفعل ونقيضه هما أساس الحركة :

قالوا قديماً أن الظاهرة إذا زادت عن حدها انقلبت إلى ضدها ، وأثبت العلم الحديث أن لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه . وخلصت علوم التفكير فى المنطق والفلسفة إلى أن الحركة أساسها صراع المتناقضات ، وأن بروز ظاهرة يوجب بروز نقيضها ، وأنه مامن سلاح يخترع إلا ويظهر سلاح آخر يردعه ، وأن المعيار ليس فى أن يحمل السلاح الأول أو الثانى خصائص متطورة فحسب ، ولكن يتوقف الأمر على الجهد والوضوح المستخدم للسلاح فى حدود شرعية الهدف بالنسبة لمصالح الشعوب ، واتجاه حركة التاريخ .

حقاً فتحت بوابات مصر أمام طيران العدو الإسرائيلى ، ولكن بدأت على الفور عملية بناء نظام دفاعى يحمى أجواء مصر ، بدأت هذه العملية بأن أخذت شكلاً جاداً وجديداً ، فبذلت المحاولات لإحاطة مصر بسور عظيم من حوائط الصواريخ ، سور كاد ينافس سور الصين العظيم فى شهرته ، وربما تفوق عليه فى خدماته الدفاعية لمصر . إن هذا الحائط العظيم شكل ملمحاً هاماً وبارزاً لطابع عمليات الحركة والتطور والصراع بين مصر وإسرائيل ، بين إرادة الشعوب وإرادة مغتصبيها ، بين جبهة وتحالف الأصدقاء فى مواجهة جبهة وتحالف الأعداء ، إنه شكل

التجسيد العملى لدلالة كل هذه المتناقضات وحسمها فى اتجاه مصالح الشعوب ، ومع حركة التاريخ .

غارات العمق ، وإنهاك القوات المصرية بالقصف الجوى الإسرائيلى الخطير :

منذ ذلك اليوم ، فتحت بوابات مصر أمام طيران العدو الإسرائيلى وشيئاً فشيئاً ، دخل الطيران الإسرائيلى فى أخطر وأشرس عملية لتصفية كل بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات على عرض واتساع الساحة المصرية ، فى شمال الدلتا وشمال البلاد كلها، فى العمق حتى قلب القاهرة عاصمة الوطن وأكبر تجمعاته السكنية ، فى صعيد مصر حتى أسوان ونجع حمادى . ولم يمتد القصف فقط على مواقع الصواريخ ، بل امتد إلى كل نشاط تصورته إسرائيل دعماً لنشاط قوات الصواريخ المضادة للطائرات.

فقام طيران العدو بضرب المدارس والمستشفيات والحدائق والمطارات المهجورة ، لعل قوات الصواريخ مختبأة بها ، فهو يقصف مصنع حديد التسليح بمنطقة أبى زعبل لأنه – وكما ترى إسرائيل – ينتج حديد التسليح الخاص ببناء القواعد الخرسانية لمحطات الصواريخ ، ويخلف هذا القصف الغادر وراءه عشرات الضحايا من العمال والسكان المدنيين .

وهو يقصف مدرسة بحر البقر لأن إسرائيل تظن أن على سطحها، أو أسطح منازل مجاورة لها وحدات صواريخ مضادة للطائرات ، ويخلف هذا القصف الوحشى عشرات من جثث الأطفال المدنيين .

وهكذا اشتدت حملة إسرائيل فى البحث عن الصواريخ المصرية، وبرزت معها بأوضح الصور والأساليب الطبيعة العدوانية الغادرة للعسكرية الإسرائيلية ، والحقد الأسود للعدو المستمد من نهج اغتصاب أرض الغير ومصالح الشعوب ، والرغبة الشريرة فى الضغط على أصحاب الحق للتخلى عن حقهم فى مواجهة أساليب القهر البشعة التى تجيدها العسكرية الإسرائيلية ، والتى عبر عنها بجلاء ووضوح رئيس أركان حرب العدو آنذاك ، الجنرال (دافيد العازر) حينما قال :

« إن مخطط الجيش الإسرائيلى لعام 70 - 1971 يتضمن مواصلة الضغط على مصر بالقصف وفى الأعماق» [1].

وحينما استطاع الطيران الإسرائيلى أن يحقق نجاحاً فى مهمته الوضيعة ، ويصيب ويعطب كل قواعد الصواريخ المضادة للطائرات على الجبهة والبحر الأحمر ، ويجبر القواعد الأخرى التى لم تصب فى أماكن متعددة بالعمق على التحوصل تارة فى مواقع حصينة ، والتشوين تارة أخرى لانتظار ظرف يحسب ويخطط له ، إندفع العدو الإسرائيلى باستخدام سلاح طيرانه فى أكبر عملية استباحة وعربدة فوق مواقع قوات الجيشين الميدانيين الثانى والثالث على خط الجبهة فى قناة السويس وشمال البحر الأحمر.

وأصبح مشهوراً أن إسرائيل تقذف كل يوم تلك المواقع بما

(1) اللواء الركن حسن البدرى ، حرب الاستنزاف (28 سبتمبر 1968 - 7 أغسطس 1970) القاهرة ، مجلة السياسة الدولية - مؤسسة الأهرام المصرية ، أكتوبر 1978 ، ص 183 .

قيمته مليون جنيه من القذائف والذخائر ، كما كان يردد الرئيس عبد الناصر فى خطبه آنذاك ، وتعكس الإحصاءات أرقاماً تدعو إلى الفزع ، إذا علمنا أنه فى شهر يونيو سنة 1970 قام الطيران الإسرائيلى بعمليات قصف على مواقع الجيشين الميدانيين الثانى والثالث تقدر بـ 246 ساعة قصف جوى ، مجمعة فى 1912 طلعة جوية [2] حظى منها الجيش الثانى بنسبة 81% من جملة القصف ، والجيش الثالث بنسبة 13,6% .

إن هذه الأرقام المخيفة حول طاقة القصف الإسرائيلى أثبتت بوضوح أن الطيران الإسرائيلى قد دخل ميدان القتال وأصبح فى مواجهة التشكيلات الميدانية الأرضية للقوات المسلحة المصرية . ومع هذا الهجوم الشرس – وأمام قدرة محدودة لسلاح الطيران المصرى ـ استطاع بواسطتها القيام بمحاولة الرد على المواقع الإسرائيلية حيث قام فى شهر أبريل سنة 1970 بخمس غارات على المواقع الإسرائيلية فى شمال سيناء [3] ، كان واضحاً مدى التفوق الذى سجله الطيران المعادى فى مواجهة تشكيلات القوات المسلحة المصرية ، بمختلف فروعها سواء البرية أو البحرية ، أو وسائل الدفاع الجوى ، مما بدا معه ، وكأن حرب الاستنزاف قد ارتدت سهامها إلى صدر مصر .

وكان الموقف صعباً وما هو مطلوب كبيراً ، وليس فى إمكانية مصر أو العرب ، فلابد إذن من الالتجاء إلى حلف معاداة الإمبريالية والصهيونية ، وفى هذا الحلف يبرز الاتحاد السوفيتى

(2) المرجع السابق . ص 190 .

(3) المرجع السابق . ص 190 .

باعتباره القوة الأولى ، والسند العضود لاتجاه معاداة الاستعمار فكان لا بد من اللجوء إلى الاتحاد السوفيتى ، ولم يك المطلوب فى هذه المرة مجرد قطع من الأسلحة أو الصواريخ المتقدمة علمياً وتكنولوجياً ، ولكن كان الأمر أكبر من ذلك ، فالطلب فى هذه المرة قوات مسلحة سوفيتية متكاملة (أى بشر وسلاح) .

وبالفعل ، سافر الرئيس جمال عبد الناصر فى زيارته السرية لموسكو فى أوائل يناير سنة 1970 برفقة القائد العام للقوات المسلحة المصرية ، ووضع الرئيس طلبه أمام القادة السوفيت ، ولأن الطلب خطير ـ ولأنه خطوة لم يسبق لها مثيل خارج نطاق منظومة الدول الاشتراكية ـ وجد القادة السوفيت أن القرار أكبر من قدرتهم على تلبيته فى دوائر محددة ، ولم تستطع الحكومة السوفيتية ، ولا حتى مجلس الرئاسة الأعلى ، ولا المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفيتى أن يتخذ القرار على مسئوليته الخاصة ، فكان لابد من وجود هيئة أعلى وأوسع .

إنها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، السلطة العليا والموسعة الدائمة فيما بين انعقاد مؤتمرات الحزب الشيوعى العامة ، وفعلاً قام المكتب السياسى بدعوة لجنة الحزب الشيوعى السوفيتى المركزية لاجتماع طارئ وعاجل ، خرجت فيه الطائرات المدنية السوفيتية لتجمع أعضاء اللجنة من أماكن تواجدهم فى بلادهم المترامية الأطراف ، إلى موسكو عاصمتهم ، حيث مقر الاجتماع المرتقب والضرورى .

وتم عقد اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى،

وتمت فيها الموافقة على الطلبات المصرية بإرسال قوات مسلحة سوفيتية للدفاع الجوى عن أرض مصر وأجوائها وإجراء عملية سد سريع لتلك الأبواب التى فتحت ، والموافقة على استقبال مجموعات كبيرة من القوات المسلحة المصرية كأطقم عمليات مكتملة للدراسة داخل الاتحاد السوفيتى ، وتتعلم أنواعاً جديدة من فنون القتال على صواريخ مضادة للطائرات من طراز ، حديث وهى صواريخ البتشيورا ، صواريخ سام 3 ، والموافقة أيضاً على إرسال وفد عسكرى سوفيتى رفيع المستوى ، للمساعدة فى عمل خطة على الواقع ، لبناء نظام متكامل للدفاع عن أجواء مصر ، ومتابعة تنفيذ هذه الخطة .

لقد قوبلت قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى هذه بارتياح كبير لدى القيادة المصرية ، وتأكد الشعب المصرى مع كل يوم يمر ويبعد فيه شبح الغدر الإسرائيلى وشراسة قصف طيران العدو من موقفه بأن هذه القرارات هى قرارات حلفاء مصلحة وأهداف مشروعة .

وتأكدنا نحن داخل صفوف القوات المسلحة أننا ضمن رفقة واعية بأهدافها ومصالحها واضحة فى التعبير عن مبادئها وقضاياها فى معاداة الاستعمال والصهيونية .

ولكن على الجانب الآخر ـ جانب الأعداء ـ كانت المفاجأة وكان الارتباك ، ففى أوائل سنة 1970 ، عندما سئل عيزرا وايزمان عن احتمالات نجاح مصر فى جذب الاتحاد السوفيتى إلى مزيد من التدخل فى الشرق الأوسط تحت ضغط غارات العمق ،

أجاب قائد سلاح الطيران السابق ووزير المواصلات وقتها بقوله « لا يوجد هناك أمل كبير فى تدخل السوفيت فى الشرق الأوسط بضغط من مصر» [4].

ورغم هذا التأكيد الإسرائيلى، خابت تقديرات عيزرا وايزمان وخابت معها تقديرات كل دوائر العدوان داخل الإمبريالية وإسرائيل، فالجبهة المعادية للإمبريالية إذا وعى أطرافها حقائق الصراع ، والتعاون بين الأصدقاء ، ورفض أى دعاوى تخديرية تحذيرية عن انصلاح مواقف الأعداء لا تقف فى وجهها مثل تقديرات وايزمان أو خلافه .

لقد بدأ على الفور تنفيذ الاتفاقات المصرية السوفيتية الثلاثة ، وتحققت ما يسميها الخبراء العسكريون بالمفاجأة الاستراتيجية ، ورويداً رويدا انحسرت غارات العمق ، ولكن فى الطريق إلى ذلك كانت الأحداث كبيرة وعميقة ، وكان تلامسها لي حقيقة ، وتشكيلها لمعارفى حقيقة أوضح .

خلال مدى زمنى بسيط ، بدأ توارد القوات السوفيتية إلى الأراضى المصرية ، وجاءت هذه القوات فى اتجاهين :

الأول : قوات طيران كبيرة تضم تشكيلات متكاملة لتقوم بعملية تأمين سريع بالمظلات الجوية لحماية الأهداف الحيوية للأعماق المصرية ، وخاصة حول القاهرة والإسكندرية وأسوان .

ولقد تمركزت هذه القوات فى قواعد جوية يسهل منها تنفيذ

(4) اللواء الركن حسن البدرى – المرجع السابق .

مهامها السريعة ، ولأن حجم هذه القوات قد يكون من قبيل الأسرار العسكرية ، إلا أنه لم يمكن التأكيد على أنها كانت أطقم قتالية متكاملة ، سواء على مستوى الطيارين أو الموجهين الأرضيين ، أو الأطقم الفنية أو الأطقم الرادارية ، وكانت من الكبر من حيث العدد والحجم وكفاءة التشغيل ، بما يمكنها من تنفيذ مهامها ، فى تأمين الأهداف الحيوية وتأمين الحماية للأعماق المصرية منفردة ، اللهم إلا من معاونة أطقم الصواريخ المضادة للطائرات ، والسوفيتية التشغيل والصنع ، بإتباع أسلوب المظلات الجوية ؟

الثانى : قوات دفاع جوى تتكون أساساً من مجموعات كبيرة من وحدات صواريخ البتشيورا « سام 3» ، والمنتظمة ضمن مجموعة من التشكيلات المتكاملة . فهناك الأطقم القتالية السوفيتية ، والأطقم الفنية ، وأطقم الإصلاحات، وأطقم جمع المعلومات الرادارية ، وأطقم توصيل هذه المعلومات وإذاعتها للقوات القتالية ، وأطقم القيادة بل وأطقم الإعاشة والأطقم الإدارية ، وكلها أطقم سوفيتية خالصة . وتمركزت فى مواقعها حول القاهرة ، والإسكندرية وأسوان ، حيث كان لكل دائرة من هذه الدوائر الثلاثة قيادتها الفرعية ورغم سرية المعلومات الخالصة بالحجم والعدد لهذه التشكيلات ، إلا أنها كانت من الكبر والكفاءة القادرة على تنفيذ مهام الحماية للعمق وللأهداف الحيوية المصرية وحدها ومنفردة ، إلا من التنسيق ومعاونة الطائرة السوفيتية التشغيل .

وربّ قائل بتساؤل ، لماذا جاءت القوات السوفيتية ، وتمركزت فى العمق فحسب ؟

والإجابة واضحة وبسيطة ، فالمهام الأولى بالرعاية ، والتى تسبق ما عداها من حيث الأولوية ، هى مهام حماية العمق ، وتأمين المدنيين الذين بدأت إسرائيل بترويعهم من خلال غارات العمق .

كان ذلك لتأمين المواطنين بهدف المحافظة على الروح المعنوية العامة فى البلاد ، هذا من جانب ، ومن جانب ثانٍ تأمين دوائر داخلية محددة ضمن العمق المصرى للم شتات قوات الدفاع الجوى المصرية ، وإعادة ترتيبها وتنظيمها ضمن تشكيلات قتالية قادرة على خلق بديل وطنى كنظام متكامل للدفاع الجوى المصرى ، يحتاج لفترة كافية من الوقت ، ولمناطق آمنة بعيدة عن مدى القصف الإسرائيلى بهدف إعادة التشكيل والتدريب والإعداد .

إن من ينظر إلى حجم القوات السوفيتية التى قدمت إلى مصر فى الشهور الأولى من سنة 1970 يخرج بنتيجة محددة ، وهى أنه قد جئ بنظام متكامل يكفل تأمين حماية العمق المصرى من الطيران الإسرائيلى ، ويتكفل بتنفيذ مهام الدفاع ذات الأولوية الحادة التى تواجه القوات المسلحة المصرية وتواجه القيادة العسكرية، بل والقيادة السياسية للبلاد ، وتؤمن الأجواء لإعادة تشكيل وتطوير نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى، يقوم أساساً على القوات الوطنية بالمعاونة السوفيتية تدريباً وتسليحاً وتنفيذاً لبعض المهام القتالية.

نظام جديد للدفاع الجوى المصرى

تتبعنا فى الفقرات السابقة حدود الاتفاق الأول بين مصر والاتحاد السوفيتى ، والذى تم بموجبه قدوم تشكيلات متكاملة من قوات الطيران والدفاع الجوى السوفيتية وكان الاتفاقان الآخران يضعان الأساس المتين لبناء نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى . ففى نفس الفترة ـ وهى أوائل سنة 1970 ـ تم حشد مجموعات ضخمة من الضباط والجنود وصف الضباط المصريين ، وتم توزيعهم فى تشكيلات محددة ، ثم ذهبوا جميعاً للدراسة داخل الاتحاد السوفيتى ليتعلموا على سلاح جديد، لم يك الجيش المصرى تسلمه قبل هذا التاريخ ، وهو صاروخ البتشيورا المضاد للطائرات ، ذلك الصاروخ الذى يملك قدرة عالية على التعامل مع الطيران المنخفض . وكانت هذه الأطقم تعد كأطقم متكاملة ، سواء على المستوى الفنى أو القتالى أو الإدارى .

وعلى مستوى الاتفاق الثالث ، ومنذ أوائل سنة 1970 أخذ العاملون بالدفاع الجوى المصرى يلحظون ظاهرتين واضحتين، الأولى : ورود سيل لا ينقطع من معدات الصواريخ الديسنا والديفينا ، والتى يمكن أن يقال عنها سام 1 ، سام 2 ، وهذه

الصواريخ المضادة للطائرات صواريخ بعيدة المدى نسبياً وكفاءتها القتالية عالية مع الطيران العالى والمتوسط من حيث الارتفاع ، وهى تلك الصواريخ التى كانت موجودة لدى مصر منذ فترة طويلة وبالذات الصاروخ من طراز الديفينا ، وعليه كانت الخبرة المصرية منحصرة فى العمل على هذين الصنفين حتى تلك الأيام .

الظاهرة الثانية : تتمثل فى حضور وتواجد مجموعة كبيرة من كبار السوفيت العسكريين والمتخصصين فى الدفاع الجوى، وذلك للمشاركة فى التخطيط والإشراف على التنفيذ لعملية كبيرة وضخمة ، ألا وهى عملية بناء نظام متكامل للدفاع الجوى على أسس جديدة . وبحكم احتكاكى كمترجم قابلت رتباً عالية ، حيث كان أحدهم يحمل رتبة مارشال الإتحاد السوفيتى . وهذه الرتبة حسب ما أعلم لم يك يحملها فى كل الاتحاد السوفيتى غير خمسة أو ستة أشخاص ، وطال وجود هذه الرتب العالية بيننا إلى عدة شهور .

إن هاتين الظاهرتين شكلت إلى جوار ظواهر أخرى البعد الثالث للاتفاق المصرى السوفيتى ، وهو البعد الأكثر أهمية ، والذى يستمد أهمية من كونه البعد الأبقى ذى المهام المستمرة . إنه بناء نظام مصرى خالص ومتكامل للدفاع الجوى ، يعتمد على السواعد المصرية والأسلحة السوفيتية المتطورة . إن بناء القوة المحلية لأى نظام هو اللبنة الأساسية لعمليات البناء المتطورة عموماً . إن أى معونة أو مساعدة تأتى على نظام متواجد تكون

أجدى وأنفع ، وفرق كبير بين تعاون يقوم بين حلفاء ، وبين عمل يقوم به طرف نيابة عن الطرف الأخرى .

ولقد اعتمدت خطة بناء نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى على مجموعة الأسس واللبنات ، وذلك حسب الهدف المرجو وزاوية الرؤية التى ننظر منها ، فمثلاً من حيث نسبة الصواريخ إلى باقى وسائل الدفاع الجوى الأخرى مثل المدافع المضادة للطائرات ذات الأعيرة المختلفة ، تزايدت نسبة الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات إلى حد أنها أصبحت تشكل القوة الأساسية ضمن مصادر نيران الدفاع الجوى ، وأصبحت المواسير تقوم بدور تكتيكى تكميلى سواء حول وحدات الصواريخ ، أو فى الأماكن والمواقع التكتيكية التى لا تتطلب وجوداً مكثفاً لنيران الدفاع الجوى .

أما من حيث شكل البناء لنظام الدفاع الجوى المصرى ، أى شكل توزيع الوحدات ومواقعها ، فقد اعتمدت الخطة الجديدة على شبكة كثيفة من مواقع الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات تقوم فكرتها على تكوين خط حصين بموازاة شمال البحر الأحمر وقناة السويس ، وشمال البلاد بموازاة البحر المتوسط ، ويعتمد بناؤه على صفين أحدهما وراء الآخر ، وتتقاطع مواقعهما فى أقواس نيرانها ، بحيث تشكل مجموعة من المثلثات المتراصة ، كل مثلث منها تشترك رؤوسه الثلاثة فى حماية بعضها البعض . ومن ناحية أخرى بناء خطوط دائرية تقوم فى داخل البلاد لتأمين الأجواء حول المدن الكبرى والأهداف

الحيوية ، وتقوم على ذات الترتيب السابق أى على فكرة المثلثات المتراصة ، والمتداخلة أقواس نيران المواقع المقامة على رءوسها ، وتداخل الواجب الدفاعى بين المثلثات المتجاورة .

وكذلك اعتمدت الخطة الجديدة على حشد كافة الإمكانات لإنجاح مهمة هذا البناء المتراص ، فاتجهت إلى زيادة عدد الأفراد المؤهلين تأهيلاً فنياً عالياً ، سواء كانوا من الضباط أو الجنود ، واتسعت خطة التدريب وتعمقت ، سواء على المستوى الفنى وإصلاح الأعطال ، أو على مستوى إدارة العمليات القتالية، كذلك تم حشد كثير من المعدات المعاونة لمجهود الدفاع الجوى ، وزادت وتحددت ملامح أعمال المعاونة والتعاون مع الأسلحة الأخرى كأسلحة الإشارة ، والمهندسين ، وسلاح الطيران، والشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية.

وكان أنسب الأماكن وأيسرها لبدء تنفيذ عملية بناء هذا النظام القائم على الأسس التى أوضحنا بعضها فى السطور السابقة هو الخط الشمالى فى موازاة ساحل البحر المتوسط ، وذلك لعدة اعتبارات نذكر منها أنه كان أكثر أمناً من حيث أنه يبعد عن خط المواجهة الرئيسية مع العدو ، وأن تركيز العدو بطيرانه عليه أقل حدة من تركيز الطيران المعادى فوق الخط الشرقى .

وكانت وحدات القطاع الشمالى من بطاريات صواريخ سام المضادة للطائرات هى أقل الوحدات تعرضاً للخسارة فى الهجمات الإسرائيلية ، وكذلك كانت القوت السوفيتية التى تعمل

على بطاريات صواريخ سام 2 المضادة للطائرات تغطى حيزاً لا بأس به من هذا الضلع الشمالى للمستطيل المصرى ، وذلك حول الإسكندرية . لكل هذه الاعتبارات كان يمكن دفع المزيد من بطاريات الصواريخ التى تم تجميعها من القوات الناجية من غارات القصف الإسرائيلى الوحشى إلى هذا الخط الشمالى ، وتنفيذ الفكرة العامة للبناء ككل بتلك التجربة المحددة فى الخط الشمالى .

أما فيما يتعلق بالخط الشرقى شمال البحر الأحمر وبموازاة قناة السويس ، وهو الخط الأهم و الأخطر ، والذى يشكل حجر الزاوية ضمن هذا النظام المتكامل ، والذى يتطلب سرعةً وإلحاحاً كبيراً ، يمكن من تغطية الجيشين الميدانيين ، وكفالة الحماية الجوية لقواتهما ، فقد يلزمه عملاً دقيقاً ومخططاً . فذلك الخط تحت سيطرة طيران العدو الذى ينفث فيه سمومه بعد أن ضاق عليه الخناق ، وأصبح العمق آمناً ومنطقة لا يمكن له الاقتراب إليها . كما أنه يلزمه حشداً وتعبئة فائقة، يجب التقدم إليها بعمل دءوب ودقيق ، أى أن الأمر فيما يتعلق ببناء هذا الخط يحتاج إلى إعداد من نوع خاص ومجهود مركز ، أخذ الاتجاهين الآتيين :

أولاً : الإعداد السياسى والاستراتيجى العام :

شارك فى هذا المستوى من الإعداد كل من القيادتين السياسية العليا والعسكرية العليا ، فقد نزل الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً إلى ساحة الميدان ، وبدأ مباشرة عملية الإعداد بنفسه،

وكان يصطحب القائد العام للقوات المسلحة المصرية معه ، فأجرى سلسلة من الاجتماعات امتدت حتى شملت كل رتب الضباط حتى رتبتى رائد ونقيب ، أى شملت كل القادة حتى مستوى قائد كتيبة ، وقائد سرية داخل قوات الدفاع الجوى عموماً ، وداخل قوات الصواريخ المضادة للطائرات خصوصاً .

وفى أحد هذه الاجتماعات الموسعة - وكان الاجتماع على شكل مؤتمر كبير للقادة حتى مستوى قائد سرية فى قوات الصواريخ المضادة للطائرات - جرت مكاشفة حول طبيعة المهمة ، وعرضاً لأبعاد الخطة العامة لبناء هذا النظام المتكامل للدفاع الجوى ، وبالذات تم شرح الأهداف والخطوات العملية لتنفيذ هذه الخطة ، ووضعها فى حيز التنفيذ . وطلب الرئيس جمل عبد الناصر رأى الضباط فى هذه الخطة ، وفى إمكاناتهم لتنفيذها ، عندئذٍ قام ضابط يحمل رتبة صغيرة - وهو برتبة رائد - وكاشف الرئيس بأننا فداء لمصر ، والخطة كبيرة وعظيمة، ولكى يكون الإقبال عليها نشطاً وفعالاً ، فإنه يريد أن يسجل أن جل أمل الأطقم العاملة فى وحدات الصواريخ المضادة للطائرات ، جنوداً وضباطاً ينحصر فى بناء الدشم والتحصينات الخراسانية، حول أماكن القيادة ، وللمعدات ومراكز القيادة والتوجه للنيران .

ووضح أن هذا الطلب ينبع من خطورة القصف المعادى وشراسته، الذى يستخدم قنبلة زنة ألف رطل متفجرات ، وأحياناً يشترك اثنين منها بمفجر واحد ، ويضرب بهما موقع الصواريخ ، مما

ينتج عنه نسف الطاقم بمعداته ، وتكوين حفرة يتراوح قطرها بين 20 إلى 30 متر وعمقها حوالى عشرة أمتار ، وأن ذلك يسبب أضرار بالغة وخسائر عالية فى الأفراد المدربين ، ويؤثر فى الروح المعنوية للعاملين بهذه الوحدات .

وحينما طرح الشاب هذه الفكرة ، وجسدها فى هذا الطلب وهو بناء الدشم الخرسانية المحصنة ، والتى تقاوم انفجار قنبلة أو أكثر من زنة رطل متفجرات ، تحركت مشاعر الجالسين وانفكت عقدة ألسنتهم ، وبدؤوا الواحد تلو الآخر يدلو بدلوه فى المناقشة ، سواء توضيح أهمية هذه الدشم ، أو مناقشة الجوانب المختلفة للخطة ، مما حمل الرئيس عبد الناصر - قبل أن ينتهى ذلك المؤتمر - إلى التأكيد بأنه سيعمل على إكتمال بناء الدشم الخرسانية المحصنة لمواقع الصواريخ قبل البدء فى تنفيذ خطة بناء النظام المتكامل للصواريخ المضادة للطائرات ، خاصة على مواقع الخط الشرقى أى خط الجبهة .

واعتبر الرئيس جمال عبد الناصر أن ما قاله يعد وعداً منه قبل قوات وأطقم الصواريخ ، وسيبذل قصارى جهده لتنفيذه ، وأنه لن يسمح بدخول القوات إلى مواقع الخط الشرقى إلا بعد استكمال تحصينه ، ببناء الدشم الخرسانية .

وقبل الدخول فى تسلسل الأحداث ، يجب الوقوف عند دلالة هذا الاجتماع ، وكيف أن المناقشة الحرة ، والعمل الديمقراطى، يفجران أكبر الطاقات وأعمقها ، ويسمحان ببروز أخطر

الأفكار وأحسنها وأوضحها وأكثرها علمية وعملية ، لأن الوضوح يكون مجالها والاقتناع هو أساس الإرادة الحرة التى تقدم لإنجازها .

الملحمة الكبيرة :

بعد انتهاء الحوار الذى أداره الرئيس جمال عبد الناصر مع ضباط الدفاع الجوى ، بدأت الخيوط تنسج ليصنع منها أعظم وشاح غطى صدر الطبقة العاملة المصرية . لقد بدأت ملحمة حقيقية سطر فيها العمال المصريون بدمائهم الزكية العزيزة أسمى آيات التضحية والفداء .فانتشرت فى الصحراء الشرقية بمحاذاة قناة السويس وشمال البحر المتوسط وفى أعماق متباينة التباعد من خط قناة السويس ، خلايا نشطة للبناء والتشييد ، حيث تواجد آلاف العمال والمهندسين والفنيين من البنائين فى تلك المواقع ، يحدوهم هدف واضح ومحدد ، وهو إنجاز بناء الدشم الخرسانية الحصينة ودعم مشقة العمال فى الصحراء القاحلة ، وقطرات العرق التى سالت أنهاراً على الجباه السمراء من رجال مصر ، لم يتركهم الطيران الإسرائيلى الغادر للبناء ، فأخذ يعمل فيهم أقذر حيله وخداعه ، ويشرع مناجله الحادة لحصد الرجال ودك ما يبنونه ، وكأنه محاريث يجرها مجموعة من الوحوش الهمجية أتت على هذه الواحات ، فأحالت الكثير منها إلى حصادٍ وحشيٍ.

لقد ساهمت الطبقة العاملة المصرية بنصيبها الوافر فى معركة بناء نظام للدفاع الجوى المصرى ، وقدمت مئات الشهداء من العمال المدنيين تحت ظروف ضراوة القصف المعادى الشرس للطيران

الإسرائيلى ، إن حماس العمال المصريين وتضحياتهم تفوق أى محاولة غبية لادعاء البطولة على حسابهم ، من بعض المقاولين الذين ارتبطت تحركاتهم وأسماؤهم بأسماء بعض الجواسيس من أقربائهم ، والذين قدموا معلومات للعدو انعكست و ترجمت إلى مزيد من عمليات القصف والإبادة الإسرائيلية للعمال والمهندسين والفنيين المصريين .

وغنى عن البيان ، التذكير بأن هذه الملحمة تطلبت حشداً عظيماً لكافة الإمكانات المادية والبشرية فى قطاع البناء والتشييد ، فلقد ساهمت فيها كل شركات البناء المصرية واشترك فيها لفيف و نخبة عظيمة من أخصائى البناء الخرسانى، من العمال والفنيين والمهندسين . وتم حشد طاقات مصانع الأسمنت والحديد ومواد البناء لتزويد هذه المواقع بالخامات الضرورية ، أو بوحدات جاهزة وتامة الصنع من الألواح الخرسانية .

وفى هذا الصدد يذكر وبكل العرفان ، الدور السوفيتى ، وما أسهم به من معونة كبيرة فى مجال التخطيط والتصميم للدشم والمواقع ، والإشراف والمتابعة لعمليات البناء بالمواصفات المطلوبة، وما قدموه من جهد وعرق ، بل وما جادوا به من دم ، حيث روى دم شهدائهم أرض مصر الزكية ، ليرعى نبت التحالف والصداقة بين شعبى الدولتين .

ثانياً : الإعداد العسكرى :

فى هذا المجال ، تم تجميع كافة الوحدات العاملة فى مجال الصواريخ الموجهة المضادة للطائرات . وتسكينها فى مواقع آمنة

داخل دائرة الحماية التى كفلتها القوات السوفيتية . وتم إعادة تشكيلها سواء على مستوى إعادة التشكيلات القيادية ، أو على مستوى التشكيل القتالى الأدنى . وتم تخليق مجموعة كبيرة من الأطقم القتالية ، وذلك بإعادة توزيع الأطقم القديمة توزيعاً يضمن المحافظة على قوتها ، وأخذ ما يزيد عن الضرورى لخلق أطقم جديدة ، وفى هذا المجال نشطت معاهد التدريب ومدارس الإعداد الفنى والقتالى فى تخرج أعداد هائلة من الدارسين .

ونشطت تبعاً لذلك عمليات التدريب ضمن هذه المواقع المؤقتة، ولعب المستشارون السوفيت دوراً نشطاً ومميزاً فى توجيه هذا التدريب والإشراف عليه . لقد كثرت تكوينات الفرق الدراسية للتخصصات المختلفة ، وكثرت حملات التفتيش والمتابعة ، وزادت ساعات التدريب إلى حد لم تشهده القوات المسلحة من قبل .

لقد قارب شهر مارس سنة 1970 على الانتهاء ، لتبدأ عملية نشاط تدريبى دراسى واسعة ويتمخض هذا الشهر عن ولادة تشكيلات قوية لقوات الصواريخ الموجهة أرض ــ جو والمضادة للطائرات ، تزداد وحدتها وأطقمها القتالية والفنية ، ويزداد مستوى تدريبها وإعدادها الفنى القتالى . هذا فى الوقت الذى سجل فيه شهر مارس توقف غارات الطيران الإسرائيلى على العمق المصرى ، خوفاً من مظلة الحماية التى كفلتها القوات السوفيتية القتالية من سلاحى الطيران والدفاع الجوى ، وأصبح نشاط الطيران الإسرائيلى منحصراً فى صب نيران حقده الأسود

على الجبهة المصرية بمحاذاة قناة السويس ، وفوق مواقع الجيش الميدانيين الثانى والثالث . وشهدت شهور أبريل ومايو ويونيو سنة 1970 ، تزايد عمليات القصف الإسرائيلى على هذا الخط إلى حد الهوس ، فلو تتبعنا إحصاء المعلومات المتوافرة ، لتبينا خطورة ما كان يحدث فى هذه الأيام ، فلو افترضنا أن معدل القصف الذى صبه الطيران المعادى على قوات الجيشين الميدانيين يمثل نسبة 100% فى شهر أبريل سنة 1970 ، نجد أن ـ

« هذه النسبة ارتفعت إلى 141% خلال مايو ، ثم واصلت ارتفاعها لتصير 267% خلال شهر يونيو سنة 1970» [5].

وإذا كان الطيران المعادى ركز مجهوده الأساسى على خط منطقة قناة السويس ، إلا أنه كلما حانت له الفرصة لتوجيه ضربات غادرة مباغتةً فى أى اتجاه أتى عليها بدون أدنى تردد. لذا ظهرت وسط هذا التركيز الحاد على قصف مواقع وقوات الجيشين الميدانيين المصريين تسللات إسرائيلية هنا وهناك ، سواء كان ذلك فى الشمال الشرقى للبلاد ، أو فى الشرق عند مناطق صعيد مصر .

وهكذا بدت الصورة كالآتى : العمق المصرى أصبح آمناً، وخرجت دوائر العمق عن خطوط سير الطيران المعادى ، بل بالعكس صارت مناطقه قلعة محصنة لا يجوز للطيران الإسرائيلى أن يقترب منها ، لقد عبر دافيد اليعازر (رئيس الأركان الإسرائيلى) عن تلك الحقيقة حينما قال فى مارس

(5) اللواء حسن البدرى – المرجع السابق .

سنة 1970 : « إن إسرائيل مضطرة لوقف غاراتها على العمق المصرى نتيجة لضغط المفاجأة المصرية الاستراتيجية» [6] .

ومع انحسار دائرة الحركة أمام الطيران المعادى وتقلصها ، زادت تصريحات قادة العسكرية الإسرائيلية شراسة وعصبية، وانصبت كلها حول أنها لن تسمح للدائرة بمزيد من التقلص ، وإذا كان تم ما قد تم ، فإن القادم لن يكون فى اتجاه حصار طيرانها ، ففى 30 مارس 1970 صرح إيجال آلون « بأن إسرائيل تنوى القيام بأقصى مجهود ممكن تخيله للحيلولة دون توسيع شبكة الدفاع الجوى المصرية» ، كما قال « إن السيطرة الإسرائيلية فوق منطقة القناة لا يمكن الاستغناء عنها ، فبدون هذه السيطرة تستطيع المدفعية المصرية أن تتمتع بتفوق ساحق فى النيران ، وتستطيع الطائرات المصرية أن تضرب المواقع الإسرائيلية دون هوادة ، إن خطتنا هى متابعة قصف شبكة الدفاع الجوى المصرية الحالية والمنشآت العسكرية الأخرى ، كما سنمنع إقامة شبكة دفاعية جديدة ، أو ترميم الشبكات القديمة التى تمكنا من تدميرها» [7] .

وفى مايو سنة 1970 صرح موشى ديان - وزير الحرب الإسرئيلى « بأن إسرائيل لن تسمح بإقامة أنظمة صواريخ سام 2 على منطقة قناة السويس ، وأكد أنها لن تقوم بأية عمليات عسكرية خارج نطاق الدفاع عن مواقعها الأمامية» [8] .

(6) اللواء حسن البدرى – المرجع السابق .
(7) المرجع السابق .
(8) المرجع السابق .

ورغم عنف التصريحات لقادة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وعدم سماح وزير الحرب الإسرائيلى باتساع دوائر الدفاع الجوى المصرى ، إلا إن الأمور سارت فى خطها الصحيح ، وبدت عملية « قلب المائدة»التى خططت لها إسرائيل ونفذتها كعملية وقتية عابرة . وإن المائدة فى طريقها إلى أن تأخذ اتجاهها الصحيح فوق كاهل إسرائيل وعلى عنقها ، وإن سير الأمور لن يتوقف على سماح أو عدم سماح الطرف المعادى ، والذى تعاكس حركته اتجاه حركة التاريخ . وإن الحياة تستجيب لأصحاب الحق متى علموا وعملوا على إحقاق حقهم والتشبث بما لديهم ولدى حلفائهم للدفاع المشروع عنه .

لم تتوقف الحملة الشرسة العسكرية الإسرائيلية عند حد الأقوال والتصريحات ، ولكن راحت فى حملة محمومة تصب جام غضبها فى اتجاهين :

الأول فوق رأس الجيشين الميدانيين المصريين الثانى والثالث .
والثانى فى اتجاه مواقع العمل لإنشاء وبناء القواعد الخرسانية المسلحة ، والتى يقوم بها العمال والفنيون والمهندسون المدنيون والعسكريون ، لقد حظى الاتجاه الأول بنسبة تقترب من 95% من عمليات القصف المعادى ، بينما حظى الاتجاه الثانى بنسبة 5,3% من عمليات القصف المعادى . وذلك طبقاً لبيانات هذه الفترة .

وحينما أوشك شهر أبريل سنة 1970 على نهايته ، كادت عناصر الخطة أن تكتمل ، لولا ما وعد به الرئيس جمال عبد

الناصر القادة على مختلف المستويات من ضرورة إتمام بناء الدشم الخرسانية المحصنة . فهذا العنصر بالذات لم يصاحبه أى قدر من التقدم أو النجاح فى هذه الفترة ، فالطيران الإسرائيلى نشط فى عمليات الاستطلاع ، ويستكمل ما لديه من معلومات بوسائل الاستطلاع الأمريكى سواء بالأقمار الصناعية أو بالطيران الاستراتيجى ، ويؤكد ما لديه بمعلومات يحصل عليها ممن يتمكن من شرائهم من الجواسيس خونة الشعب والأوطان . ويتابع على ضوء ذلك عمليات القصف المحموم ، ولا أنسى ما حييت أن العمال المصريين توصلوا إلى ضرورة العمل الليلى ، وصاروا يواصلون تشييدهم على الأضواء الخافتة أو تحت جناح الليل الدامس الظلام ، لكى لا يتمكن العدو من متابعة عمليات الاستطلاع والرؤية ، ولتقليل عمليات الإصابة أثناء القصف المعادى .

ولكن الطيران المعادى كان لهم بالمرصاد فلا يدع بناء يكتمل ، فزرع الليل من الجهد الشاق يأتى عليه النهار ، فيصير هشيماً تذروه الرياح نتيجة شدة القصف والدك المعادى.

وبمتابعة أحداث تلك الفترة - وتذكر حوادثها المتتابعة ، والتفكير فيما كان يدور - نجد أن إسرائيل دخلت بقصفها الجوى العنيف مرحلة من التخويف والترويع ، حاولت بها أن تفشل أى تخطيط مستقبلى لاتساع دائرة الأمان التى نسج السوفيت نواتها ، وكأنها كانت تريد أن تجعل اليأس هو الطريق الوحيد أمامنا ، ورغم أن هدفها العام لم ينجح سواء على مستويات القيادة

أو القوات ، إلا أنها تركت بعض الآثار الجانبية التى لا يمكن لأى رؤية علمية أن تتغاضى عنها ، فالروح المعنوية للقوات البرية تسربت إليها عوامل الاهتزاز والضعف ، والإقرار باستحالة بناء القواعد الخرسانية كاد أن يكون شيئاً مستقراً ومقبولاً، ولكن من ناحية أخرى كان لابد من مراجعة النفس وتفويت الفرصة على إسرائيل وإعادة الحسابات .

وباختصار كان لابد من مواجهة تنبت من أرض الواقع ، وتعتمد على تطوير الإمكانيات المتاحة ، لدرء الخطر المعادى ، وتثبيت الأقدام للخطر نحو نجاحات ضرورية مقبلة ، وكان ما كان، وكان تقدماً ثرياً ومحسوباً وعملاً عظيماً لابد من الوقوف عنده ، ووضع بعض ملامحه أمام القارئ ليقف على جهد خارق وتجربة غنية كانت ثمرة للعمل الشاق ، والتفكير الصحيح، والتعاون الوثيق بين المصريين والسوفيت .

تواجد متقدم ومتقطع :

فى النصف الأخير من شهر أبريل سنة 1970 ، أصبح واضحاً أن عملية بناء دشم الصواريخ الخرسانية ليست عملية سهلة أو سريعة ، وصلف إسرائيل يزداد ، وهجمات طيرانها وغاراته تشتد، والروح المعنوية للقوات البرية المصرية تزحف عليها عوامل القلق والضعف من هول ما تتعرض له من قصف معادى بشع فى غياب مظلة جوية فعالة للحماية فوق خطوط جبهة قناة السويس ، حقاً لقد كان الطيران السوفيتى المقاتل يقوم

ببعض الطلعات فوق هذه المنطقة ، ولكن لأن هذه الطلعات لم تكن طلعات مكثفة ، ولم تدخل ضمن مظلة جوية كاملة فوق هذه المنطقة ، خضع لكمينين معاديين من الطيران الإسرائيلى ، لاقت فى أحدهما ثمان طائرات سوفيتية أكثر من أربعين طائرة إسرائيلية ، ودارت معركة غير متكافئة سقطت فيها ست طائرات سوفيتية ، ورغم ضجة ضخمة أحدثتها أجهزة الإعلام الامبريالية والصهيونية المعادية ، وجدت لها بعض الصدى فى أجهزة إعلامنا المحلية .

إلا أن الحقيقة كانت تنطق بالترحم على هؤلاء الشهداء المقاتلين من الطيارين السوفيت الذين جاءوا من أقاصى الأرض، للمساعدة فى الدفاع عن أراضى وطننا العزيز مصر ، وأن مهمتهم لم تكن فوق تلك المنطقة التى تحتاج مطارات قريبة واستعدادات كبيرة تخرج عن مستوى تلبية المهام الأكثر إلحاحاً فى حماية المدنيين ، وتأمين العمق المصرى للمحافظة على كثير من الأهداف السياسية والحيوية والتى وقع عبؤها كاملاً على القوات السوفيتية ، سواء كانت من قوات الطيران أو الدفاع الجوى المسلح بصواريخ سام 3 .

إزاء هذا الوضع ، عقدت المشاورات بين القادة العسكريين المصريين والسوفيت على أعلى المستويات داخل مصر وتمت البحوث ووضعت الحلول والبدائل ، خاصة فى ظل التسليم ببعد آخر للصورة ، ألا وهو ضرورة هزيمة التصريحات المعادية وصلف إسرائيل ، وأسفرت هذه المشاورات عن ضرورة تحريك عدة

كمائن بالصواريخ المضادة للطائرات إلى خطوط متقدمة صوب الجبهة ، لتقول : « نحن هنا » .

ولم يك ذلك أمراً سهلاً ، فصواريخ الدفاع الجوى الموجودة لدى مصر آنذاك ، صواريخ لم تصمم لأغراض سرعة المناورة الأرضية، أى أن عملية فكها وتركيبها وتحريكها عملية شاقة ، ولكى نعلم صعوبة هذه العملية ، لنا أن نتخيل أن تحريك وحدة الصواريخ سام ، واحدة يلزمها من 40 ـ 50 عربة نقل ثقيلة وذلك للطاقم القتالى الضرورى فحسب ، بما يعنى تكوين رتل متحرك طوله يمتد لأكثر من كيلو متر واحد ، وبما يعنى تشغيل مجموعة من الموتورات وأضواء العربات ذات الصوت والضوء التى تساعد على كشف التحركات ، كما أن عملية فك الوحدة من مكانها القديم ، وتركيبها فى مكانها الجديد عملية شاقة معقدة ، تلزم تدريباً متواصلاً وخبرة كبيرة لإنجازها فى معدلات زمنية مناسبة .

وتحتاج مصاحبة مجموعة من الأطقم الفنية لإصلاح الأعطال ، أو ضبط المعدات ، والتأكد من المستوى العالى لأدائها ، والاستمرار إلى جوارها أثناء التشغيل لملاقاة أى مفاجئات أثناء تواجدها فى مكان الكمين .

وللدلالة على ما أقول أسوق واقعتين تفسران إلى حد بعيد صعوبة هذه العمليات ، ففى إحدى الليالى الحالكة الظلام دخلنا موقعاً لكمين ، وكان هذا الموقع مليئاً بالهيئات الأرضية المعيقة التى فرضت علينا مدة زمنية أكثر من طويلة ، بلغت

3 أميال لما نحتاجه من وقت لوضع المعدات فى مواقعها المختارة ، فلم تكن المناورة بالمعدات عملية سهلة إزاء الطبيعة الأرضية للموقع ، وأخيراً تمكنا من دخول الموقع ، وتثبيت المعدات فى أماكنها ، وكان الصبح قد حل ، والصبح يعنى لدينا اختفاء النجم الذى نستعين به فى توجيه المحطة توجيهاً رادارياً متفق عليه ، يسهل عملية تطابق المعلومات الرادارية والاستفادة بها ، وكانت هناك طريق أخرى تتطلب رؤية وحدات المحطة لبعضها البعض ، ولكن نظراً للمعوقات الأرضية أو ما يسمى بالهيئات الطبيعية المانعة لم نكن نستطيع أن نلجأ إلى هذه الطريقة هى الأخرى ، وها قد أطلت الشمس بنورها وجاء النهار بما يحمله من مخاطر الاستطلاع المعادى سواء الإسرائيلى أو الأمريكى واحتمالات القصف واردة ، وأعيتنا الحيلة لولا أن أنقذ الموقف أحد المستشارين السوفيت ، فقد كان يعلم طريقة ثالثة تقوم على وسيلة بدائية بجهاز مساحى شرحها لى كمترجم حيث تمكنا سوياً من تنفيذها .

وقبل أن أفرغ من سرد هذه الواقعة لا أنسى أننا اقتسمنا قطع الجهاز ، وبدأنا نهرول هنا وهناك ، ونظراً لكثرة الإجهاد الذى يصاحبه انعدام النوم لليالى متواصلة وثقل الجهاز وطبيعة الأرض الرملية ، تعثرت خطاى ، ولكن المستشار السوفيتى كان يلح على أن أسرع الخطى.

ونتيجة لإلحاحه المتواصل ومشقة ما ألاقيه انفجرت غاضباً ، وقلت : ألا تنظر ما أعانيه ، ألا تعلم أننى مسهد الجفن منذ عدة

ليالى ؟، وبطريقة حماسية وألفاظ موجعة أعطانى هذا المستشار درساً لن أنساه طوال حياتى ، فقد قال لى : « ما أعلمه أننا على بعد أمتار من العدو ، ويقع كميننا فى متناول مدفعية الميدان المعادية ، ولن أقول الطيران» ، ثم أردف « وأعلم أيضاً ، وأنت الآخر تعلم أننى لم أذق طعم النوم منذ ليالى مثلك تماماً ، وأعلم أننى أكبرك بـ 22 عام ، لاشك أنها تفقدنى بعض اللياقة أمام شاب مثلك» ، ثم قال : « وأعلم آخراً أن هذه أرض وطنك ، وأننى أتيت من بعيد ، وأنك كثير الرطانة بحب الوطن ، وحب الأوطان لا يكون بطول اللسان ، وحسن القصد ونقاء السريرة ، ولكن حب الأوطان يكون بالجهد الشاق ، والعمل المتفانى والتقدير السليم المبنى على فهم بالواقع والظروف ، والمهام المطروحة عليه».

ولا أنسى أننى بعد أن سمعت هذه الكلمات الحقيقية الموجعة ، ذبت خجلاً من نفسى وحولته إلى زيت محترق يشعل كل طاقاتى للحركة والتقدم وسط عبرات دافئة سالت على خدى ، وصوت مكتوم انبعث من داخلى شرط الحب هو الجسارة، ومن يحب الوطن عليه أن يصبر على كل المحن ، ثم يخرج صلباً ومجرباً وواسع الاحتمال والأفق .

أما عن الواقعة الثانية ، التى تثبت مشقة الأقدام على هذه الكمائن ، وخطورة ما تحتاجه من إمكانات وحشد عوامل كثيرة لمصاحبتها ، تتلخص فى الآتى : دخلنا مع وحدة صواريخ مضادة للطائرات من طراز سام 2 « الديفينا» موقعاً لكمين، وقد تمكنا من إجراء عملية تركيب الموقع ، وتسطيحه

وتوجيهه فى زمن قياسى ، وتولى طاقم فنى سوفيتى من الخبراء إجراء الاختبارات الفنية والكهربية اللازمة ، وأشرق الصباح وطاقم المحطة فى كامل استعداداته ، فالجنود والضباط المصريون كلٌ فى مكانه القتالى مركزاً الانتباه متخلصاً من كل أعباء الليالى الماضية حيث العمل المرهق والنوم القليل ، ورغم سويعات قليلة قضاها الطاقم الذى يجلس على هذه الحال فى النوم ، كأمر قتالى واجب التنفيذ ، إلا أن الانتباه واليقظة التى يبديها الجنود والضباط أكبر بكثير من حجم الراحة الجسدية، إن هناك شيئاً آخر يحرك هذه الأجسام المتعبة ، إنه انتظار الطيران المعادى فى نزهته اليومية المشئومة ، والتى تذيق إخوانهم فى الجيشين الميدانين أهوالاً يعجز عن احتمالها كل ذى جهد وصبر عظيمين .

إن الرغبة فى الثأر تجرى مجرى الدماء فى العروق ، وتشحذ همم الرجال، وتستبدل الإرهاق باليقظة المتفتحة أو الانتباه الشديد. وسط هذا الجو المشحون بالتوتر والانتظار ، أمرت بمصاحبة وفد الخبراء للراحة قليلاً ، على بعد حوالى 500 متراً فى بعض الملاجئ الأرضية ، وصمم المستشار المصاحب للوحدة على ذلك ، على أن يظل وحيداً بلا مترجم ، وإذا حدث ما يستحق استدعائى فسيفعل ، وبعد ما يقرب من ثلاث ساعات التقطت رادارات المحطة أهدافاً معادية قادمة وتأهبت للاشتباك معها ، وفجأة حدث عطل مباغت عجز ضابط التخصص المصرى وطاقمه من الجنود والصف عن إصلاحه ، وبدا الموقف غاية فى الخطورة فشاشات الرادار تعلن أنها بضع ثوان وتكون الواقعة ، وعلى الفور صدرت

أوامر للطاقم المقاتل بالانتشار ، وبدأت صفارة الإنذار فى المحطة، تصدر أنينها المتقطع علامة على هذا الأمر ، وخرجت مع طاقم الخبراء السوفيت نسابق الزمن فى اتجاه مركز القيادة ، ولثوانى انخلع قلبى من الهلع ، فالكل يجرى فى اتجاه النجاة بعيداً عن مركز المحطة، ونحن فقط نجرى فى الاتجاه العكس ، ولكن وقع أقدامنا وسرعة خطواتنا فى اتجاه المحطة بدل الأمر لثوانى ، بشعور اعتياد الخطر ، وحالما وطئت أقدامنا أبواب المعدات ، وبدأ عمل الرجال فى اتجاه إصلاح العطل ، تحول اعتياد الخطر إلى رغبة فى الإصلاح والانتصار ، وإلى شجاعة وجسارة لا توصف فى طلب ملاقاة العدو ، وحث الأمور فى هذا الاتجاه ، وبحكمة العلم ودروس المعارك الأساسى، وهو أن القرار الصحيح هو القرار السريع التنفيذ والمبنى على تقدير واقعى ، تم إصلاح العطل وإتباع بعض الإجراءات الأمنية الرادارية لتضليل الطائرات المعادية فى الإمساك بمكان الموقع، ومرة أخرى انبعثت صفارة المحطة قوية حادة تستصرخ الجميع سرعة الحضور .

وما هى إلا لحظات وكان كل جندى وضابط فى موقعه ، والتقطت طائرة معادية تسقط حمولتها الشريرة على أحد المواقع الأرضية وبضربة حاسمة انطلقت ثلاثة صواريخ متتابعة ، وفى ثوان قليلة سقطت الطائرة المعادية وتفجرت ، وعلت البسمة شفاه أفراد الطاقم . ولكن أمر الفك والانسحاب كان أسرع من مجرد الفرحة والابتسام ، وفى برهة تحولت الابتسامات إلى جهد دءوب وعمل شاق لفك المحطة ، وتجهيز الرتل للفرار السريع فى اتجاه دائرة الأمان حول القاهرة .

ورغم هذه الصعوبات ـ وغيرها كثير ـ ووقائعها كثيرة، بكثرة العمليات ذاتها ، فقد جرت هذه الخطة السريعة ، ونفدت مجموعة من الكمائن المتتابعة ، امتدت لما يقرب من ثلاثة أشهر. لقد عهد للمستشارين السوفيت ولحيز ضيق جداً من قادة الدفاع الجوى ، وتحت الإشراف المباشر لقائد الدفاع الجوى شخصياً الفريق محمد على فهمى بالتحضير لهذه الكمائن، والإشراف على تنفيذ وعلى سرية عملياتها . فعلى سبيل التحديد ، كان يتم استدعاء المستشارين السوفيت على مستوى تشكيل كبير إلى مقر القيادة ، وكانوا يذهبون بمرافقة مستشاراً عليهم وقائد كبير مصرى لاختيار المواقع على أن يحفظ كل مستشار لوحدة قتالية مكان موقعه المختار ، ثم يعودون لوحدتهم ، وكان أمر التحرك يأتى للوحدة لينفذ فى حينه ، وغير مصاحب باتجاه التحرك ولا بأية معلومات أخرى . وكثيراً ما كان يحضر قائد القوات بذاته ، ويصدر أمراً آخر بترك جزء من الطاقم فى مكانه والاستمرار فى تبليغ قياداته الأعلى بتمام الموقع. ثم يحرك الطاقم الضرورى بمصاحبة ضابط كبير من المخابرات الحربية لتأمين الحركة ، ويعطى الأمر بأن التحرك يكون كما حدده المستشار السوفيتى .

إن هذه الإجراءات الأمنية كانت جزءاً من عمل أمنى كبير وواسع أجدنى فى حل من ذكره ، فتقديرى لضرورات الأمن تقتضى منى ذلك ، وإن كنت أرجو ممن عاصر هذه التجارب من المسئولين أن يكشفوا سترها ، ففيها كثير من الدروس والعبر ، ستفيد أبناء الوطن بالتأكيد أكثر من أن تفيد العدو ، ولكن

ما يهم فعلاً أنه منذ نهاية شهر أبريل سنة 1970 ، وفى ليلة من لياليه الشديدة الظلام تم دفع أول كمين بالصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام 1 ، سام 2 إلى منطقة قناة السويس لملاقاة الطيران المعادى ، وهو يحرث الأرض يومياً فى منطقة الجيشين المصريين الثانى والثالث .

وتوالت هذه الكمائن لمدة تقرب من الثلاثة أشهر ، وتوالت معها إسقاطات الطائرات المعادية ، فبضربة خاطفة - وفى أول كمين - تم إسقاط هيلوكبتر معادية ، وكانت مجهزة كمعمل جوى لإجراء تداخل وتشويش على المعدات المصرية الرادارية ، وكان طاقمها أكثر من 15 باحث وخبير من الفنيين المعاديين . وإن هذه الكمائن قد ارتفعت بنسبة خسائر طيران العدو شيئاً فشيئاً . بل وارتفعت الخسائر الإسرائيلية عموماً نتيجة لزيادة معدل نشاط العمليات المصرية .

وهكذا تبخر تحدى ديان ، ولاقت مقولته بأنه لن يسمح بتواجد صاروخ مصرى مضاد للطائرات فى جبهة قناة السويس مصيرها المحتوم ، وعلم ديان - قبل غيره - أن إرادته ليست هى الإرادة العليا ، أو أنها ليست هى الإرادة الوحيدة على مسرح العمليات ، وأن مصيرها ينبع من أنها لا تستند على حق ولا على اتجاه التاريخ ، إنها إرادة مستمدة من إرادة المغتصبين المعادين للحق والتاريخ ، وهى حتماً تصغر أمام إرادة أصحاب الحق إذا حسن عملهم ، ووضح فهمهم لاتجاه الصراع وأطرافه على جانبى العدو والصديق .

لقد كان لهذه الكمائن أبلغ الأثر ، لا فى إتجاه تفتيت تأثير التصريحات المعادية ، وكسر صلف العسكرية الإسرائيلية فحسب ، بل على رفع مستوى ارتفاع الروح المعنوية للقوات المسلحة المصرية ، فعندما أحست قوات الجيشين الميدانيين المصريين بإمكانية تواجد مظلة حماية تكفلها مستقبلاً قوات الدفاع الجوى المصرى، وتقيها شر وعنف القصف الإسرائيلى المعادى بسلاح الطيران ، تحسنت حالة القوات ووصلت معنوياتها مستوى من الارتفاع أعاد مستوى الأيام الماضية حيث كانت النيران الأرضية ، ومدفعية الميدان المصرية مسيطرة على الموقف تجاه القوات الإسرائيلية على البر الشرقى من قناة السويس .

كذلك سرت موجة الارتفاع المعنوى خلال قوات الدفاع الجوى نفسها ، فرغم إحساس القلق الذى تركته عملية بناء الدشم الخرسانية ، وعدم تقدمها للأمام ، إلا أن تعدد مواكب الكمائن قد فتح الباب أمام قوات الدفاع الجوى بأن ترى أن للطريق مخارج أخرى ، وأنه رغم أهمية بناء الدشم الخرسانية لتأمين مواقعها ومعداتها ، إلا أن إمكانية التحرك بمراعاة شروط أخرى ، من الممكن أن ينجح تحركها العام نحو بناء خطها الدفاعى القوى على جبهة قناة السويس ، دون ما إصرار على شرط وجود الدشم ذاتها .

ومن حيث ما أضافته هذه الكمائن إلى فنون القتال وتحسين نوعية الأسلحة وبالذات الصواريخ ، فقد كانت هامة وكبيرة، فلقد بينت هذه العمليات أهمية تطوير نوعيات الصواريخ

المضادة للطائرات ، والقادرة على سرعة المناورة الأرضية والمكانية ، لذلك لا غرو أن نجد بعد ذلك بشهور ظهور أنواع أخرى من الصواريخ المحمولة على مركبات مجنزرة ، أما بالنسبة لفنون القتال ، فقد اكتسبت القوات المصرية قدرة عالية ، على عمليات الإخفاء والتمويه ، سواء إخفاء المواقع أو إخفاء النبضات الرادارية لكى لا تلتقطها الطائرات ووسائل الإنذار المعادية .

وكذلك تركت هذه العمليات أثراً بالغاً على تعميق عمليات التعاون المصرية السوفيتية ، سواء على مستوى التنسيق بين القوات ذات المهام القتالية والدفاعية من الجانبين ، أو بين أطقم الخبراء والمستشارين وبين أطقم هذه الكمائن المصرية، والتعاون أيضاً بين الأسلحة الأخرى والدفاع الجوى خاصة الأسلحة الإشارة والمخابرات العسكرية ، والشرطة العسكرية ، والمهندسين، بما كانت تكفله هذه الأسلحة من معونات فنية وأمنية ضروريتين لتأمين سير الكمائن وتأمين حركتها ، وتجهيز مواقعها ميدانياً وإشارياً .

لقد أعطت هذه الكمائن فرصة سانحة لتحفيز القوات المسلحة المصرية عموماً ، وجعلتها فى وضع يمكنها من استئناف عمليات الهجوم . إن إفلات المبادرة من أيدى القوات الإسرائيلية المعتدية قد بات وشيكاً ، وبما يعنى فى المقابل أن القوات المسلحة المصرية بدأت تمسك من جديد ببعض خيوط المبادرة التى فقدت منها لفترة ، لكى تتمكن فى النهاية من القبض بها ، لتطوير عمليات استنزاف إسرائيل .

إن نظرة سريعة على طابع عمليات هذه الأيام يؤكد ما نقوله بشأن بداية استئناف الطابع الهجومى للعمليات المصرية ولننظر جميعاً ، ونرصد الحقائق التالية :

❖ فى يوم 11 أبريل سنة 1970 ، أغارت الطائرات المصرية على الموقع الإسرائيلية على بعد 25 كيلو مترا خلف خطوط العدو الأمامية على شاطئ قناة السويس ، ووصلت إلى رأس سدر وعيون موسى على خليج السويس .

❖ فى يوم 23 أبريل 1970 ، أغارت الطائرات المصرية على مستعمرة " ناحال يام " فى شمال سيناء على بعد مائة كيلو متر شرقى قناة السويس .

❖ فى يوم 25 أبريل سنة 1970 ، هاجمت قاذفات " الإليوشن 28 " المصرية ، المواقع الإسرائيلية قرب العريش على ساحل البحر المتوسط .

❖ فى 26 أبريل سنة 1970 ، احتلت قوة مصرية مكونة من 200 جندى ، موقعاً إسرائيلياً فى القطاع الجنوبى من قناة السويس على الضفة الشرقية ودمرته .

❖ فى 28 أبريل سنة 1970 ، أغارت مقاتلات مصر القاذفة من طراز " سوخوى " على المواقع الإسرائيلية ، بينما كانت المدفعية المصرية تدك المواقع المعادية بمعدل 10 قذائف / دقيقة حسب تقديرات القوات المعادية الإسرائيلية نفسها .

❖ فى أول مايو سنة 1970 ، أعلنت إسرائيل أنها تصدت

لمحاولة عبور قامت بها وحدة مصرية مكونة من 80 جندى، وأنها كانت المحاولة الثالثة خلال 4 أيام ، وأكدت القوات المسلحة المصرية أن هذه كانت من أنجح عمليات العبور .

❖ فى 3 مايو سنة 1970 ، تحركت وحدة بحرية مصرية خاصة ، وقامت بقصف مركز على قيادة إسرائيل فى خليج السويس على بعد 220 كيلو متر جنوبى مدينة السويس [9].

وهكذا تحركت الأمور فى اتجاه مزيد من عمليات استنزاف إسرائيل ، وتعددت عمليات الكمائن وتوالى سقوط الطائرات المعادية ، وخفت آثار القصف الجوى ، حيث عادت الروح المعنوية للقوات المصرية لترتفع ، وأصبحت هناك إمكانية حقيقية لتحلل الرئيس جمال عبد الناصر من وعده بضرورة بناء الدشم الخرسانية قبل تقدم القوات لاحتلال مواقعها على خط حائط الصواريخ المضادة للطائرات ، فالتجربة أثبتت أن بناء الدشم الخرسانية - وإن كان شرطاً هاماً - إلا أن التمسك الصلب به لم يعد يساوى توقف الزحف لبناء حائط الصواريخ ، حتى الانتهاء من هذه الدشم .

ومن ثم كان لابد مما ليس منه بد ، ضرورة التقدم لإنجاز بناء حائط الصواريخ على الخط الشرقى ، خط الصدام مع العدو الإسرائيلى ، خط المواجهة المحتدمة ، خط أمن وحماية القوات

(9) اللواء حسن البدرى - المرجع السابق .

البرية للجيشين الميدانيين ، خط التجهيز والتحضير لتأمين عملية العبور الشامل القادمة حتماً نحو سيناء الحبيبة . إن احتلال قوات الدفاع الجوى المصرية لهذا الخط ، وتمكنها من بناء حائط الصواريخ هو أحد الأهداف والغايات الرئيسية لحرب الاستنزاف ، حيث يرجى لمبادرة الفعل المصرى أن تتأكد نهائياً لتكون القوات قادرة على بدأ معركة التحرير ، تحرير سيناء من العدو الإسرائيلى الغاصب .

إنه الخط الرئيسى والحائط المتين ، الذى يرجى عليه تكسر موجات الطيران المعادى ، نقطة القوة فى البنيان العدوانى العسكرى الإسرائيلى . إن الحائط المنشود هو الحائط العظيم، الذى إن تم سوف تكون له آثار دفاعية أقوى من آثار أسوار القلاع القديمة ، حيث المدن الصامدة أمام الغزو الأجنبى المعادى .

أسبوع تساقط الفانتوم :

مع نهاية شهر يونيو سنة 1970 ، وبداية شهر يوليو سنة 1970 ذهب الرئيس جمال عبد الناصر فى زيارة إلى الاتحاد السوفيتى، يرافقه وفد كبير يضم مجموعة من الوزراء ، من بينهم الفريق أول محمد فوزى ، وكانت هذه الزيارة تبتغى أهدافاً كثيرة ، من بينها التشاور حول مبادرة وليم روجرز وزير خارجية أمريكا، والتى قدمها فى 24 يونيو سنة 1970 . وفى نفس توقيت سفر الرئيس والوفد المصاحب له إلى موسكو ـ وعلى وجه التحديد بدءاً من ليلة 29 يونيو سنة 1970 ـ بدأ الزحف العظيم بوحدات الصواريخ المضادة للطائرات من طرازى سام 1 ، سام 2 (الديفينا

والديسنا) صوب قناة السويس ، وكانت ملحمة ، وكانت خبرة ثرية ، وكانت درساً فى التضحية والفداء والجهد العلمى الرصين، وكانت معركة لوحدة الكفاح بين المصريين والسوفيت فى مواجهة ومقاومة الامبريالية الأمريكية وإسرائيل الصهيونية ، وكانت مؤشراً لانتصار إرادة الحق فى مواجهة تحديات الباطل، إذا تسلحت بالجهد الدؤوب والإصرار حتى مع الاختلال النسبى فى موازين القوى لصالح العدو فى البداية .

لقد بدأت تحضيرات هذا الزحف من خلال عمليات الزحف المتقطع بالكمائن ، فعلى ضوء تجربة كمائن الصواريخ المضادة للطائرات ـ وكما أشرت سابقاً ـ اتضح أن التقدم فى عملية بناء حائط الصواريخ من المتوقع لها أن تتم دون شرط قيام الدشم الخرسانية بل على العكس ، فإن بناء هذا الحائط سيساعد على تأمين عملية بناء الدشم الخرسانية ذاتها ، وكانت خبرة العمل فى الكمائن تبرز دروساً محددة فى مجالات الأمن والإخفاء والتمويه والإعداد الميدانى السريع للمواقع .

وعليه فمنذ بداية شهر يونيو سنة 1970 ، بدأت قوات سلاح المهندسين العسكريين تدخل فى عملية واسعة لتجهيز مجموعات كبيرة من المواقع للصواريخ المضادة للطائرات .

وبعد أن تحددت المواقع على الخرائط ، وتحددت معها المواقع التبادلية أى الاحتياطية على أسس تكتيكية وقتالية صرفة ، بواسطة القادة المصريين والسوفيت ، أعطيت هذه الخرائط لقوات المهندسين لتنفيذها تحت الإشراف الفنى لقادة ومستشارى الدفاع

الجوى . وقد قامت هذه الخطة على إجراء أعمال الحفر لتجهيز مجموعات من الملاجئ والحفر الأرضية لوحدات الأطقم القتالية لقوات الصواريخ المضادة للطائرات ، وقد بذلت قوات المهندسين العسكريين ورجالها - خاصة من المجندين من أبناء الفلاحين - مجهودات خارقة لإنجاز أعمال الحفر هذه ، تساعدهم مجهودات العمال الفنيين من سائقى الجرارات والبلدوزرات والجريدورات .

إن آلاف الأطنان من الرمال التى حملتها أكتاف الشباب المجند تعجز بعدد حبات رملها عن تسجيل آيات الشكر والتمجيد لجهدهم الخارق ، وسط قيظ الصيف اللافح على رمال الصحراء الشرقية ، ووسط ظروف عمل شاقة كادت تمتد ساعاتها للطاقم الواحد إلى أكثر من 12 ساعة عمل يومى . ووسط أحوال معيشية جد صعبة ، حيث قوتهم هزيل ومياههم قليلة .

إننى لن أنسى مشاهداتى لهؤلاء الشباب ، المفترض فيهم التوثب والنضارة ، وقد خارت قواهم تحت أحمالهم الثقيلة من شكاير الرمل واصفرت وجوههم وشحبت ، ولكن مع أى كلمة تشجيع وتحميس تراهم وقد تحولوا إلى كائنات جبارة تستطيع نقل الجبال ، وليس مجرد مواقع منها هنا أو هناك . إننى على بعد الزمن لا أملك غير أن أحيى هذه المجهودات الخارقة ، وأسجل تصويراً عاماً لها ، قد يساعد على تذكير الجميع أن لمصر رجالها، تجدهم شجعان وأصلاباً حين تتضح قضاياهم ، وتجدهم ثابتون وصابرون على العناء رغم ما يلقونه من عدم اهتمام حتى فى الغذاء . إنهم شعب مصر ، الجنود المجهولون دائماً ، لهم أنحنى.

لقد كانت فكرة هذه المواقع الميدانية التى تقوم على الحفر

والملاجئ تهدف إلى وضع معدات وحدات الصواريخ فيها لتقليل الإصابات إلى حدها الأدنى ، خاصة فى حالة عدم تصويب ، أو ما يسمى الضرب غير المباشر من الطيران المعادى .

وكان التجهيز يقوم على فكرة تعدد المواقع لتسهيل عملية المناورة وإرباك العدو بمجموعات كبيرة من المواقع التبادلية والهيكلية لتشتيت نيرانه ، وتقليل إصاباته المباشرة إلى أقصى حد ممكن ، وتشتيت جهوده الاستطلاعية ، وكانت هذه العملية فى مجملها ركناً ركيناً فى خطة بناء خط الدفاع الجوى كله ، وذلك تعويضاً للدشم الخرسانية ، وتقديمها كبديل سريع لها .

وفى ليلة 29 يونيو سنة 1970 ـ وكما سبقت الإشارة ـ بدأ الزحف، حيث تم تقسيم أطقم الصواريخ المضادة للطائرات المصرية من طراز ديفينا وديسنا إلى ثلاث مجموعات أو أقسام، القسم الثالث أو الأخير منها يتكون من مجموعة قليلة من الأطقم تقوم بأعمال المناورة المكانية ، أى تغير مواقعها كل يوم بعد أن تشتبك ، وهذه المجموعة تمثل ما يسمى بالاحتياطى الاستراتيجى للقيادة ، حيث تعتمد خطة تحريكها وتلقى أوامرها المباشرة من مواقعها عرضاً وطولاً على امتداد خط المواجهة، والتقدم والتقهقر إلى مقدمة هذا الخط أو إلى عمقه ، وذلك بهدف إرباك طيران العدو ووسائل استطلاعه ، وتضليله باتجاه وطريقة تقدم القوات .

أما عن المجموعتين أو القسمين الأول والثانى ، فقد تم وضع

وحدات المجموعة الأولى على حافة منطقة الأمان التى تكفلها القوات السوفيتية حول القاهرة ، وذلك فى خط مواز لقناة السويس ولخط المواجهة مع العدو فى اتجاه فى الشرق . وبعد تثبيت هذا الخط فى اليوم الأول ، كان على المجموعة الثانية أن تتقدم حوالى 20 كيلو متر فى اتجاه الشرق وصوب خط الجبهة تحت حماية مواقع المجموعة الأولى ، وعلى نفس فكرة المثلثات المتداخلة .

وفى نهاية اليوم الثانى ، تفك المجموعة الأولى معدات محطاتها ، و تتقدم المجموعة الثانية بعشرين كيلو متر آخرين فى اتجاه الشرق وصوب خط المواجهة فى محاذاة قناة السويس .

وفى نهاية اليوم الثالث تفك المجموعة الثانية وحدتها وتتقدم المجموعة الأولى بعشرين كيلو متر آخرين ..

وهكذا يتم دفع الخطين دفعاً تبادلياً بحيث يشهد النهار كل وحدات الصواريخ المصرية ضمن حائط للصواريخ يتكون من صفين ، ويحقق فكرة المثلثات التى تتداخل أقواس نيرانها ، وتتشابك مناطق تدميرها « منطقة التدمير هى المنطقة المحيطة بالمحطة والتى يمكن تدمير أى هدف معادى فى نطاقها»، ويشهد الليل ثبات أحد الصفين وانسحاب الصف المتأخر إلى صف يتقدم مواقع الصف الثابت حتى الوصول إلى حافة خط المواجهة مع العدو الإسرائيلى على قناة السويس .

كانت هذه فكرة التحرك نحو بناء حائط الصواريخ المصرية

المضادة للطائرات على خط المواجهة بطول قناة السويس وشمال البحر الأحمر. وقد استغرقت هذه التحركات حوالى خمسة أيام، تمكنت فيها قوات الدفاع الجوى المصرية بأطقم تشغيلها من الوصول إلى أقرب خط قناة السويس خارج مناطق التدمير لمدفعية الميدان والمدفعية الأرضية الميدانية الإسرائيلية ، وبالطبع فإن هذا الخط كان يمثل اتجاه غالبية المواقع ، مع العلم أن هناك مواقع كانت تتقدمه وتقوم على فكرة الكمائن ، وهى من عمل مجموعة الاحتياطى الاستراتيجى ، والتى تضم وحدات القسم الثالث من القوات التابعة لوحدات الصواريخ المضادة للطائرات المصرية .

لقد شهد مسرح العمليات فى هذه الأيام الخمسة أخطر وأهم عمليات قوات الدفاع الجوى المصرية ، ويدخل هذا الأسبوع من الاشتباكات بين وسائل الدفاع الجوى المصرية والطيران الإسرائيلى تاريخ الحروب بصفة عامة باعتباره فاتحة عهد جديد للصراع العلمى المتقدم ضمن نطاق ما يمكن أن يسمى (الحرب الالكترونية) .

لقد كانت هذه الأيام القليلة والمجيدة ، والأيام التى تليها فترة حافلة بكل ما هو جديد وخطير ، ليس فى مجال الصراع العسكرى بين إسرائيل والعرب فحسب ، ولكن فى مجال أوسع ، إنها تجسد أخطر مراحل الصراع العسكرى بين السلاح السوفيتى وتكنولوجيته وأسلوب استخدامه ، وبين السلاح

الأمريكى وتكنولوجيته وأسلوب استخدامه ، ففى هذه الفترة ـ ولأول مرة فى تاريخ الصراع العسكرى العربى الإسرائيلى ـ تم استخدام الطيران الإسرائيلى للطائرات الأمريكية المتطورة من طراز فانتوم وسكاى هوك بكثافة ، بل منذ تلك الفترة دخل الطيران الإسرئيلى عصر الطائرات الأمريكية الصنع بعد أن كانت الطائرات الفرنسية الصنع هى تسلحيه الأساسى .

ولم يقتصر الأمر على استخدام إسرائيل للطائرات الأمريكية الصنع لأول مرة ، وبالذات طائرة الفانتوم ، بل تعدى الأمر ذلك، فلأول مرة تحصل إسرائيل على أجهزة استطلاع رادارى من أمريكا ، زودت بها طائرات الفانتوم ، واستخدمتها فى هذه الفترة من العمليات لأول مرة فى تاريخ الحروب ، وكانت هذه الأجهزة تستطيع أن تحدد للطائرة المركبة فيها إن كانت متابعة بواسطة محطة صواريخ موجهة أم لا ، وتعطيها إشارة بموقع هذه المحطة ، بل وتحدد لحظة انطلاق الصواريخ إزاءها .

بل حفلت هذه الفترة أيضاً بدخول أسلحة أمريكية أخرى ميدان المعركة ، حيث حصلت القوات الإسرائيلية على مجموعة من القنابل والصواريخ جو / أرض الموجهة توجيهاً سلبياً على أشعة الرادارات الأرضية ، أو الصور التلفزيونية لمواقع محطات الصواريخ، مثل صواريخ شرايك التى تنطلق من الطائرة لتتبع الشعاع الرادارى للمحطة الأرضية سواء كانت محطة استكشاف رادارى ، أو محطة صواريخ مضادة للطائرات وموجهة بالرادار ، ومثل قنبلة أو ـ لا ـ ى ، ومثل قنبلة سمارت التى توجهان

تليفزيونياً ، أى بواسطة كاميرات تلفزيونية على محطة الصواريخ لتدميرها .

كما سجلت هذه الفترة تصارعاً لا هوادة فيه بين أعقد تكتيكات حرب الصواريخ والطيران . إنها حقاً أغنى فترات الخبرة حتى لحظتها لمثل هذا النوع من الحروب بصفة عامة ، ولقوات الأطراف المتحاربة بصفة خاصة .

وإذا كانت هذه هى الملامح العامة لتلك الفترة الحافلة بالأحداث، إلا أن تفاصيلها تجسد الصورة العامة لأخطر وأهم تجارب البناء فى حياة الشعب المصرى وقواته المسلحة .

إن هذه التفاصيل يجب الوقوف عليها ، ففيها من الغنى والثراء ، ما يشعل النفوس بالحمية ويملأ القلوب بالأمل ، ويثبت العقول بدروسها الهامة ، التى تظهر أن بذرة صغيرة فى تربة خصبة وبرعاية دؤوبة تنتج شجرة عالية ممتدة تظل الأرض ، وتكثر الجنى ، وتعيش العمر .

إن تجربة هذه الفترة الهامة شهادة تقدير لعامل الإرادة والإصرار، شهادة تقدير لحلف معاداة الامبريالية والصهيونية ، وها هى لمحات منها تبرز معانيها وعبرها .

الحائط العظيم يتشكل

كما سبق القول ، بدأ الزحف بالصواريخ منذ ليلة 29 يونيو سنة 1970 ، وأشرقت شمس اليوم الأخير من يونيو سنة 1970، ليفاجئ الطيران المعادى ووسائل استطلاعه بخط ممتد من صواريخ الدفاع الجوى المصرية ، وقد خرجت من نطاق دائرة الأمن حول القاهرة واقتربت أكثر من خط جبهة السويس وأصاب السعار إسرائيل ، وبهجمات متتالية وقوية ، اصطدم الطيران المعادى بحائط من صواريخ الدفاع الجوى المصرية ، وكان يوماً طويلاً وعنيفاً لمعارك ضارية دارت بين طيران إسرائيل فى الجو ، وبين وحدات من الصواريخ المضادة للطائرات مرابطة فى البر ، فقد فيها الطيران المعادى نسبة من الأهداف لم تشهدها يوميات الصراع قبل هذا اليوم . فقد خسرت إسرائيل أربع طائرات أمريكية الصنع من طرازى فانتوم وسكاى هوك ، وتم أسر ثلاثة طيارين إسرائيليين .

وفى صبيحة اليوم التالى يوم الفاتح من يوليو سنة 1970 ، جرب الطيران الإسرائيلى من جديد أن ينطح الحائط برأسه ، ذلك الحائط الذى زحف إلى الأمام أكثر من مواقعه بالأمس بمقدار من 20 إلى 30 كيلو متر . كانت خسارته عالية ، ومعدل تساقط

طائراته مرتفعاً ، لقد فقد الطيران الإسرائيلى فى هذا اليوم ثلاث طائرات أخرى . وتوالت أيام الأسبوع الأول من بدء الزحف الكبير، ليسجل اليوم السابع يوم 6 يوليو سنة 1970 خسارة جديدة لإسرائيل ، حيث فقد طيرانها طائرتين مقاتلتين قاذفتين، وطائرة استطلاع الكترونى عليها طاقم يتكون من 12 عالم وخبير من قوات العدو . وانتهى الأسبوع الأول ليرتفع سقوط الطائرات الإسرائيلية من طراز الفانتوم الأمريكى الصنع وحدها - والذى يستخدم لأول مرة - إلى سبع طائرات .

وكم كانت ظروف القتال شاقة ومضنية ، ولن أنسى يوم الأول من يوليو سنة 1970 ، اليوم الذى وهبت فيه الحياة من جديد أنا ومن أشاركهم العمل ، فلقد تحركت وحدتنا ضمن مجموعة المناورة - أى مجموعة الاحتياط الاستراتيجى للقيادة - إلى أكثر المواقع قرباً من القناة .

وبكل الجهد وسرعة الإنجاز ، قام طاقمنا بفك المعدات مع خيوط الظلام الأولى لمساء 30 يونيو ، وانتظمنا فى رتل طويل يمشى الهوينا ، فالإضاءة ممنوعة ، والسرعة تبعاً لذلك يجب أن تكون متدنية ، خاصة أن أصوات مواتير العربات يجب ألا تعلو هى الأخرى فى ليلة كثرت تحركاتها ، وبدت فيها حركة المرور لأرتال الدفاع الجوى على الطرق المؤدية لجبهة قناة السويس، وكأنها مناظر مألوفة لسيارات عام 1982 فى وسط مدينة القاهرة، ودخلنا الموقع وقمنا بأعمال المناورة التى تصاحب دخول وحدات المحطة إلى أماكنها ، بسرعة وجسارة ومهارة

مدتنا بها خبرة تحركات الكمائن المتعددة التى اشتركت فيها هذه الوحدة ، تم تركيب المعدات وتوجيهها وتسطيحها فى وضع مستو ، ومع الخيوط الأولى لإشراقة هذا اليوم الأول من يوليو سنة 1970 ، بدأ تشغيل المحطة فى أثناء العمل الليلى ، كانت قد صدرت أوامر القائد تحت إلحاح ورجاء المستشار السوفيتى ، بإعفاء وردية متكاملة من الطاقم القتالى من أعمال التجهيزات ، وإصدار الأوامر لها بالنوم كى تستيقظ مبكراً ، وتكون على أهبة الاستعداد القتالى لملاقاة طيران العدو ، وفعلاً حدث ذلك .

ولانشغالى بمصاحبة المستشار السوفيتى طوال اليوم للإشراف على عملية التركيب والتوجيه والتسطيح للمعدات ، ثم بالمرور على كل وحدات التخصصات الرادارية والكهربية المختلفة للإشراف على ضبطها ، وجعلها فى أحسن الأوضاع للاشتباك ، لم أذق طعم النوم - أنا والمستشار السوفيتى - وانبلج نور الصباح، ومعه بدأ تشغيل وحدات المحطة ، وجلسنا ندقق النظر فى المبينات بحثاً عن طيران العدو لضربه وإسقاطه وسط ظلام دامس حيث الأبواب مغلقة ، وطاقم القيادة والتوجيه يتواجد فى وحدة مكانية فراغها لا يتعدى ثلاثة أو أربعة أمتار من سطح الوحدة ، الوحدة مليئة بالأجهزة الالكترونية ذات المبينات (الشاشات المنيرة) وذات الصمامات الكثيرة ، مما يرفع درجة الحرارة ، بالإضافة إلى إغلاق الوحدة وتواجدها وسط قيظ يوليو على رمال الصحراء .

لقد كان ترمومتر الوحدة الداخلى يشير إلى درجة 52 ° مئوية فالأجساد تتصب عرقاً ، ولا يفيد معها أن نخلع ما نلبسه قطعة

أثر قطعة ، والمراوح الداخلية للوحدة لا تأتى إلا بهواء ساخن ، يعمل عمله فى زيادة معدلات حرارة الجو المشبع بالرطوبة نتيجة تنفسنا فى هذا الحيز الضيق المغلق .

وفى منتصف اليوم ، وفى توقيت يتراوح بين الحادية عشر والثانية عشر صباحاً التقطنا إحدى موجات الهجوم للطيران المعادى ، وتأهبنا للاشتباك معها ، ولكنها انحرفت عن دائرة نيراننا ، وكانت قد تفرقت وتغيرت ارتفاعاتها لمهاجمة وحدات صواريخ أخرى فى غير قطاعنا ، وعلى شاشات ومبينات الرادار شاهدنا الصواريخ المصرية المضادة للطائرات وهى تفجر طائرتين معاديتين ، وطال انتظارنا حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، حيث وصلت ساعات تشغيل المحطة لما يقرب من إحدى عشر ساعة متواصلة ، إلى الحد الذى يفوق أى معدل للتشغيل قالت به الكتب والدراسات ، خاصةً فى هذه الحرارة والرطوبة القاتلة .

لذلك طلب قائد الوحدة من قائد التشكيلات إعطائنا ساعة لراحة المعدات والأفراد ، ونال القائد المحلى طلبه ، ومرت حوالى 15 دقيقة كنا قد وصلنا فيها ، القائد والمستشار وأنا إلى الملجأ (مخبأ تحت الأرض صغير) .

ودوت صفارة المحطة تنذر باقتراب الطائرات المعادية ، وفى أقل من دقيقتين كنا فى مواقعنا ، وكانت البلاغات المتعددة للرؤية الرادارية وللرؤية بالنظر تؤكد اقتراب ثمانى طائرات معادية منا ، وعلى التو انقسمت هذه الثمانية ، وصارت أربعة

طائرات تعلونا ، فيما يسمى بالتعبير العسكرى «ركبت المحطة» والأربعة الأخرى ركبت محطة مجاورة .

ورغم أن إعادة تشغيل المحطة قد تم منذ انطلاق الصفارة بأمر القائد المناوب ، إلا أن المحطة كان يصعب عليها الاشتباك بل يستحيل ، فهى تحتاج بضع دقائق لتكون فى وضع الإرسال ، أى وضع القدرة على إطلاق الصواريخ ، حيث أن الصمامات لا تصل إلى مستوى إشعاعها إلا بعد هذه الدقائق ، ومن جانب ثانٍ فلا يمكن الاشتباك مع الأهداف بزاوية قائمة ، فالأهدافَ التى تعلونا زاويتها قائمة ، وفى لحظات قليلة جرت أحداث أيام وأيام ، ومر على عقل كل منا أيام عمره الذى مضى .

وخبت أيامه القادمة ، فاللحظة هى لحظة الفصل . وكانت الطائرات تعلونا بارتفاع يصل إلى 22 كيلو متر ، وهى لا يمكن أن تسقط حمولتها من هذا العلو . وكان الطيران المعادى يفضل ما يسمى بطريقة (القصف الغاطس) ، أى تنقض الطائرة من علو شاهق بزاوية حادة على الهدف ، ثم تفرغ حمولتها من ارتفاع 800 إلى 600 متراً ، وتأخذ منحنى وتهرب سريعاً ، لذلك كانت الطائرات تتأهب للانقضاض علينا ، وبدون أن ندرى وجدنا أنفسنا تحت حماية وحدة كبيرة من المدفعية المضادة للطائرات، وباستماتة واضحة وجهد خارق أقام هذا التشكيل غلالة من النيران تعلونا بارتفاع 6 كيلو متر ، أى أن هذه المدافع قد فرشت ملاءة من النيران على علو ستة كيلو مترات فوق موقعنا ، وذلك لمنع طائرات العدو المغيرة من الانقضاض على موقعنا .

وهكذا دارت رحى معركة شرسة ، كلما حاولت فيها الطائرات المعادية الانقضاض ، نظرت لملاءة النيران تحتها وعلت مذعورة ، ومرت بضع عشرات من الثوانى ، بدت كأنها الدهر كله أصاب فيها اليأس طائرات العدو ، فصبت نيران حمولتها من ارتفاعها الشاهق ، لذلك نزلت طاقة التدمير الهائلة هذه منحرفة عنا بأكثر من 600 متراً ، وتوالت انفجاراتها ، واهتزت الأرض معها، ومعها تنفسنا الصعداء .

بدأ جهدناً كبيراً لاستعادة السيطرة على القوى والأعصاب إلى الحد الذى نجحت فيه الطائرات المعادية من الفرار ، دون أن تشيعها صواريخنا حتى وهى مبتعدة ، على الرغم من أن هذا الطاقم يمتلك سجلاً ناصعاً سطرت فيه عمليات الكمائن ، إسقاطه لأربعة طائرات معادية ، وتسلم أفراده مكافآت تشجيعية نظير ذلك ، بلغت ألفين من الجنيهات تبعاً لنظام التشجيع الذى عمل به فى تلك الفترة .

لقد سردت هذه الواقعة لأبين للقارئ نموذجاً مفصلاً ليوم من القتال ، بكل ما يزخر به من جهد وعرق ، ونجاح وفشل ، وضعف وقوة . وما هذا اليوم ، إلا يوماً متشابهاً مع غيره من أيام تلك الفترة التى جافى فيها النوم أعين الكثيرين ، فعلى سبيل المثال ، لم أذق طعماً للنوم على مدى ستة أيام متواصلة إلا قليلا، ولم ألق بجسدى على فراشى أو حتى أخلع حذائى ، وكل ما اختلسته من نوم كان أثناء ساعات التنقلات داخل العربات وبين الأوقات المتوترة فى انتظار طائرات العدو ، وكان هذا حال

غيرى ، فالكثير منا لم يتمكن أيضاً من الاستحمام لمدة وصلت إلى الأسبوعين ، رغم حرارة يوليو الكبيرة وسط قيظ الصحراء ، وفى أجواء وحدات الصواريخ الخانقة .

راب الصدع :

تناولت فى السطور السابقة الوجه المشرق لما سمى فيما بعد بأسبوع تساقط الفانتوم ، ولكن كان هناك وجه آخر ، لقد شهد هذا الأسبوع تصاعد خسائر العدو لطائراته المغيرة ، ولكنه لم يمر دون أن يرفع من خسائر قواتنا ، فلقد حدثت خسائر مرتفعة فى وحدات الصواريخ المضادة للطائرات ، شملت المعدات والأسلحة ، وشملت ـ وهذا وهو الأهم ـ فقدان مجموعة من الأفراد والأطقم المدربة تدريباً عالياً . فمع اشتداد المعارك ، والسعار الذى لحق بطيران العدو ، وبحكم استخدامه ـ ولأول مرة ـ لطائرات الفانتوم المزودة بأجهزة للاستطلاع الالكترونى ، تحدد مواقع الصواريخ ، وموعد واتجاه انطلاق الصاروخ أرض / جو تجاهها ، دفعت قوات الدفاع الجوى المصرى ثمناً غالياً لإصرارها على بناء حائط الصواريخ . لقد بدا عملياً أن الشرط الذى تم التغاضى عنه ـ وهو شرط بناء الدشم الخرسانية ـ كان ثمنه مرتفعاً .

فمع نهاية هذا الأسبوع ، فقدت القوات التى تحركت بأطقم ووحدات الصواريخ المضادة للطائرات من طرازى ديفينا وديسنا ما يقرب من ربع القوى البشرية المدربة فنياً وقتالياً تدريباً عالياً ، لقد كان أخطر ما فى وحدات الصواريخ أن الموت لا يصيب رجالها فرادى ، ففى حالة تشغيل المحطة يعتبر الطاقم كله ـ

وبالذات طاقم القيادة والتوجيه والتخصصات الفنية الكهربية - وكأنه رجل واحد وأن من ينجو ، يكون من الورديات البديلة ، وأطقم إعادة التعمير ، والأطقم المناوبة للخدمة الرادارية وخدمة المعلومات ، والأطقم الإدارية .

لقد كانت هذه التضحيات البشرية الواسعة تمثل خطراً كبيراً وهاماً ، لا لكون فقد الرجال فى ذاتهم يبعث على الحسرة، ولكن لأنه لا يمكن تدريب أمثال هؤلاء الرجال بسرعة، خاصة أن من استشهدوا هم من خاضوا تجارب القتال ومعاركه. إن هذه الخسائر البشرية الكبيرة ، قابلتها خسائر فى المعدات أكبر وأوسع ، لقد أصيبت نسبة تصل إلى نصف عدد المحطات التى تحركت فى يوم بدء الزحف العظيم .

ولقد كان أمر المعدات أسهل بكثير ، فالشهور التى مضت ، شهدت ، وكما سبق أن أوضحت ، ورود سيل لا ينقطع من وحدات ومحطات الصواريخ من طرازى الديفينا والديسنا ، والاستعواض يمكن أن يتم تبعاً لهذا فى ساعات قليلة ، وبالفعل كان الطاقم الذى تدمر معداته ، أو تدمر بعض أجزائها ، وتكون نسبة الإصابة فى أفراده ضعيفة ، وذلك فى حالة عدم التشغيل أو فى حالة الورديات المخففة ، كان يستعوض ما يلزمه بسرعة .

بل كان الأمر يجرى على نحو تجميع الأفراد الناجين من أكثر من طاقم لتكوين طاقم واحد متكامل يستعوض المعدات ، ويشكل وحدة تأخذ مكانها وسط باقى وحدات حائط الصواريخ .

إن هذه الخسائر المرتفعة ، وبالذات فى الأفراد والأطقم الفنية، والتى تعبر عنها بعض الإحصاءات المتاحة ، والتى تشير إلى ما يلى « بلغت جملة خسائر مصر خلال شهر يونيو سنة 1970 (678 شهيداً وجريحاً) من كل القوات المسلحة المصرية ، وتحملت قوات الدفاع الجوى منها نسبة 43,47% من عدد كل شهداء القوات المسلحة [10] ومصابيها» ، أدخلت أوضاع قواع الدفاع الجوى على جبهة قناة السويس فى نقطة حرجة ، وبدا واضحاً أن الصراع بين الطيران الإسرائيلى ،ووسائل الدفاع الجوى المصرى الذى يتجه إلى التصاعد والاحتدام ، تشكل مرحلته الراهنة ما يسمى مرحلة (عنق الزجاجة) لقوات الصواريخ المصرية .

وجاء يوم 7 يوليو سنة 1970 ليظهر الصورة الآتية ، وصل الإنهاك إلى حده الأقصى بالنسبة لأطقم التشغيل المصرية ، وارتفعت نسبة الإصابات والتدمير إلى حد فتح ثغرات ، يتسع عرضها وتهدد بتقويض فكرة الخط الدفاعى ، أو حائط الصواريخ من أساسه، وعملية الاستعواض تتعثر ـ وعلى وجه التحديد ـ فى مجال الاستعواض البشرى فى مستواه المدرب فنياً وقتالياً . والطيران الإسرائيلى يرتفع بمستوى أداؤه ، ويدقق من إصابته مع تحسن استخدامه لوسائل الاستطلاع الرادارى الجديدة ، والموجودة على الطائرات الأمريكية الصنع ، خاصة طائرات الفانتوم . وانتشار نوازع وعوامل القلق بدأت تغزو الروح المعنوية لقوات الصواريخ المضادة للطائرات .

(10) اللواء الركن حسن البدرى – المرجع السابق .

ولن أنسى ما حييت ما حدث بعد حلول مساء يوم 7 يوليو سنة 1970 . فلقد مر قائد قوات الدفاع الجوى على جبهة القناة ليتفقد القوات وأحوال أطقم التشغيل ، ولكى يعمل على رفع الروح المعنوية للقوات ، وفى إحدى المواقع - ووسط طاقم متكامل قتالياً وفنياً وإدارياً - ألقى هذا القائد كلمة قصيرة ومؤثرة حول ضرورة الصمود ، وأشاد بالمجهودات التى تبذل ، وأثر ما يحدث على مستقبل الصراع عموماً ، وعلى مستقبل المعركة الحتمية بين مصر وإسرائيل .

بعد هذه الكلمة انفجر ضابط برتبة نقيب ، آنذاك ، وينحدر من عائلة إقطاعية من محافظة الدقهلية ، حيث صادر قانون الإصلاح الزراعى بعض من ممتلكاتها ، انفجر يقول : « إن الصراع الدائر الآن بين سلاحى الطيران الإسرائيلى ووسائل الدفاع الجوى المصرى لا يراعى على جانبه المصرى المعدلات الصحيحة للمواجهة ، فلا يمكن لعدد من أطقم الصواريخ القليلة هذه أن تقابل طيران إسرائيل كله ، ومن وراءه الإمدادات الأمريكية الكثيفة بالسلاح والتكنولوجيا الحديثة ، بل وبالأفراد خاصة الطيارين . إن الإصرار على القتال ، رغم قلة الإمكانات وقلة عدد الأطقم المقابلة لقوات صواريخ الدفاع الجوى ليس إلا عملية انتحار ، وتصدير بعض من القوات التى لا حول لها ولا طول، لملاقاة قوة طيران لا يقدر عليها ، إلا أضعاف مضاعفة من مثل هذه الأطقم التى يجب أن يعاونها سلاح طيران مصرى قوى وقادر على لعب دور كبير ضد طيران إسرائيل» .

وتزيد هذا الضابط وواصل كلامه « إن ما يدور لا تجمله الجمل الطنانة عن الوطن ، فليس ما يحدث تأكيداً للوطنية، إنه جنون جمال عبد الناصر ومن يحذو حذوه حتى ولو كنت أنت أيها القائد أليس دليل ما أقول أنكم تتعسفون الأشياء ، وتجعلون من هذه الأسلحة ـ التى لا تحتمل خصائصها الفنية القدرة على المناورة المكانية ـ أسلحة مرنة ، وهى ليست كذلك، إنكم لا ترغبون إلا فى تحدى الحقائق وتحدى قدرتنا القليلة فى مواجهة قدرة العدو الكبيرة» .

ورغم جسارة الاتهام وسفوره ، ورغم أنه مس القائد فى وجهه، ورغم أنه نظر إلى الصراع من زاوية ضيقة (وفنية فحسب) تعكس الأصل الطبقى للمتحدث ، وفهمه للوطنية من منظور الاستسلام والقدرة المحدودة ، إلا أن هذا الانفجار كان يعكس بدرجة ما الواقع الذى بدأ التململ يتخلله ، لذا فإننى لن أنسى حكمة القائد وبعد نظره فى محاصرة تفجر هذا الضابط بتعميق دلالة هذا الصراع المسلح الدائر على مجريات الصراع فى منظوره العام بين العرب وحلفائهم ، وبين إسرائيل وحلفائها، وبتوضيح أن الحروب لا تقوم فقط على النسب والأرقام والأعداد الجامدة ، ولكن هناك دائماً حيز كبير للبشر ولإرادتهم ، ولأهمية الاستمرار والتواصل فيما يبدءونه ، هكذا تكلم هذا القائد الكبير ، الرجل الوطنى المخلص ، والشخص العاقل الصبور ، رغم كبر سنه (اللواء أحمد سلامة غنيم) .

وهكذا يتضح أن حرج الأوضاع فى نهاية اليوم الثامن من بدء الزحف العظيم كان من نصيب الجانب المصرى ، وأن المبادرة

التى بدأت خيوطها تتجمع فى أيدى قوات الدفاع الجوى المصرى مهددة بالتسرب والتهتك ، وأن قوات الصواريخ التى بدأت زحفها وثابة ، وأقامت حائطاً عظيماً بالصواريخ للدفاع عن أجواء مصر الشرقية.

بدأ القلق يتماثل أمامها مرئياً ، والخوف من اتساع ثغرات هذا الحائط العظيم أصبح خطراً واقعاً وكان لابد من إضافة عوامل جديدة لرأب الصدع ، ولأن دائرة الأمان اتسعت فى الدفاع عن أجواء مصر حتى حدود جبهة قناة السويس ، ولأن تهديدها بالانحسار يعنى تداعياً لأخطار جسام تهدد كل ما تحقق وتم ، كان من الضرورى الالتجاء إلى القوات السوفيتية مرة أخرى ، فالمهمة الأولى تبدلت ، فبعد أن كانت حماية العمق وتأمين المدنيين والأهداف الحيوية لمصر هى رأس مهام الدفاع الجوى ، تعدلت المهمة الأولى لتكون تأمين اتساع دائرة الدفاع عن أجواء مصر حتى خط جبهة قناة السويس .

وكما وقف حلفاء الحق ، وقوى حلف معاداة الامبريالية والصهيونية جنباً إلى جنب فى مرحلة الصراع الأولى ، كان واجبهم يحتم عليهم أن يستمروا فيما ابتدءوه ، وفعلاً - ومع بداية اليوم العاشر فى عمر حائط الصواريخ - تم تحريك مجموعة من أطقم الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام 3 « البتشيورا» والتى تعمل عليها قوات سوفيتية كاملة إلى خط جبهة قناة السويس ، لقد تقدمت أطقم الصواريخ السوفيتية لتسد ثغرات حائط الصواريخ ، ولتدعم مواقعه بمواقع إضافية ، وإذا كان عدد

وحدات هذا الحائط منذ بدايته يعد من قبيل الأسرار العسكرية، وكذلك عدد الوحدات السوفيتية التى أضيفت لدعمه ، إلا أنه يمكن القول أن عدد بطاريات صواريخ سام 3 السوفيتية الصنع والتشغيل ، التى دعمت حائط الصواريخ المصرى على جبهة قناة السويس ، بلغت ما يقرب من ضعف عدد وحدات الصواريخ من طراز سام 2 الصنع والمصرية التشغيل الموجودة فى هذا الخط فى اليوم العاشر لبدء الزحف العظيم ، لقد سدت هذه الإضافة ما تم فقده من وحدات الصواريخ المصرية ، وارتفعت بالعدد الكامل لمواقع الخط القتالى إلى حوالى 150% من مواقعه التى بدء بها الزحف العظيم .

إن تحريك هذه القوات السوفيتية لتشارك إلى جوار القوات المصرية فى الدفاع عن أجواء مصر عند خط قناة السويس تطلب عملية تنسيق واسعة بين وحدات القوتين ، فلقد تم لكل قطاع محدد تكوين قيادة ميدانية مصرية سوفيتية مشتركة ، حيث تكونت غرف عمليات مشتركة يعمل فيها مصريون وسوفييت ، يجمعون المعلومات الرادارية وكل حيثيات العمل القتالى ، ويقومون بتوزيع هذه المعلومات وتوزيع المهام على الوحدات القتالية ، لكل بلغته ، وهكذا امتزجت المهام القتالية سواء على المستوى القيادى ومستوى جمع المعلومات وتوزيعها ، أو على مستوى تداخل أقواس النيران ، وتداخل مهام الحماية بين كل من قوات الصواريخ المصرية العاملة على الصواريخ المضادة للطائرات من طرازى الديفينا والديسنا ، وبين القوات السوفيتية العاملة على الصواريخ المضادة للطائرات من طراز البتشيورا .

إن هذا التمازج والاختلاط فتح الباب واسعاً أمام أكبر عملية احتكاك ، وتبادل للمعارف والفنون والأساليب القتالية والإدارية والفنية ، كما سمح بخلق فرص التنافس المشروع لتحسين معدلات استهلاك الصواريخ للهدف الواحد ، ولاغرو إذن، إذا علمنا أن معدلات الكفاءة القتالية للأطقم المصرية قد تحسنت فى ظل هذه الظروف ، بين الأسبوع الأول والأسبوع الرابع، لينخفض معدل استهلاك الصواريخ للهدف الواحد إلى ما يقرب من 300% .

إن أى رصد أمين لتاريخ القوات المسلحة السوفيتية يبين أن هذه التجربة للعمل الميدانى المشترك هى التجربة الأولى للقوات السوفيتية مع قوات أجنبية فى معمعان المعارك خارج دول المجموعة الاشتراكية ، وربما التجربة الأولى لها على الإطلاق مع قوات أجنبية بعد انقضاء معارك الحرب العالمية الثانية ، أو ما يسمى داخل الاتحاد السوفيتى «بالحرب الوطنية العظمى».

إن سماح القوات المسلحة السوفيتية بهذا التداخل والعمل المشترك - مع ما اشتهر عن السوفيت من تزيد فى إجراءات الأمن عموماً والأمن العسكرى خصوصاً - يعكس عمق التوجه السوفيتى فى دعم الحلف المعادى للامبريالية والصهيونية ، ويشكل رداً عملياً على كل موجات التشكيك والكذب والتدليس التى انطلقت بعد ذلك ، بل وتشكل تحدياً وإجابة بليغة على روح العداء للسوفيت التى حملها وتحرك فى إطارها بعض قادة العسكرية المصرية آنذاك .

وفى هذا المجال ، لا أنسى ما حييت تلك الواقعة التى تبين ما أدعيه بصدد الكلمات السابقة ، فمنذ اليوم الخامس وحتى الثامن لبداية زحف وحدات الصواريخ نحو الجبهة ، ظهرت آثار استخدام الطائرات الإسرائيلية ، وبالذات الأمريكية الصنع منها لمعدات الاستطلاع الالكترونى التى نوهت عنها سابقاً ، ولم يك أمر هذه المعدات قد كشف لنا بعد ، وصاحب وجود هذه المعدات الحديثة استخدام الطائرات الإسرائيلية لتكتيكات حديثة استفادت فى تنفيذها مما تحصل عليه من معلومات هذه الأجهزة الحديثة ، مما شكل لوحداتنا عملية استجلاب خطيرة لصواريخها دون إسقاط أهدافاً معادية فى مقابلها ، فلقد زاد معدل استهلاك الوحدات المصرية للصواريخ دون مقابل معقول فى إسقاط الطائرات الإسرائيلية ، فى هذه الأثناء أطلق أحد قادة الأطقم القتالية المصرية شائعة علمية أثر اشتباكه مرتين فى يومين متتاليين ، أطلق فيهما ثمان صواريخ دون أن يصيب هدفاً واحداً .

وكانت هذه الشائعات تقول أن الطائرات المعادية تمتلك معدات رادارية تستطيع بواسطتها التحكم فى توجيه حركة الصواريخ التى تنطلق عليها ، وأنها تتمكن من إبعاد الصواريخ عنها وإعطاء هذه الصواريخ الأمر بالارتفاع والتفجير الذاتى فى طبقات الجو العليا ، وسرت هذه الشائعة مسرى النار فى الهشيم، فكل الظروف كانت مهيأة لقبولها وترديدها ، فكل وحدات الصواريخ ترصد طائرات معادية ذات ارتفاع عالى .

تمعن أحياناً فى التحدى وتترك وراءها خط العادم الأبيض الذى يكشف عنها بمجرد النظر ، وليس بوسائل الاستطلاع أو المتابعة الرادارية فقط . ومع ذلك ، ما تكاد هذه الوحدات تطلق صواريخها من طراز سام 2 ـ والذى يمتلك قدرات عالية للاشتباك مع الطيران العالى ـ حتى ترى أن هذه الصواريخ لا تكاد تلحق بالطائرات ، فالطائرات الإسرائيلية تنحرف بمجرد انطلاق الصواريخ وتغير اتجاهها ، والصاروخ بدلاً من أن يتابعها يعبر منطقة التدمير ، ويأخذ أوامر التفجير الذاتى فى طبقات الجو العليا .

هكذا انتشرت هذه الشائعة ، ووسط هذه الظروف التى تهيىء مناخاً صالحاً لقبولها . عندئذٍ عايشت رد الفعل على هذه الشائعة، و لامست واقعتين هامتين ، شكلت اتجاهين يجب رصدهما :

الأول : وصلت هذه الشائعة إلى القائد العام للقوات المسلحة بالنيابة ، الفريق محمد أحمد صادق (رئيس الأركان آنذاك)، والذى كان يتولى أمر قيادة القوات المسلحة فى غياب الفريق أول محمد فوزى (القائد العام) ، الذى كان يرافق الرئيس جمال عبد الناصر فى زيارته لموسكو ، عندئذٍ استدعى الفريق صادق قائد الطاقم الذى أطلق هذه الشائعة .

وذهبت أنا ومستشار سوفيتى برفقة هذا القائد لمقابلة الفريق صادق ، وما كدنا نغادر الموقع ونمسك بالطريق العام الذى يفضى بنا إلى مقر قيادة الفريق صادق ، إلا وتعطلت العربة التى

كنا نرتادها ، ودب الارتباك بيننا وبسرعة فائقة تصدر المستشار السوفيتى الطريق ، وأخذ يستوقف العربات العسكرية ، ووقفت إحدى العربات ولم يك بها غير مكان واحد ، ركب فيه قائد الطاقم .

ثم لحقنا به بعد ذلك بعد أن تمكنا من إصلاح عطل العربة، وعند مقر القيادة علمت أن قائد الطاقم دخل لمقابلة الفريق صادق ، وما إن هممنا بطلب لقاء القائد العام بالنيابة ، إلا ورأينا قائد الطاقم قادم ووجهه يطفح بالبشر والسرور ، وطلب منى أن يدخل المستشار السوفيتى للتسليم على الفريق صادق ، ولم أصاحبه ، وإذا بقائد الطاقم يبادرنى القول : « ابسط يا عم ، إحنا الثلاثة مدعوون فى فندق الشيراتون على العشاء الليلة على شرف القائد العام بالنيابة» ، وعلمت منه أن القائد العام بالنيابة تهلل بشراً وفرحاً لأن قائد الطاقم قد كشف الغباء السوفيتى وأسلحتهم المتخلفة ، وتحمس وقال له : « أنت يا ابنى مدعو الليلة على العشاء فى الشيراتون نتيجة أنك راجل صاحى « ، وأخبره قائد الطاقم بأن يصطحب المستشار السوفيتى والمترجم ، فابلغه بأنه يمكنه أن يصطحبهم معه أيضاً إلى العشاء .وسألت قائد الطاقم : « ألم يحقق معك صدق ما تقوله أو تدعى ؟» ، فرد على: « سيادته فرح لأننا كشفنا غباءهم» .

وبلعت امتعاضى لهذا الأسلوب ، وأخذت ألح عليه بأنه لا داعى لعشاء الشيراتون ، فأولاده أحق بهذه الفترة ، خاصةً أننا سنذهب إلى الموقع مع الخيوط الأولى لصباح هذه الليلة . ورغم أنه مال إلى

ما أقول ، إلا انه رد مداعباً : « ألا تعلم ان فندق الشيراتون أحدث وأفخم فنادق القاهرة»

فقلت له : « حقاً ما تقول ، ولكن الأحق به المترفون فى القاهرة، أما من يحاربون دفاعاً عن أرض الوطن ، فلاشك أن ما سيلقونه فى هذا الفندق سوف يجسد لهم كل صور الهم والغم من أجل الأوطان ، ولن يفلح مطلقاً فى أن يجلب لهم ولو خيطاً من سعادة».

وحضر المستشار السوفيتى بعد أن سلم على رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة المصرية ، وتقابلت عيوننا وتلاقت مشاعر تطفح منها بعلامة الرضا والتوجس ، ولكن لم تتحرك ألسنتنا ببنت شفة ، وانصرفنا على وعد بلقاء بعد ثمان ساعات فى الصباح الباكر لنذهب إلى حيث أتينا ، وفى الطريق إلى منزلى كادت عبرات ساخنة أن تخنق حسى ، وأن تنهمر من مقلتى ، وقلقى يتزايد ، هل حقاً ما سمعت ؟ ؛ هل يمكن أن نستبدل ما هو كبير بالصغير الصغير ؟ ؛ هل ننصرف عن تحقيق مشاكلنا وحل معضلاتنا لنهنىء بفشل الآخرين وبالتشفى فيمن يمدون لنا يد العون ؟ ؛ هل هذه قيادة تستحق موقعها ؟ ؛ إن العين حينما تكون مفتوحة على أبواب الشيراتون ، وموصدة عن أبواب حل مشاكل الحرب والقتال ، لا يجب أن يصيبنى الحزن على تلك الحياة الطبيعية المعتادة التى تدور أمامى فى القاهرة ، وتختلف اختلافاً كلياً وجزئياً عما نعانيه هناك فى خفر وخنادق معداتنا وتحت تهديد القصف المعادى.

هنا تدخل صوت عقلى وحدثنى مهلاً : إن من ينشغلون بالعشاء

الفاخر ، والأماكن الثرية لا يختلفون كثيراً ، مهما تغيرت مواقعهم هنا أو هناك ، وإن من يعانون هموم الوطن ومشاكله، ويكدحون للبناء والتحرير ، لا يختلفون أيضاً مهما تغيرت مواقعهم هنا أو هناك ، فلتنحبس أيتها الدمعة القلقة ، ولتنفتح أيها العقل والوجدان على تلك الحقيقة البسيطة . إنه لا يحس الشوق إلا من يكابده ، والنار لا تحرق إلا كابشها ، فهذه حياتنا وهذا وطننا وتلك مشاكلنا ، ولا ضير من أن لسعها يشتد علينا، ولكن نحن لها .

الثانى : تحرك ركبنا إلى الموقع مع الخيوط الأولى لصباح هذا اليوم ، وما كدنا ندخل الموقع إلا ووجدنا أمامنا مجموعة كبيرة من الخبراء السوفيت . وبعد أن تعرفنا بهم وعرفنا مهمتهم ، فهمت أن هذا وفد خبراء السوفيت الفنيين فى تصميم وتصنيع الصواريخ المضادة للطائرات ، وأنهم يكونون مجموعة متكاملة لكل تخصصات المحطة ، وهم اثنى عشر خبير يقودهم جنرال فنى ، وأن مهمتهم تتخلص فى المرابطة فى هذا الوقع تحيناً لحدوث اشتباك، ومتابعة كافة التخصصات أثناء الاشتباك ، لتحقيق ما أثير حول هذه الشائعة التى نوهت عنها مسبقاً ، هل هى حقيقة؟ ؛ أم هل هناك أخطاء فنية ؟ ؛ أم هناك أبعاد أخرى ؟، ومر اليوم الأول لوجودهم بيننا ولم تقرب طائرات العدو من دائرة هذا الموقع ، وتوالى اليوم التالى كسابقه ، حتى اليوم الثالث أوشك أن يمر والحال ثابتة .

عندئذٍ علمت من الجنرال السوفيتى أنهم سينهون انتظارهم مع

حلول المساء . ودارت معه مناقشة ، سألته : « ما رأيك فى علمية هذه الشائعة ؟» فرد بهدوء ، وقال : « إن أمر حدوث هذه الادعاءات شىء يكاد يكون فى دائرة المستحيل ، فالصاروخ المضاد للطائرات من هذا الطراز صاروخ موجه ، وبه جهاز معين مثبت فى مؤخرته ، ومصمم على أن يأخذ الأوامر من اتجاه واحد (المحطة ـ الصاروخ) لذا يستحيل أن تدخل طائرة من خلفه وتعطيه أوامر أخرى تخالف أوامر المحطة التى تطلقه وتتابعه .

وإن الطائرة التى يفترض أنه يتجه لتدميرها لا تستطيع أن تعطيه مثل هذه الأوامر ، فاتجاه أوامرها سيكون عكس اتجاه الأوامر المؤثرة على الصاروخ ، وهناك سبب ثانٍ : إن هناك مبدأ كهرومغناطيسياً يقول بأن قوة النبضة الرادارية تتناسب تناسبا طردياً مع قدرة مصدر بعثها ، وإن قدرة هذا المصدر تتحدد بحجم وثقل الهوائيات الباعثة لهذه النبضة ، ولكى تكون أوامر الطائرة أقوى من أوامر المحطة ، فعلى الطائرة أن تحمل معدات وهوائيات تزيد عن ثلاثين طن ، وهو ثقل كبير تنوء الطائرة المقاتلة أو المقاتلة القاذفة بحمله»، فسائلته : « إذا كان ذلك كذلك ، فلما جئتكم إلى هذا الموقع ؟».

فابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة ، وقال لى : « أيها الشاب ، ألا تعلم أننا فى عصر العلم ، وأن حدود معارفنا حتى هذه اللحظة هى ما اكتشفت فعلياً من علم ، ولكن ما لم يكتشف بعد قد يكبر ما نعرفه ، عندها قد تتبدل الحقائق العلمية ، وهذا ما نسعى إليه ، أو نثبت على ما نحن عليه» .

وانصرف هذا الوفد مع حلول المساء من الموقع ، وبعدها بيوم واحد تقدم إلينا جنرال سوفيتى آخر ، كنت أعرفه حق المعرفة ، فهو مستشار رئيس عمليات الدفاع الجوى ، وقدم معلومات هامة حول استخدام إسرائيل وطائراتها الأمريكية لأجهزة استطلاع رادارى أمريكى حديثة الصنع ، وهى تحدد لحظة انطلاق الصاروخ الموجه إليها ، لهذا فإن مثل هذه الطائرة تأتى بخصائص معينة تضمن فيها أن يكون الحد الأدنى لمنطقة تدمير المحطة بعيداً عن مركزها ، ويكون عمق منطقة التدمير عمقاً قليلاً ، وهذان الشرطان يتحققان مع علو الطائرة وارتفاعها .

وإنها بمجرد أن ترصد لحظة انطلاق الصاروخ تنحرف فى الاتجاه، وتغادر الحد الأقصى لمنطقة التدمير قبل أن يجتاز الصاروخ الحد الأدنى ، عندئذٍ لا يمكن للصاروخ أن يلتقى بها فيعبر منطقة التدمير وينفجر ذاتياً حسب ما هو مصمم عليه .

وأوضح الجنرال أن مثل هذا الهدف لا يريد إلا مزيداً من استجلاب الصواريخ ، وبث روح اليأس لدى الأطقم المقاتلة ، ويرغب فى تحديد المواقع تحديداً دقيقاً ليسهل دكها ، وأن ما أنقذ هذا الموقع بالذات من هذه الخطة هو تمويهه واختفاؤه الجيد ، وأنه بالفعل تم قصف موقعاً تبادلياً هيكلياً كان يبعد عن الموقع الأصلى ببضع مئات الأمتار ، وذلك عقب الوقت الذى جرى فيه الإطلاق ، وأنه إذا كان قد سكن وترك هذه المنطقة فلأنه توهم أنه دمر الموقع ، ولم يتمكن من رصده ثانية .

بعد ذلك ـ وقبل أن تمر 24 ساعة على هذا اللقاء ـ استدعيت

إلى الترجمة فى مؤتمر قتالى عام لتقييم نتائج الاشتباكات، وتكتيكات العمليات ، والوقوف على التكتيكات المعادية، وكيفية تعميم الخبرات فى هذا المجال ، وذهبت إلى المؤتمر ، وتحدث نفس هذا الجنرال وطال حديثه إلى ست ساعات متواصلة، ورغم إنهاكى وجدتنى وقد صرت يقظاً ، ومدققاً للكلمات والمعانى ، ولم ينل الإجهاد منى فحينما يرى الإنسان ناتج عمله لا يأبه بأى صعوبات تقابله ، ولا يجد العرق إلا عطراً شذياً ينعش كل مشاعر الحب فيه لمن يحب ، إنه التحرير ، وإنها مصر .

لقد ذكرت هذه الوقائع ، وما صاحبها من تحركات ذات دلالات مختلفة ليتضح لأبناء وطنى مصر وكل الشعب العربى أن تحريك قوات الدفاع الجوى السوفيتية ـ والعاملة على أطقم صواريخ سام 3 ـ إلى المواقع الأمامية لخط الدفاع المصرى ، حيث يبنى حائط الصواريخ العظيم ، كان عملاً يستحق الإبراز والكشف عنه بكل ما صاحبه من جهود شاقة وآثار هامة ليرى الشعب ويطلع على حقائق تاريخه كما هى ، لا كما يرسمها هذا الشخص أو ذاك ، خاصة أن هذه الوقائع لا تخفى على الأعداء، ولا تخفى على حلفائهم ، إنها ـ وللأسف ـ موضع جهد جهيد يريد طمسها فى زمن استبيحت فيه قيم النضال وشعاراته ، فصار الاستسلام سلاماً ، وصار الوفاء جحوداً ونكراناً لكل مساهمة جادة فى نضال وكفاح هذا الوطن ضد أعدائه ، وصار الصديق عدواً ، وصار العدو صديقاً ، وتسلم السفاح بيجين جائزة نوبل للسلام مناصفة مع السادات !

ثبـات .. وصعود .. وانطلاق

بعد تدعيم حائط الصواريخ بأطقم وبطاريات صواريخ البتشيورا السوفيتية الصنع والتشغيل ، دخل الصراع بين طيران العدو الإسرائيلى ، وبين وسائل الدفاع الجوى على جبهة مصر عند خط قناة السويس ، مرحلة هامة وجديدة .

لقد بدأت النقطة الحرجة على منحنى الصراع تنتقل إلى الجانب الإسرائيلى ، وأخذت الدروب تتعقد وتنسد فى وجه طائرات العدو ، وشيئاً فشيئاً دب الشلل فى ذراع إسرائيل الطويلة ، ولم تنجح إمدادات أمريكا الامبريالية ، بأحدث الأسلحة والمعدات للطيران الإسرائيلى ، فى وقف مؤشرات الميزان نحو صالح وحدات صواريخ ومدافع م/ط للحائط العظيم ، وعلى الرغم من ظهور صاروخ الشرايك ، وهو صاروخ جو / أرض تستخدمه الطائرات المعادية من الأصناف الأمريكية الصنع ، حيث يتجه على مسار شعاع الرادارات ووحدات الصواريخ لكى يعطبها تمهيداً لقصفها ودكها وقبرها إن أمكن ، وبالرغم من ظهور القنابل التلفزيونية الأمريكية الصنع ، وهى قنابل جو / أرض وبداية استخدام الطائرات الإسرائيلية لها ، إلا أنها لم تغير من اتجاهات الأمور والموازين .

فميكانزم الصعود للمنحنى المصرى قد بدأ ، والعجلة دارت وبدأت تتجه لمزيد من السرعة. فخط الدفاع الجوى المصرى بوحداته المصرية والسوفيتية من صواريخ سام 2 ، سام 3 ، أصبح أكثر مراساً وأشد فتكاً ، فقد أصبحت معدلات استهلاك الصواريخ للهدف الواحد تقل وتأخذ اتجاهها نحو المعدلات النموذجية ، وبدا تعاون الوحدات وتداخل مهام الدفاع عن بعضها أمراً ظاهراً وملموساً .

ولن أنس يوم تقدمت مع طاقم وحدة من وحدات مجموعة الاحتياطى الاستراتيجى للقيادة إلى موقع جد متقدم ، لا يبعد عن مياه قناة السويس إلا بعشرات الأمتار ، ولكنه موقع مموه تمويهاً عالياً ، وقد كمنا فيه وسط يقظة وهدوء لم أحسها من قبل فى ومن حولى ، ولن أنسى أن انتظارنا لم يطل فى هذا الصباح، فما هى إلا ساعتين وبضع الساعة منذ انبلاج نور الصباح ، حتى رأينا الطائرات الإسرائيلية تمرق على ارتفاعات جد منخفضة صوب مواقع قواتنا وقد تصادف وجودى خارج مركز القيادة والتوجيه ، وشاهدت مع آخرين طائرات إسرائيل.

وقد ميزنا طرازها وكانت طائرات سكاى هوك الأمريكية الصنع ، وفى لمح البصر أطلق طاقم الوحدة ستة صواريخ على دفعتين ، وتمكنا من إسقاط هدفين ، واشتبكت فى ذات الوقت وحدتين سوفيتيين ، وأسقطنا أربع طائرات ، ومع انطلاق صواريخ وحدتنا ، اندفعت حمم النيران التى تنفثها الصواريخ من مؤخراتها إلى كميات هائلة من عشب الأرض ، وشب حريق

هائل مروع ، ونزل المستشار السوفيتى ونزلت معه ونزل الجنود والضباط جرياً وراءنا ، ورحنا نطفأ النيران بقبضات أيدينا من تراب الموقع ، وبوقع أقدامنا حتى لا تمتد إلى المعدات والصواريخ فتفجرها وتدمرها ، ولكى لا ينكشف ستر الموقع حتى نغادره بأسرع ما يمكن .

إن وحدة العمل بين الضباط والجنود صورت الأمر لي فى حينها وكأن يد عملاق مدرب ومجرب قد امتدت ، وبلمسة حانية أخذت تحرك أوتار قلوبنا لتعزف لحن الشجاعة والإقدام ، لقد بدا للوهلة الأولى لبعض الأفراد أنه من العبث أن نطفئ النار بأيدينا وبأرجلنا ، ولكن شجاعة الرجال وتصميمهم قد حاصر النار فى مهدها ، وأنقذنا الموقع وما هى إلا دقائق حتى بدائنا التجهيز للتحرك ، وتحركنا وأدخلنا المعدات فى مكان امن ، وبسرعة وتواصل قام قائد التشكيل الأعلى مع قائد الطاقم ، يرافقهما المستشار السوفيتى لكل منهما ومعى ، وباختيار موقع جديد - ومع حلول المساء - دخلنا الموقع الجديد ، وقبل أن ينتصف الليل كنا قد أنهينا التجهيزات وأصبحنا فى وضع الاشتباك ، وقرت جفوننا بالنوم نصف ليلة كاملة ، ومع ساعات الصباح الأولى دق تليفون القائد ليقرر منحنا أنواط الشجاعة للضباط من الدرجة الأولى وللجنود والصف من الدرجة الثانية ، ويزف إلينا أن الشيك النقدى لمكافأة إسقاط سكاى هوك جاهز.

ولا أنسى كم كانت أفراحنا ونكاتنا تكاد تصل إلى العنان ، ولن أنسى توسلات جندى زميل لنا ومناجاته للّه ،

وكان أحد اثنين يشكلان طاقم ما يسمى بكابينة الموت ، وهو راسب إعدادية الأزهر ، حيث كان يدعو اللّه أن يمهله من الموت لمدة خمسة أيام فقط يتمكن فيها من إرسال ما تجمع لديه من نقود لأولاده الصغار فى قريته بالصعيد ، ولا أنسى تعليقاتنا عليه ، حيث كان كل خمسة أيام يطلب تجديدها بخمسة أيام أخرى، حيث كنا نداعبه ونناديه : « أهلا بالرجل اللى عمره خمسة أيام !» .

وهكذا حملت عوامل الدعم والتأمين للحائط العظيم مظاهر التثبت والصعود لقوات الصواريخ المضادة للطائرات ، وارتفاع معنويات أطقمها ، واكتساب ثقتها فى أنفسها ، وفى مستوى أدائها القتالى ، وانعكس هذا أيضاً على جذر واضح بدا على طيران إسرائيل ، فمع بداية الأسبوع الثالث من لحظة الزحف العظيم ، قلت غارات الطائرات المعادية ، وبدأ الهدوء يرتسم على حلبة الصراع ، ولكن ما هى إلا فترة قليلة حتى ظهر أن هذا الهدوء كان هدوءاً لالتقاط الأنفاس للطيران المعادى ، إنه هدوء ما قبل العاصفة .

يـوم العـيد

استجمع سلاح الطيران المعادى كل قواه ، وإعمالاً لسياسة القبضة الحديدية ، حشد كل ما جمعه وأراد أن يكرر مأساة الأسبوع الأخير من ديسمبر سنة 1969 ، ففى يوم 18 يوليو سنة 1970 ، ألقى بكل ثقله فى المعركة حيث أراد أن يحول هذا إلى يوم فاصل فى تاريخ الصراع ، لقد توهم طيران العدو الإسرائيلى أن يجعل من هذا اليوم ، اليوم الأخير لحياة الحائط العظيم ، ولكنه حقاً كان يوماً فاصلاً ، ولكن لم تسير نتائجه فى اتجاه من خطط لها ، وتحول اليوم إلى يوم العيد للدفاع الجوى المصرى .

ففى 18 يوليو سنة 1970 ، قام الطيران الإسرائيلى بالهجوم على خط صواريخ الدفاع الجوى على جبهة قناة السويس ، بمجموعة من الهجمات والغارات المكثفة ، لقد شاركت فى هجوم هذا اليوم حوالى ثلثى الطاقة العامة للطيران الإسرائيلى، فاشتركت فى هذه الهجمات ما يقرب من 250 طائرة فى طلعتين متواصلتين، لقد كانت الطلعة الواحدة تضم أكثر من 120 طائرة إسرائيلية معادية من المقاتلات والقاذفات ، والمقاتلات القاذفات ، وأغارت هذه الأعداد الكبيرة من الطائرات

فى آن واحد ، وبخطة متكاملة الأدوار ، فكانت هناك طائرات تطير على ارتفاعات شاهقة حيث يصل ارتفاعها إلى 24 كيلو متر ، وتقوم بإطلاق خط العادم الأبيض ، نافثة إياه خلفها لكى ترى بالعين المجردة، ناهيك عن التقاط أجهزة الرادارات وأجهزة توجيه الصواريخ لها، وهذه الأهداف كانت تأمل فى شد الانتباه إليها ، والاستفادة من ارتفاعاتها الشاهقة ، وقدرتها على المناورة بالمسافة وبعد خط مسقطها عن مركز المحطة (كبر بارامتر الهدف) وضيق عمق منطقة التدمير ، وذلك لتستجلب الصواريخ عليها من ناحية ، ولتحدد مواقع هذه الصواريخ بدقة من ناحية ثانية مع انطلاق الصواريخ ، خاصة أن مواقع الصواريخ كانت من الكثافة بحيث لا يمكن التمييز بين الحقيقى والهيكلى منها ، وأن فنون الإخفاء والتمويه قد بلغت مستوىً رفيعاً بفضل التدريب المتوالى وخبرة تجارب الكمائن ، هذا غير الخبرة النظرية للمستشارين السوفيت والإشراف الفنى الدائم على هذه العمليات ومتابعتها .

وفى ذات الوقت كانت تسبح عدة موجات من الطيران المعادى تحت هذه الطائرات المرتفعة على ارتفاع جد منخفض ، بحيث لا يسهل لأجهزة الرادار وأجهزة التوجيه الصاروخى التقاطها ، وتقوم هذه الطائرات - أو بتعبير أدق - كان من المفترض على هذه الموجات أن تغطى مهام الطائرات المرتفعة وتحصد من ورائها، فتمر الموجة الأولى لتعطب المحطة التى حددت موقعها ، تتلوها - وعلى الفور - طائرات قاذفة تقوم بدك الموقع ، وإن سمحت لها الظروف بالقيام بالمهمتين معاً كان لها ذلك وكان هذا أفضل، لقد

كان هذا الهجوم الشرس لطيران العدو يحدث فى ظل عملية كبيرة وواسعة ومعقدة ، من بث كل حيل التشويش والتداخل الرادارى، فلقد حضرت إسرائيل لهذه المعركة بحشد كمية هائلة من معدات التشويش والتداخل الرادارى . فأخذت ترسل كل صنوف وأنواع التداخل المتصورة والمحتملة استخدامها فى وقت واحد .

إن قوة الهجمة الإسرائيلية فى يوم الثامن عشرة من يوليو سنة 1970 ـ وما أحاطتها من عوامل مساعدة ـ قد بينت أقصى ما تملكه إسرائيل ، ومن وراءها الولايات المتحدة الأمريكية فى ترسانتهما العسكرية ، ومع ذلك ظهر التحدى على الجانب الآخر ، جبهة أصحاب الحق وحلفاء الحق ، المصريون والسوفيت ، فبوسائل بدائية بسيطة أبطل مفعول أحدث مستوى للتكنولوجيا الأمريكية ، فكان السوفيت قد توصلوا لتعديل بسيط ، وهو أن كل محطة صواريخ من سام 2 تزود بنظامين لالتقاط الأهداف الأول والأساسى هو للنظام الرادارى ، والثانى هو العين المجردة بواسطة تلسكوب مكبر ومقرب يكشف لمدى ثلاثين كيلو متر أمامه ، وكان هذا التعديل الأخير رغم بدائيته يفقد وسائل التشويش الرادارى والتداخل أى أثر فعال لها .

وكان يقوم على تنفيذ هذه الفكرة مجرد جنديين يحتلان كابينة عالية عليها مركبة على أعلى الهوائيات ـ وهى ما نوهت عنها مسبقاً بالتسمية الفكاهية لها بأنها (كابينة الموت) ، ومن ناحية أخرى كانت بعض المحطات تضم وحدات

حديثة لها القدرة على التقليل أو إلغاء آثار التداخل والتشويش الرادارى، وهذه هى الصواريخ من طراز الديسنا ، كما أن صواريخ البتشيورا كانت تتمتع بمثل هذه الخصائص .

إن هذه النظم مكنت وحدات الصواريخ من تكشف أبعاد الهجمة الإسرائيلية والظروف التى تتم فيها . فى الوقت الذى تكشفت هذه الأبعاد لمراكز القيادة الميدانية ، وأعطت أوامرها بإطلاق كثيف للصواريخ من خلال وحدات المقلد ، وهى وحدات تطلق نفس نبضات الإطلاق الحقيقى دون خروج أو انطلاق فعلى لأى صاروخ ، مما جعل أسراب الطائرات الإسرائيلية تولى الفرار ، وبدت كأنه حركتها خبط عشواء . لقد أسفرت كل هجمات هذا اليوم العنيف ، ونتائج استخدم إسرائيل لقبضتها الحديدية ، عن قصف جزئى لوحدة من صواريخ سام 3 السوفيتية الصنع والتشغيل ، فبعد أن اشتبكت هذه الوحدات مع الطيران الإسرائيلى وأسقطت منه طائرة تفجرت فى الجو ، وأخرى أصيبت وهوت فى الجانب الآخر من القناة ، أغارت موجة من الطيران المعادى على طاقم تغيير منصة إطلاق فدمرته ، واستشهد فى هذه الواقعة ثمانية من شباب الاتحاد السوفيتى ، ستة جنود وملازمين .

كذلك أصيبت إحدى الوحدات من صواريخ سام 2 ذات طاقم مصرى ، إصابة جزئية أيضاً ، و نجا معظم طاقمها ، ودمرت هذه الوحدة ، طائرة إسرائيلية وفجرتها فى الجو .

وهكذا كانت نتيجة هذا الهجوم : لقد تحطمت موجات الطيران الإسرائيلى المعادى على حائط الصواريخ المصرى ، ومنذ

هذا اليوم اتضح أن الحائط العظيم وجد ليبقى ، ولن تقدر عليه إسرائيل بعد الآن . ولا غرو إذن ، إذ أعتبر يوم الثامن عشر من يوليو يوم العيد للدفاع الجوى المصرى .

لقد كان 18 يوليو سنة 1970 يوما مشهوداً . وكان يوماً يحمل لى ذكريات خاصة ، فكما ولدت من جديد فى اليوم الأول من يوليو ، ولدت من جديد فى هذا اليوم مرتين . ففى هذا اليوم كنت موجوداً فى وحدة قتالية من وحدات صواريخ الديفينا ، وكانت هذه الوحدة قد اشتبكت من موقعها هذا منذ يوم أو اثنين ، وأتت موجات الطيران المعادية ، وهى ترصد أن بهذا المكان موقعاً لوحدة صواريخ ، وأخذت الطائرات تقترب منا رويداً رويداً وشاشات ومبينات الوحدات لا تكاد تحدد شيئاً فالتداخل والتشويش على أشده ، وبلاغات المراقبة بالنظر ، والمتابعة التلسكوبية ترصد أزيزاً لمجموعات كثيفة من الطائرات ، وخطوطاً بيضاء تعلو فى السماء لأهداف على ارتفاعات شاهقة، وتشاور القائد مع المستشار السوفيتى وأدركا سوياً أن بالأمر غموض ، ولابد أن تكون هذه الأهداف المرئية المرتفعة مجرد خدعة ، وأن هذا الأزيز يعنى أن هناك موجات من الطيران المنخفض متربصة بنا ، والوحدة فى موقع أكثر من ممتاز بالنسبة لظروف الإخفاء والتمويه ، وبالتالى لا يجب أن تستفز .

وفى برهة استطعنا بوحدات تقليل التداخل ـ ونتيجة للخبرة والكفاءة العالية لطاقم التوجيه ـ التمكن من تحديد الأهداف ، ولكن كان قد استقر الرأى على عدم الضرب . ووجدنا الأهداف

تعبر الحد الأدنى لدائرة تدمير المحطة ، أى أنها قاب قوسين أو أدنى لركوبنا ، وأنها فى هذه الدائرة ، لا يمكن لنا أن نشتبك معها .

هنا اقترح المستشار السوفيتى أن نطلق النبضة المصاحبة للانطلاق الصاروخى من جهاز المقلد ، وبمجرد إطلاقها انبرت غارة إسرائيلية تدك موقعاً هيكلياً يبعد عنا بعدة مئات من الأمتار وفى مكان ظاهر وولت هاربة ، والموجات الأخرى فرت هرباً كذلك . عندئذٍ تنفسنا الصعداء ، وأدركت عندها أن القرار لا يكون قراراً لمجرد الضرب فى ذاته ، ولكنه يكون قراراً أيضاً ، وضرورياً بالحساب والتروى أحياناً .

وأبلغنا أمرنا للقيادة ، وجاءتها بلاغات مشابهة ، وعممت هذه الخبرة على كل الوحدات ، وفى الوقت نفسه جاءنا قرار بالاستعداد للتحرك وتغيير المكان . وخرج لاستكشاف الموقع الجديد ثلاثة من المستشارين السوفيت واثنان من الضباط المصريين واحد منهما قائد الوحدة ـ وصاحبتهم جميعاً ، وما إن دخلنا الموقع المحدد لاستكشافه ، وكنا قد اقتربنا من مركزه بالعربات ، إلا ووجدت كبير المستشارين السوفيت الذى يرافقنا يصيح على بأعلى صوته محذراً ، وهو يجرى لاهثاً " ابعد وأبعد من معك . فأنا أشم رائحة قنبلة زمنية على وشك الانفجار " ، وسابقنا الرياح لدرجة أن العربات بدت على الرمال متعثرة فى سيرها أكثر من أرجلنا التى بدت وكأنها أرجل جمال نافرة فى لسعة الهجير بالصحراء ، وما إن ابتعدنا بحوالى 400 متراً إلا ودوت سلسلة من الانفجارات بلغت ستة انفجارات متتالية ، ووسط جو

التوتر الشديد ، ومع عدم قدرتنا على كتم لهاثنا ، وتعليقاً على منظر الكبار فينا سناً ومقاماً وقد تحولوا إلى فرسان جامحة ، انفجرنا فى موجة ضحك وصخب عالى امتدت بنا حتى أرهقتنا .

وتركنا هذا الموقع ، وذهبنا إلى آخر ، حيث قررنا أنه سيكون مقراً جديداً لوحدتنا ، وهكذا مر نهار الثامن عشر من يوليو سنة 1970 ، ليمنح الحائط العظيم شهادة باكتمال قوته وقواه، ولينقذنى من موت محقق حام فوق رأسى مرتين ، وفى المساء ذهبت أنا ومن معى من المستشارين السوفيت إلى غرفة العمليات الرئيسية ، ودخلنا إلى حيث الطاقم السوفيتى فوجدت حزناً عميقاً يخيم على المكان .

واقتربت من قائد الطاقم ، وكان برتبة عقيد (وهى الرتبة التى تسبق رتبة الجنرالات مباشرة) ، ووجدت الدموع تترقرق فى عينيه، فسألته مستغرباً : " لماذا كل هذا الحزن ، وخسارتكم فى هذا اليوم ليست كبيرة ؟ فاستشهاد ثمانية أفراد من صغار الرتب ، لا يتحمل هذا الانقباض والحزن العميق " ، وذكرته بأننى شاهدت مجموعة من المستشارين السوفيت إبان غارات العمق وقد استشهد لهم ستة أفراد يحملون رتباً عالية وأظن معظمهم برتبة العقيد ، ومع ذلك لم أر أمارات الحزن التى أراها الآن . فرد على باستغراب أيضاً ، وقال : " إن شهداء اليوم منا هم من الشباب ، الشباب السوفيتى الذين نبنى لهم المجد والحياة فى بلاد أوطانهم فى الاتحاد السوفيتى ، وقبل أن يجنون ما نزرعه، يحصدهم الموت على أرض أوطان الغير . إن فاجعة فقد ستة من العقداء فى موقع حول القاهرة فى أوائل العام لا يضاهى فقد

مجموعة من الشباب " ، أنهى كلامه وساد الصمت ، ولفنى شعور لم أتعود عليه من قبل .

هل حقاً تتحدد قيمة الإنسان فى ذاته وبمستقبله ، أكثر من قيمته برتبته أو ماضيه ؟ ؛ وتذكرت على الفور كم يحزن البسطاء من أهلى وشعبى على فقد شاب أكثر من حزنهم على فقد شيخ مهيب! . ورحت أردد بصوت خفيض وكأننى أريد أن أثبت هذا الدرس فى قرارة نفسى ، إنه النضج الاجتماعى والتفاؤل بالحياة هو الذى يرى فى الشباب أصحاب الغد والمستقبل ، وعليه فإنهم أحق بالحاضر والحياة من غيرهم .

وهكذا انقضى يوم الثامن عشر من يوليو سنة 1970 . لقد كان يوم الهروب الكبير للطائرات المعادية ، يوم فشل الطيران الإسرائيلى فى استعادة المبادرة التى بدأت تتسرب من بين يديه، يوم ارتطام رأس القوة الإسرائيلى بحائط الصواريخ المصرية ، يوم عيد الدفاع الجوى المصرى ، يوم يجسد عظمة حلف معاداة الامبريالية والاستعمار ، يوم اختلطت فيه الدماء المصرية بالدماء السوفيتية على أرض وطننا الحبيب مصر ، لتسطر نشيد الصداقة الخالدة ، الذى سترتفع ألحانه ، حتى ولو كره الكارهون ، و نجح المغرضون فى خفوت صوتها لحين .

يوم راح الطيران الإسرائيلى بعده يلعق جراحه ، ولا يقوى على الاقتراب من قناة السويس إلا نادراً ، يوم الهزيمة الكاملة لتصريحات ديان وباقى قادة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية،

فعلى الرغم من قولهم بأنهم لن يسمحوا بدخول صاروخ واحد مضاد للطائرات إلى جبهة قناة السويس ، تحول هذا الصاروخ ليصير حائطاً عظيماً من وحدات الصواريخ .

يقول : أصبح هذا الحائط واقعاً يدحض ما يقوله دايان ـ و قد كان واثقاً مما يقول ـ " اللى يفوت لازم يموت " ، يوم بدا فيه السلاح الأمريكى المتطور، وبدت فيه التكنولوجيا الأمريكية التى يحلو للبعض أن يطنطن لها بدت كالقزم أمام إرادة الحق، وعمل العاملين ، وجهد الشعب ، وجهد حلفائه فى المصلحة والمصير ، مصلحة معاداة الامبريالية والصهيونية، ومصير العالم ، وقد غدا اشتراكياً متطهراً من الرأسمالية والاستعمار .

يوم برزت فيه حقائق العالم واضحة ، فالتنظيم القتالى الجيد ووضع التشكيلات ، وتنظيم وحداتها فى نظام يوضح المهام ويحددها ، والتنسيق القتالى والتعاون بين هذه الوحدات، والعمل النشط والدءوب فى إخضاع الخصائص الفنية والتكتيكية للأسلحة لمقتضيات الواقع والحال ، وسد ثغرات أى سلاح بإيجابيات أخرى ، كأن تحيط وحدات الصواريخ المهيأة للاشتباكات العالية والمرتفعة وحدات مدفعية وصواريخ خفيفة لتأمين الاشتباك مع الأهداف المنخفضة ، كذلك فإن إدارة العمليات إدارة سليمة تقوم على مبادئ خلق وابتداع الأشكال القتالية التى تؤدى للحصول على أحسن النتائج ، وحشد وتنسيق كافة المجهودات المعاونة ، كمجهودات أسلحة المهندسين العسكريين ، والإشارة، والشرطة العسكرية ،

ووحدات المخابرات والاستطلاع الحربى، ثم تنفيذ الخطة فى إطار من المرونة، والقدرة على دفع أوتأخير هذا الموقع أو ذلك وإحداث المناورة، واستغلال إمكاناتها أحسن استغلال للوصول إلى أعلى معدلات ونتائج ثم متابعه كل هذه العناصر بروح التحدى والإصرار، إن كل هذه المبادئ ساعدت على تجسيد حقائق العلوم القتالية، وأظهرت كيف استفادت منها قيادة عمليات الدفاع الجوى العامة فى مصر آنذاك.

إن درس هذه الأيام واضح ومحدد فالقتال علم وعمل، خبرة وجهد، بشر وسلاح، اعتماد على الذات ومعاونة الحلفاء. فكر وتنظيم، لقد علمتنى خبرة وتجارب هذه الأيام أن منازلة العدو وملاقاته، لا تقوم على التمائم والصلوات، ولا تقوم على الشعارات والصيحات، فالحرب الحديثة عمل رصين، وفكر موزون، وخبرة تجارب، وجهد متواصل، ووضوح للهدف والمهام وتلك كانت دروس بناء الحائط العظيم، أو على وجه الدقة دروس ما تم تأمينه من بناء ومجهودات ساعدت فى دعم حائط الصواريخ. ولكن ما تم بناؤه كان خطوة على الطريق، فمازال للمشوار بقية، وما زالت للحائط لبنات وصفوف يجب أن تضاف إليه.

إن حائط الصواريخ لم يك مستهدفاً فى ذاته، ولكن كان الغرض منه تأمين المداخل الشرقية لمصر، وسدها أمام عبث وعربدة الطيران الإسرائيلى، وتأمين الحماية اللازمة، والغطاء

الجوى الضرورى للوحدات والتشكيلات البرية من قوات الجيشين الميدانيين الثانى والثالث .

ثم كان الهدف ومازال ، تأمين عبور القوات إلى الضفة الأخرى من القناة ، حيث بداية حرب تحرير سيناء ، واستعادتها حرة خالصة لباقى أجزاء وطنها الأم ، مصر الحبيبة .

إن الإعداد لهذه الخطوة، كان يلزمه إعداد مكثف لمكامن القوة ، واستنفارها يوم الحسم ، يوم يعود الحق إلى صاحبه ، وتعلو الحكمة القائلة " إن ما أخذ بالقوة ، لا يسترد بغير القوة " .

وسكنت المبادرة فى جانب مصر

انقضى يوم 18 يوليو سنة 1970 ، وانقضت معه شراسة وهمجية الطيران الإسرائيلى المعادى فقلت غاراته على المواقع المصرية بصورة ملحوظة ، وتحولت من عملية اكتساب صلف مغرور ، ونزهات يومية لا تنقطع ، تصب نار حقدها الأسود على مواقع القوات المصرية ، إلى عمليات سطو متقطعة ، وجس نبض متباعد لمدى ما بلغته قوات الدفاع الجوى المصرى من كفاءة وكثافة . وأصبح واضحاً أن طيران إسرائيل يخشى تعريض أصابعه العشرة لعمليات قضم حائط الصواريخ المصرى ، حتى لا يتحول نزيفه إلى تدفق متصل يؤدى إلى الانهيار .

لقد انعكست آثار هذه الحالة ، على التشكيلات الأرضية القتالية المصرية ، وبدأت هى الأخرى تصب جام ثأرها على المواقع الإسرائيلية ، ونشطت مدفعية الميدان المصرى فى تلقين فلول قوات العدو الويل والثبور . وهكذا عادت المبادرة إلى أيدى القوات المصرية بل لا أكون مغالياً إذا قلت : هكذا سكنت المبادرة على الجانب المصرى .

ولكن هل يعنى هذا أن مهام القتال قد تحققت ؟ وأن هذه الحرب قد انتهت ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ، تتلون بمدى الاعتقاد فى حركية أو سكونية الأشياء ، فمن يستقيم فكره ، ويفهم الحياة والواقع كما يسير ، ويعلم أن الحركة هى أساس الحياة ، يستطيع أن يجيب بأن القتال مازال محتدماً ، والمهام مازالت كثيرة ، ونهاية مرحلة لا تعنى عملياً إلا بداية أخرى ، والوصول إلى الهدف القريب ما هو إلا نقطة وثوب للوصول إلى الهدف البعيد .

حقاً ، بنى الحائط العظيم ، ولكن مواقعه يجب أن تزحف إلى الأمام أكثر ، فهناك مسافة مرعبة تقدر ببضع كيلو مترات، متروكة تحسباً لأى هجمات معادية بنيران مدافع الميدان أو القوات الأرضية الإسرائيلية . ولابد من قطع هذه المسافة ، ونصب قواعد صواريخ الدفاع الجوى على حافة القناة ، لتأمين عملية عبور القوات ، وبناء رءوس جسور الكبارى ، والتقدم بضع كيلو مترات ، لتأمين عملية الزحف حتى حدودنا ، وإرجاع سيناء كلها إلى أحضان أمها .

وإذا كان قد تم التغاضى عن شرط بناء الدشم الخرسانية مؤقتاً، لإتمام عملية الزحف نحو القناة ، فقد وضحت تجربة الأيام الماضية ، وبالذات بعد انطلاق عمليات الزحف ، أن هذا الشرط مازال يمثل هدفاً غالياً ، وعملاً هاماً لتأمين القوات ، وتقليل فقدان الأفراد والأطقم المدربة ، وتقليل خسائر المعدات والأسلحة المتقدمة من الصواريخ المضادة للطائرات . إن مقترحات الضابط الذى يحمل رتبة الرائد للرئيس جمال عبد الناصر ، بالتأكيد مازالت ترن فى أذن الرئيس ، والمؤكد حقاً أن كلنا فى إطار

الدفع الجوى ـ وبالذات وحدات الصواريخ المضادة للطائرات ـ نذكر وعد الرئيس وننتظره ، فمآسى القتال ، وخسارة فقد الأطقم والرجال ، وإن كانت ثمناً لحرية مصر وتقدم قواتها ، إلا أن صوراً مروعة لما حدث مازالت ترتسم فى مخيلة كل فرد فينا، فلن أنسى خفة روح هذا الرائد المسيحى المصرى وهو يحكى لنا كيف كان عرسه منذ أيام ، وكيف أن حركة الكمائن والتأهب للزحف قد شدته من أحضان عروسته ، ليقود وحدته متقدماً بها صوب القناة ، وأن وحشة أحضان عروسته له سوف يترجمها أهدافاً دقيقة يصيب بها من يتسببون فى إقلاقه وإقلاق بنى شعبه ، وكيف أن هذا الشاب الطويل الأسمر ذو الأصل الصعيدى أستشهد هو ومعظم الطاقم القتالى الذى كان يعمل تحت قيادته ، عندما دكت طائرات العدو الإسرائيلى موقعه بالقنابل زنة الألف رطل ، وأعتقد بحساب الفترة بين كلام الشهيد ويوم استشهاده أنه لم يتمكن من ملاقاة أحضان عروسته إلا مرة واحدة ، ثم بعد ذلك تزوج أرض مصر هو ورفاقه وإلى الأبد ، ولم يستطع أحد حتى الآن أن ينتزعه من جوف معدتها فى جوف موقعه .

ومن ناحية أخرى ، فالوحدات التى ذهبت للدراسة والتدريب على وحدات صواريخ البتشيورا قاربت على العودة ، ولابد لها أن تستبدل القوات السوفيتية التى شاركت بالقتال والتضحية والصمود ، وآن لها أن تدع الهم لأصحابه ، طالما قويت شوكتهم، وأصبحوا فى وضع مهيأ للاعتماد على النفس . فالمعركة مصرية بالأساس ، و يجب أن يتحمل أبناء مصر أحمالها الأساسية.

لكل هذه الاعتبارات مازال الاستمرار هو الحل ، والمعركة لم تنته بعد .

حقاً لقد انتقلت المبادرة إلى الجانب المصرى . ولن يؤمن وجودها واستقرارها إلا المزيد من الجهد والبذل والتضحية ، وهكذا اشتعلت جبهة قناة السويس نشاطاً وحركة ، فرغم قلة غارات طيران العدو ، إلا أن عمليات الاستنزاف أخذت فى التصاعد، وأخذ الاتجاه نحو بناء الدشم الخرسانية يدخل - ولأول مرة - مرحلة التقدم الفعلى ، بالأخص فى الدوائر التى تقع نحو الداخل أكثر ، فها هو جهد العمال والمهندسين والفنيين يأتى بنتائجه ، ومظلات الأمان تظلهم ، ودوافع وأهداف عملهم تشعلهم حماسة واتقاداً فى إنجاز ما يقدر لهم بسرعة ومتانة . وعليه فقد عادت لحرب الاستنزاف قوتها ، وكما قلت لقد سكنت المبادرة القتالية على الجانب المصرى .

مبادرة روجرز :

فى ميدان آخر ، خارج مسرح العمليات - وإن كان يرتبط به - كانت الأمور تدور بسرعة ونشاط هى الأخرى ، ولأن الميدانين مرتبطان بعضهما ببعض ، حيث تتأكد القاعدة الدراسية الآتية :

« إن الحرب والدبلوماسية هما وسيلتان لتنفيذ وتحقيق أهداف السياسة الخارجية للبلد الواحد» ، ولأن النشاط فى الحرب يتبعه نشاط فى الدبلوماسية ، والدبلوماسية النشطة تخدم العمل

العسكرى ، ولأن الحرب والدبلوماسية معاً يتحركان بمقدار قدرتهما على تحريك ميزان القوى العسكرية فى أى صراع لصالح أحد الأطراف ، كانت عجلة التحركات الدبلوماسية قد بدأت تدور وتسرع مع دوران عجلة العمليات العسكرية ، ودخولها رويداً رويداً فى اتجاه الصالح العام لمصر .

ففى 24 يونيو سنة 1970 ، قدم وليام روجوز (وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية) ، مبادرته المعروفة باسمه للبدء فى حل الصراع . حيث عرضها على هيئة خطاب موجه منه إلى السيد محمود رياض (وزير الخارجية المصرية) آنذاك . يدعو فيه مصر وإسرائيل إلى الالتزام بوقف إطلاق النار فترة محددة ، يتم خلالها التحضير لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 242 .

وغنى عن الذكر أن تقديم هذه المبادرة فى 24 يونيو سنة 1970، لم يشكل أى قيد على بدء خطة الزحف العظيم بالصواريخ، والتى بدأت ليلة 29 يونيو سنة 1970 ، أى بعد تقديم روجرز لمبادرته بخمسة أيام ، وكما أشرت مسبقاً ، فقد سافر الرئيس جمال عبد الناصر إلى موسكو مع بداية يوليو سنة 1970 ، وكان ضمن مهام زيارته التشاور حول هذه المبادرة .

لقد ترك الرئيس عبد الناصر نائبه أنور السادات ليقوم بأعمال الرئيس بالنيابة ، ولم يعلن عبد الناصر موقفه من قبول مبادرة روجرز أو رفضها ، وتوالت الأيام على تقديم روجرز لمبادرته ، وسارت الأمور فى ساحة القتال وكأن شيئاً لم يجد ، وشهدت

الجبهة المصرية بناء وتدعيم الحائط العظيم من صواريخ سام 1، سام 2 ذات الأطقم السوفيتية .

وضمن حسابات السادات لتدعيم موقعه ، قاس اتجاه الأمور وأيقن على ضوء رؤيته هذه أن كل التحركات توحى برفض مبادرة روجرز ، وبالفعل - وفى اجتماع على مستوى عال - أعلن السادات رفضه ، بل رفض مصر لهذه المبادرة . وعلى الرغم من أن السادات لم يتمسك بهذا المسلك الثورى أو الرافض حتى لمدة ستة شهور ، حيث أنه قدم مبادرته المعروفة لإسرائيل فى 4 فبراير سنة 1971 ، بعد أن آلت إليه الأمور ، بعد موت عبد الناصر فى 28 سبتمبر سنة 1970 ، إلا أن السادات لم يحسب الأمر إلا بمنظور تثبيت موقعه على كراسى السلطة فحسب ، لقد نحى منحى الكثيرين ممن يستعذبون الخلط بين التكتيك والاستراتيجية ، ويتصورون إنهاء الصراع بالضربة القاضية ، ويرون مواقع الرفض من السكون والثبات هى المواقع الحصنية ، دون أن يتعلموا أن السكون لا يحصن أحد .

وأن الجدية كل الجدية تكمن فى تثبيت القدم ، وتهيئة الأرض للقدم الأخرى ، والسير فى الاتجاه الصحيح بالخطى الثابتة الموزونة ، لو كان السادات من هؤلاء ، لكان من السهل أن تنتحل له الأعذار ، ولو لم يأخذ هذا المسلك الثورى الحاد ، لما جرؤنا - ولا جرؤ غيرنا - على الإشارة بأنه تحرك بوحى دعم موقعه على كراسى السلطة ، ورب قائل أن الأمر فى يوليو سنة 1970 كان تقديراً لموقف رآه السادات ، وأن الأمر فى 4 فبراير 1971 كان تقديراً لموقف آخر رآه .

وإن الاختلاف الذى يصل إلى حد التناقض بينهما اختلاف طبيعى ، ورغم كل هذا فإن ما يعنينا أن الرئيس عبد الناصر لم يعلن موقفه من مبادرة روجرز لمدة تعدت الأربعين يوماً ، خاضت فيها القوات المصرية أخطر المعارك فى تاريخها الحديث ، فلقد تم بناء حائط الصواريخ ، وتم إنجاز الضلع الأساسى من أضلاع نظام الدفاع الجوى المصرى .

وعاد جمال عبد الناصر من موسكو ، وعاد معه القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى . وكانت المبادرة قد سكنت على الجانب المصرى ، والحائط العظيم قد بنى وتدعم ، وعبر يوم 18 يوليو وهو أكثر فتوة وأشد عوداً .

ورغم ذلك كانت تبرز ثلاث مهام قتالية رئيسية ، كان لابد من تأمين الظروف لإنجازها ، وهذه يمكن تحديدها فيما يلى :

1 ـ ضرورة إتمام بناء الدشم الخراسانية ، لوقاية وتأمين أطقم وبطاريات صواريخ الدفاع الجوى المصرى .

2 ـ تهيئة الأوضاع لاستيعاب الأطقم الكثيرة والحديثة التى تدرس فى الاتحاد السوفيتى على صواريخ سام 3 ، ووضعها فعلياً فى جو الاشتباكات الميدانية . والتى قاربت على الوصول .

3 ـ ضرورة تقدم وحدات حائط الصواريخ لتخطى المسافة المرعية لتأمينها ضد عوامل القصف الأرضى ، أو ضد مدفعية الميدان المعادية ، والتقدم حتى حافة القناة لتأمين عملية عبور القوات فى مرحلة تالية ، وتأمين رءوس الجسور ، وتقدمها حتى

المسافة التى تمهد لاقتحام منطقة الممرات داخل سيناء باعتبارها منطقة موانع طبيعية .

وبالنظر إلى هذه المهام القتالية ، وإلى الظروف التى تتطلبها يمكن لنا أن نحكم على قبول أو رفض مبادرة روجرز ، ورغم أن الأمر يخرج عن إطار هذه الذكريات وهذه السطور ، إلا أن تتبع هذه المهام سيوضح إلى حد كبير عناصر هامة وكثيرة يجب وضعها فى الاعتبار عند تقييم قبول مبادرة روجرز . والتى تمت الموافقة عليها من قبل الرئيس جمال عبد الناصر ، وسرت بدءاً من ساعة الصفر ليوم الثامن من أغسطس سنة 1970 . وتم بموجبها قبول وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر تنتهى مع نهاية يوم 7 نوفمبر سنة 1970 .

المهام الثلاثة وتعقيداتها الفنية :

إن من يتتبع حديث الذكريات الذى سطرته فى الصفحات السابقة ويتبع معى عملية بناء نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى ، بعد أن فتحت بوابات مصر أمام الطيران المعادى ، سوف يخرج بنتيجة هامة ومحددة ، وهى تتلخص فى فكرة بسيطة أن كل عملية و نجاح يفضى لعملية أخرى و نجاح آخر بشرط وضوح الهدف ، والإصرار على استمرار المسيرة وتواصلها ، وبشرط فهم كل عملية فى ضوء المعطيات والظروف التى تحيط بها . فعلى سبيل المثال ، تحدد منذ البداية ضرورة بناء نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى ، تلعب فيه وحدات الصواريخ المضادة للطائرات والموجهة الدور الرئيسى .

وما كان يمكن تنفيذ هذه المهمة بضربة واحدة ، فكان لابد ـ فى البداية ـ من تأمين الدفاع الجوى للأهداف الحيوية والمراكز السكانية المأهولة لمنع ترويع الموطنين والمحافظة على ارتفاع معنويات الشعب ومواصلة قضيا الإنتاج . وما كان يمكن لوحدات الدفاع الجوى المصرية التى تبعثرت منذ الأسبوع الأخير من ديسمبر أن تفى بهذه المهمة ، فكان لابد للجوء إلى القوات السوفيتية للاضطلاع بتنفيذ هذه المهمة بتكامل دورى الطيران ووسائل الدفاع الجوى مع بعضها .

لقد كفلت هذه المهمة شرطا ضرورياً على المستوى العسكرى المحض ، وهو تأمين منطقة يمكن فيها إعادة ترتيب وتنظيم وتدريب قوات صواريخ الدفاع الجوى المصرية للتقدم نحو بناء حزام الأمان حول الوطن المصرى .

ورأينا أنه ما كان بمقدور ولا بإمكان القوات السوفيتية ذاتها العاملة داخل مصر أن تقوم بمهمة ثابتة ، وهى مهمة تأمين دائرة أوسع تمتد إلى حماية منطقة جبهة قناة السويس ، لأن التركيز على المهمة الثانية يعنى مجموعة من الترتيبات قد تضر بالمهمة الأولى . وهى أولى ، ولاشك بالرعاية من الثانية ، فتحمل العسكريين للقصف وللعربدة المعادية أهون بكثير من احتمال المدنيين وطاقة البلاد الاقتصادية والإنتاجية لهذا الهول المخيف والدمار الكثيف .

وإن تناثر دورية أو أخرى ـ حتى لو أخذ شكل الانتظام من الطائرات السوفيتية فوق منطقة الجبهة ـ لم يك بالضرورة لأهداف

الحمايۃ والتأمين ، فلا شك أن المعارك تحتاج معلومات كثيرة وتتعدد فيها الأهداف والمهام ، ولكن مهمۃ الحمايۃ لم تكن هى بالتأكيد المهمۃ الأولى فى منطقۃ قناة السويس .

ولو تتبعنا الشريط لوجدنا أن اختيار الضلع الشمالى للبلاد كان يمثل الخط الأسهل والذى يساير القدرات المتاحۃ لتنفيذ بناء نظام الدفاع الجوى رغم أنه لم يك الخط الأهم ، ولكنه حظى بالأولويۃ اتساقاً مع فن الممكن . ثم كان الأمر بعد ذلك يتطلب بناء الدشم الخرسانيۃ زحفاً نحو خط جبهۃ قناة السويس لتأمين عمليۃ بناء نظام الدفاع الجوى المتكامل على هذا الضلع من أضلاع المستطيل المصرى ، والذى يمثل خط الصدام الأساسى مع العدو الإسرائيلى ، واتضح لنا جميعاً أنه رغم التضحيات الهائلۃ للبنائين المصريين لم يتمكن أحد من تنفيذ هذه المهمۃ .

واعتماداً على السريۃ المطلقۃ فى الإعداد والتحركات ، واعتماداً على الإخفاء والتمويه الجيد للمواقع ظاهرياً وراداريا ، وتطويراً لقدرات السلاح ، وإدخال عوامل جديدة تضاف إلى قوة سلاح الصواريخ ، استغلت المناورة بالتحركات ، لتنفيذ عمليات الكمائن ، واعتماداً على التدريب الشاق ، والمران المتواتر على عمليات الفك والتركيب والتحركات ، نجحت عمليات الكمائن . ومهدت الأرض لبدء الزحف العظيم نحو خط قناة السويس .

ولأن الحائط العظيم قام وارتفع بالقرب من جبهۃ القناة ، ولأن اتساع ثغراته أو تقويض بنيانه يمثل خسارة لا توصف ، تطورت

المهمة الأولى لاتساع دائرة الأمان وغلق بوابات مصر التى فتحت فى ديسمبر المشئوم ، وعليه تقدمت بطاريات صواريخ سام 3 بأطقمها السوفيتية لدعم هذا النظام وللاضطلاع بالمشاركة فى كفالة نجاح المهمة الأساسية للدفاع الجوى المصرى فى هذا الوقت .

وجاء يوم 18 يوليو سنة 1970 ، ليضيف تطوراً نوعياً ملحوظاً على عملية بناء نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى ، ولكنه على الجانب الآخر يشكل الإطار النهائى ، والحد الأقصى لعملية البناء هذه فى ظل المعطيات والظروف القائمة ، فالزحف التبادلى الذى بدأ من تحت مظلة الحماية السوفيتية لمنطقة القاهرة ما كان يمكنه أن يتقدم خطوة واحدة دون تدخل معطيات جديدة ، وظروف أخرى .

ورب سائل يقول : لقد أشرت فيما سبق من حكايتك أنك كنت فى موقع على حافة القناة هل يستقيم هذا المنطق مع ما تقول به الآن ؟

والإجابة بسيطة للغاية ، فتقدم وحدة من وحدات الصواريخ المضادة للطائرات يمكن أن يتم وسط معطيات الكمين ، أى يقوم على سرية التحرك وسرعته وعلى تشديد عمليات الإخفاء والتمويه شكلياً وراداريا . وعلى أساس التغيير السريع للموقع بعد الاشتباك منه .. وهكذا ـ وإذا جاز توفير هذه الظروف ، وتأمين هذه الفروض لموقع واحد أو اثنين ـ فلا يمكن تأمينها لخط ممتد ومتكامل ، يفترض فيه شيئاً من الثبات الذى يستتبعه بعض الظهور والانكشاف .

إن الشرط الضرورى لزحف هذه الوحدات وتقدمها حتى قرب حافة القناة ، كان يمكن فى شل فاعلية وسائل النيران الأرضية والميدانية للقوات الإسرائيلية ، فلاشك أن حصر الصراع بين الطيران المعادى ووسائل الدفاع الجوى المصرية أسهل وأجدى ، من إدخال عناصر قوة أخرى للعدو ، وتعديل أطراف الصراع ليصير الطيران المعادى ومدفعية الميدان المعادية وباقى وسائل النيران الأرضية ، وأعمال الكوماندز والتسلل والتخريب الإسرائيلية فى مواجهة وسائل الدفاع الجوى المصرى فقط ، خاصة أن مدفعية الميدان المصرية ووسائل النيران الأرضية لا يمكن لها تأمين مواقع الصواريخ تأميناً مؤثراً وفعالاً طول الوقت ليلاً ونهاراً .

إن تحقيق شرط شل فاعلية وسائل النيران الأرضية والميدانية الإسرائيلية يمكن تحقيقه بإحدى وسيلتين أو بهما معاً ، إما وقف القتال ، وإما بناء الدشم الخرسانية ، هذا مع استبعاد إمكانية القضاء المبرم على هذه الوسائل المعادية للنيران .

مما تقدم يتضح أن مهمة زحف وتقدم حائط الصواريخ حتى حافة القناة كان يستلزم وقفاً للنيران ، حتى تبنى الدشم وتؤمن المواقع تأميناً كبيراً يقلل من الخسائر ويحصرها فى معدلات معقولة ومقبولة ، إذن فشرط المزيد من التقدم ، هو توقف مؤقت لتثبيت القدم ، وبنظرة فاحصة إلى الأشياء ، وعودة إلى حديث الذكريات ، ورجاء ومناشدة كل من يهتم بأن يستعيد معلومات هذه الفترة ويمحصها ، نرى الآتى :

مع اقتراب يوم الثامن من أغسطس سنة 1970 ، وهو اليوم المحدد لقبول مبادرة روجرز وقبول إطلاق النار ، جرت عملية تحضير

هامة وكبيرة داخل وحدات الدفاع الجوى لم تشهد لها هذه القوات مثيلاً من قبل . وللوقوف على أبعاد عملية التحضيرات هذه علينا أن نتصور المهمة ، ونتصور حجمها لنستطيع أن نقدر ونثمن ما تم إنجازه . فالمهمة كانت تتلخص فى ضرورة تحريك كل - أو معظم - وحدات نظام الدفاع الجوى على القناة نحو الأمام فى فترة تنحصر بعد حلول مساء 7 أغسطس وحتى نهاية هذا اليوم أى قبيل الثانية عشر ليلاً ، لقد كان يلزم هذه المهمة حشد أسطول كبير من المركبات وعربات النقل الثقيلة لتحريك هذه القواعد من مواقعها إلى مواقع أخرى .

إن معدة واحدة كالونش - وهى عنصر أساسى فى عمليات الفك والتركيب - كادت أن تسبب أزمة خطيرة فى تلك الليلة، فقد كان المعمول به دائماً أن يغطى الونش الواحد احتياجات أكثر من وحدة وأكثر من موقع فى توقيت وأماكن متقاربة، ولكن نظراً لضيق زمن هذه الليلة كان يلزم حشد كمية كبيرة من الأوناش ، لم تكن لدى قوات الدفاع الجوى كلها ، بل ولم يك لدى القوات المسلحة كلها ، مما حتم ضرورة الاستعانة بشركات القطاع العام ومؤسسات الدولة الأخرى ، ومما شكل تبعاً لذلك عملية ارتباك واسعة النطاق أثناء عمليات الفك والتركيب ، حيث وجود عمال الأوناش غير المدربين على مثل هذه الأعمال ، بما تحتاجه من قدرة عالية على المناورة والإتقان فى تحريك هذه المعدات الحساسة والباهظة الأثـمان .

وما إن حل مساء يوم السابع من أغسطس سنة 1970 ، وتحت ستار كثيف صبته مدفعية الميدان المصرية عبر قناة السويس،

على رأس المواقع الإسرائيلية فى الضفة الشرقية من القناة ، تقدمت قوات الدفاع الجوى المصرى لتزحف بوحداتها الصاروخية إلى موقع أكثر تقدماً من حافة القناة .

وفى سباق مع الزمن ، وبتحدى واضح لأى قصور فى المعدات والأجهزة المساعدة ، وإعمالاً لكل تجارب ودروس الأيام الماضية فى عمليات الفك والتحرك والتركيب، جاءت ساعة الصفر ، وهى الدقيقة الأخيرة من يوم 7/8/1970 لتسجل تغيراً فعلياً فى مواقع وترتيب وحدات الصواريخ المضادة للطائرات ضمن نظام الدفاع الجوى المتكامل على خط قناة السويس ، لقد شهدت اللحظة الأولى من يوم 8/8/1970 يوم وقف النار ، حائطاً جديداً تنتظم لبناته بطريقة أكثر إحكاماً وأشد تماسكاً وأجدى نفعاً وفاعلية ، لقد فتحت إسرائيل عيونها مع إشراقة 8/8/1970 لتفاجأ بهول ما رأت ، ولتضج بالشكوى والنواح تارة ، وبالكذب والبهتان تارة أخرى ، حيث تدعى بأن القوات المصرية حركت صواريخها بعد قبول مبادرة روجرز .

وبالرغم من بعد هذا الادعاء عن الحقيقة ، إلا أن إسرائيل لم تملك إزاء الموقف الجديد غير الشكوى والنواح ، فتعلمت ولأول مرة أن تقدم عرائض الاحتجاج تارة لسكرتير عام الأمم المتحدة ، وتارة لوزير خارجية أمريكا . ولم تقدر أو تستطيع أن تقوم بتصحيح ما تراه خاطئاً ومحل شكاية ، رغم أنها عودتنا وعودت الجميع أنها القادرة دوماً على فعل ما يحلو لها ، طالما تستطيع الفعل ، وطالما يميل ميزان القوة فى اتجاهها .

وجاء يوم الثامن من أغسطس 1970 ليطلق العنان للمهمة الأولى كى تنجز وتقوم . فبكل طاقات الفعل المختزن لدى عمال مصر، وبروح الثأر لشهدائهم فى محاولاتهم المستمرة والمتكررة لبناء هذه الدشم الخرسانية ، جرى العمل على قدم وساق لتنفيذ هذه المهمة الأمل . ولا أنسى المساعدات التى قدمتها ألمانيا الديمقراطية فى تلك الآونة ، حيث ساعدت فى تجهيز ألواح الخرسانة المسلحة المقاومة للضغط والانفجار مما يسر عمليات البناء ، وجعلها تحتاج لزمن قليل لا يقاس بما كانت تأخذه ، لقد ساعدت هذه الألواح المعدة سلفاً لا على اختصار الوقت فحسب ، بل على التقدم فى عمليات البناء على أساس الثقة وعدم الخوف من القصف الغادر الذى يعصف بالمجهودات الشاقة السابقة فى لحظة واحدة .

إن ظروف وقف إطلاق النار هيأت الأجواء ، للتقدم بهذا العمل بمعدلات قياسية . ولن أنسى ما حييت أن الوحدات المصرية التى عادت بعد إتمام تدريباتها فى أوائل سبتمبر سنة 1970 قد تمكنت من أن يدخل بعضها دشماً خرسانية جاهزة ومعدة ، ومصممة لمقاومة انفجارات قنابل الألف رطل المشئومة .

وهكذا ، فإن حلول الثامن من أغسطس 1970 ، الذى حمل بدء وقف إطلاق النار ، لم يحمل وقف العمل من أجل إنجاز المهام السابقة ، واستمر تطوير العمل العسكرى عموماً استعداداً ليوم لا ريب فيه ، يوم الاندفاع والعبور نحو تحرير سيناء وإرجاعها إلى أحضان مصر الأم .

فما إن تواردت الأطقم الدارسة فى الاتحاد السوفيتى ، إلا وتم وضعها وتنظيمها ضمن النظام المتكامل للدفاع الجوى ، وأخذت فترة كافية للتدريبات الميدانية العملية ، ونقل الخبرة القتالية التى جرت إليها ، وقد تم حشد هذه القوات للعب دوراً من اثنين ، الأول : هو تكميل أى نقص فى هذا النظام وسد ثغراته، والثانى: هو تحقيق سياسة الإحلال لمواقع الأطقم السوفيتية الموجودة ضمن وحدات هذا النظام . وتم بهذا دخول القوات المصرية – ولأول مرة ـ ميدان استخدام صاروخ البتشيورا المضاد للطائرات " سام 3 " ، هذا الصاروخ الذى يتمتع بخصائص متعددة للاشتباك مع الأهداف المنخفضة .

إن الفترة التى تلت بداية وقف إطلاق النار منذ صباح الثامن من أغسطس 1970 شهدت تكثيفاً حاداً لمجموعة من الأعمال القتالية والمهام الفنية ، يمكن عرض خطوطها العامة فيما يلى:

1 – جرت عملية إحلال واستعواض أطقم بأخرى ومعدات بأخرى، وذلك لإجراء أعمال العمرة والإصلاحات الطويلة والكبيرة . خاصة بعد إجهاد المعدات وإنجازها لمعدلات تشغيل فاقت كل تصور دراسى أو عملى .

إن أهمية هذه العملية لا ترتبط فقد بتجديد المحطات والمعدات بعد فترة إنهاك فعلى ، ولكنها ترتبط أيضاً بضرورة الاهتمام بالأطقم القتالية والأفراد ، فمن ناحية يجب إعطاؤهم بعض الراحة ، إثر مجهودات تعد بكل المعايير مجهودات خارقة ، ومن ناحية ثانية يجب إخضاعهم لمجموعة من التدريبات والدورات

المدرسية لهضم ما قابلوه أثناء أعمالهم القتالية والميدانية ، ولاستخلاص الدروس والعبر لتعميمها استعداداً لمجهودات محتملة لن تقل ظروفها صعوبة وتعقد .

ومن ناحية ثالثة أهمية الموائمة بين المعدات والمهام والأطقم على ضوء تجارب الميدان ذاتها .

2ـ تم تعميق التدريبات والحصص التعليمية على دروس جديدة وعوامل حديثة ظهرت فى الميدان لأول مرة ، كاستخدام إسرائيل لطائرات الفانتوم ، فكان يجب دراسة خصائصها وقدراتها الفعلية ، وأشكالها ، وسرعاتها ، وإمكاناتها فى المناورة إلى غير ذلك ، كذلك دخلت عملية التدريب على تلافى آثار الصاروخ شرايك الذى يتجه على الشعاع الرادارى لمحطة الصواريخ مرحلة جديدة وعميقة . وهذه وحدها قصة تطول، فلقد حضرت إلى مصر مجموعة من الخبراء الفنيين الروس لتعميق خبرة التعامل مع هذا الصاروخ ، وأخذت تجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لتلقين الأطقم والوحدات الدراسية كيفية التعامل مع هذا النوع من الصواريخ نظرياً وعملياً ، وأصبح التدريب على هذا العمل واجباً يومياً ثابتاً .

كذلك كثفت عملية التدريب على الاشتباك مع القنابل التلفزيونية ، وعلى التعامل مع صنوف وأنظمة التداخل والتشويش التى أقدم العدو الإسرائيلى على استخدامها بكثافة وتنوع أثناء فترة الاشتباكات .

وإذا كان ما سبق يوضح أن 8/8/1970 لم يعق عملية تنفيذ المهام والاستمرار فيها ، بل وتهيئته لظروف أحسن ، إلا أن هذا اليوم مثل معنى آخر ، فلقد دخل يوم 7/8/1970 التاريخ باعتباره يوم نهاية حرب الاستنزاف ، وهكذا جاء صباح الثامن من أغسطس سنة 1970 ليدخل زمن ما بعد انتهاء حرب الاستنزاف ، وليحدد نهاية هذه الحرب التى بدأت فى نهاية سبتمبر سنة 1968 .

إن القوات المصرية عندما أتمت اجتياز مرحلة الصمود فى نهاية سنة 1967 ، ودخلت مرحلة الردع مع بداية 1968 ، قد تمكنت بامتلاك المبادرة من شن حرب لاستنزاف القوات الإسرائيلية شرق قناة السويس . وذلك مع بداية الربع الأخير لسنة 1968 . إن هذه المبادرة ـ رغم أنها انتقلت إلى أيدى القوات الإسرائيلية فى بعض الفترات ـ إلا أن سير العمليات القتالية ، وتطور حرب الاستنزاف قد مكن القوات المصرية من استعادة هذه المبادرة أخيراً ، على الرغم من دخول الطيران الإسرائيلى ساحة المعركة ، بل والإلقاء بثقل الطيران المعادى كله فى المعركة .

لقد تمكنت القوات المسلحة المصرية ، على مدى ما يقرب من عامين فى الفترة ما بين سبتمبر 1968 إلى أغسطس 1970 ، من أن تدير حرب استنزاف حقيقية إزاء القوات الإسرائيلية . وكما كتب اللواء حسن البدرى فى دراسته الهامة والجيدة عن حرب الاستنزاف ، والتى نشرت فى عدد أكتوبر سنة 1978 من مجلة السياسة الدولية التى تصدر عن مؤسسة الأهرام .. « من الواضح أن غاية النظرية العسكرية المصرية فى إدارة حرب الاستنزاف

هو توريط إسرائيل فى حرب نشطة طويلة المدى ، تتضمن أشكالاً متنوعة من الصراع المسلح ، تعلو فوق مستوى الحرب الباردة ، وتهبط عن مستوى الحرب الشاملة تبعاً للفرص السا نحة والظروف السائدة فى المسرح » .

ويستطرد ، يقول : " إن حرب الاستنزاف هى أول حرب بين العرب وإسرائيل ، اضطرت فيها إسرائيل لتعبئة قواتها العامة لمدد طويلة نسبياً ، مما ترك آثاره السيئة على الناحية الاقتصادية والمعنوية فى المجتمع الإسرائيلى على نحو لم يسبق له مثيل ، فلقد اضطرت إسرائيل إلى أن تعبئ ما يزيد على 20 لواء من جيشها ، وهى نسبة تعبئة تزيد على 50% من إجمالى وعاء التعبئة البرية الإسرائيلية ، كما اضطرت إلى تعبئة كل سلاحها الجوى أى بنسبة 100% من وعاء التعبئة فيه ، هذا وقد خفضت إسرائيل التعبئة فى سنة 1971 إلى من 10- 15% من قواتها البرية ، كما هبطت التعبئة فى القوات الجوية هبوطاً حاداً .

لقد تسببت حرب الاستنزاف ، ولأول مرة فى تاريخ العسكرية الإسرائيلية ، أن تجمد قواتها فى خنادق ثابتة ، فغيرت بذلك من شكل و أسلوب التكتيك الميدانى الإسرائيلى الذى اعتمد دائماً على المرونة العالية وخفة الحركة تخطيطاً وتنفيذاً .

بينما حملت نفس الحرب على المصرى الفرص الحقيقية للتدريب الواقعى ، واكتساب الخبرات القتالية من الميدان ، والتعرف على العدو وأساليبه تعرفاً ملموساً ، وأفرزت الكوادر

العسكرية المصرية من القادة والضباط والجنود الذين يمتلكون فرص ملاقاة العدو، والاستفادة العصرية من الوسائل والأساليب القتالية الحديثة " .

" أما عن الخسائر التى تكبدتها إسرائيل فى هذه الحرب ، فكما تقول المجلة العسكرية للجيش الإسرائيلى : أن القوات الإسرائيلية فقدت خلال حرب الاستنزاف أربعين طياراً ، وأن خسائر القوات البرية بلغت 827 قتيلاً ، 3141 جريحاً وأسيراً ، وأما خسائر المعدات الإسرائيلية فقد بلغت 27 طائرة ومدمرة ، وسبعة زوارق وسفن إنزال ونقل ، 119 مجنزرة ، 72 دبابة ، 81 مدفع ميدان وهاون ، أما عن التكلفة الاقتصادية التى تخص إسرائيل فى حرب الاستنزاف فقد زاد العبءالاقتصادى على كل فرد فى إسرائيل بنحو 300% ، إذ بلغ متوسط ما تحمله كل فرد إسرئيلى 417 دولار خلال سنة 1970 بينما كان هذا المتوسط 138 دولار فى سنة 1966 " .

ومع ذلك هناك تقديرات أخرى تبين زيادة حجم الخسارة الإسرائيلية ففى عدد 16 نوفمبر 1970 ذكرت مجلة « أفيشن ويك » بأن خسائر إسرائيل بلغت 51 طائرة منها 17 طائرة دمرت تدميراً تاماً ، 34 طائرة أصيبت "[11] .

وعن التكلفة الاقتصادية يورد اللواء حسن البدرى ما يلى : « أشار موسى ديان فى محاضرته التى ألقاها أمام كلية القادة

(11) أحمد حمروش : عبد الناصر لم يحاصر منظمة التحرير الفلسطينية – القاهرة – الأهرام - الاقتصادى بتاريخ 7 مارس 1983 .

والأركان فى إسرائيل بتاريخ 17 أغسطس 1972 ، أن تكاليف الإنفاق العسكرية الإسرائيلى فى الأراضى المحتلة منذ نهاية يونيو 1967 وحتى مبادرة روجرز فى 8 أغسطس 1970 قد بلغت 1364 مليون ليرة إسرائيلية أى حوالى 320 مليون دولار أمريكى، انفق أكثر من 60% منها لمواجهة آثار حرب الاستنزاف. إن معدل الإنفاق العسكرى الإسرائيلى ارتفع سنة 1970 بمعدل 81% عن سنة 1969 بما تجاوز معدل تزايد موارد إسرائيل المتاحة والتى لم تزد بين السنيتين إلا بمقدار 13,7%» .

إن حرب الاستنزاف حملت على الجانب الآخر وبالذات على الجبهة الشرقية « السورية الفلسطينية اللبنانية « تزايداً فى النشاط العسكرى « فلقد مارست المقاومة الفلسطينية فى فترة حرب الاستنزاف المصرية عدداً من العمليات ، كان أبرزها معركة الكرامة فى 21 مارس سنة 1968 ، وقامت بـ 4948 حادثة قتال مع العدو الإسرائيلى منها 996 داخل إسرائيل ، 3425 من الأردن ، 346 من سوريا ، 181 من لبنان» [12] .

وهذه بعض من نتائج حرب الاستنزاف ، كما جاءت فى التقديرات الإسرائيلية والغربية ، وهى غالباً تقديرات منحازة وتخفى الحقائق . ولا تظهر منها إلا ما يتماشى مع ما تريده ، ومما يذكر أن هذه الحرب قد وصلت إلى نهايتها الفعلية بقبول وقف إطلاق النار نتيجة لمبادرة روجرز فى الثامن من أغسطس سنة 1970 .

---

(12) اللواء الركن حسن البدرى – مرجع سابق .

وبالرغم من أن حلول هذا التاريخ ، لم يوقف عمليات الاستعداد والتحضير لتطوير مواقف ومواقع القوات المسلحة المصرية ، ودعم حائط الصواريخ باتساع عدد وحداته وتعميق عمليات التدريب وهضم الخبرة والتجارب السابقة ، واستيعاب الأطقم الحديثة المصرية التى عادت من دراستها فى الاتحاد السوفيتى ، إلا أن هناك مجموعة من العوامل الأخرى تمكنت من الواقع المصرى بصفة عامة ، وسطرت بالثامن من أغسطس 1970 النهاية الفعلية لحرب الاستنزاف المصرية ، التى أديرت لمدة عامين ضد قوات العدو المحتملة لجزء من أرض الوطن فى سيناء الأسيرة .

***

نهاية الاستنزاف التلازم والسبب :

ذكرنا فى الصفحات السابقة كيف طورت القوات المسلحة المصرية من أوضاعها بدءاً من مرحلة الصمود عقب هزيمة 1967 ، مروراً بمرحلة الردع ، دخولاً فى شن حرب لاستنزاف العدو إدارتها على ما يقرب من عامين . أضافت بها إلى قوتها الكثير ، وخرجت منها وهى مالكة لزمام المبادرة قادرة على توسيع مسرح العمليات الثابت ومواصلة الاستعدادات لحرب التحرير لاستعادة سيناء الأسيرة . ولن أنهى هذه الصفحات دون تتبع تطورات هذا الجهد ، بصفة خاصة فى مجال بناء النظام المتكامل للدفاع الجوى المصرى .

ولكن حدث تلازم غريب بين قبول مبادرة روجرز ووقف إطلاق النار المرتبط بها من جهة ، وبين النهاية الفعلية لحرب الاستنزاف،

بل بينها وبين دخول العمليات فى مرحلة سكون امتدت حتى يوم اجتياح القوات المسلحة لكثير من المواقع ، وعبورها قناة السويس فى 6 أكتوبر سنة 1973 . وعلى الرغم من تواصل الجهود وتطور القدرات الذى انعكس فى إدارة هذه الحرب الوطنية بكل الاقتدار ، وبكل الحماسة والشجاعة والإقدام ، وعلى الرغم من كل ما صاحب عملية العبور المجيدة من آيات البطولة ونضج الخبرة ، وبروز رقى فنون القتال لدى أفرع القوات المسلحة المصرية جميعها ، إلا أن نتائج هذه الحرب الوطنية المجيدة وحصادها جاء بأقل مما تعطيه بذورها ، والجهد الخارق الذى صاحب كل العمليات الخاصة بها بدءاً من البذر ورعاية الجنين ، وانتهاءً باشتداد عودها وكبر سنابلها ، والأمل المقدر لما تحمله من محصول وفير .

ففجأة فرض على عودها اليانع أن يوقف نموه ، وأن يتحدد مجاله ، ولا غرو إذن إذا كان الحصاد لا يتواصل مع عمليات البذر والرعاية لهذا النبت العظيم ، وهذه الشجرة الباسقة القوية، شجرة الجهد والخبرة والتطور داخل القوات المسلحة المصرية .

لقد حملت ملامح هذه الصورة فى تتابعها ، حتى الإنحناء أمام قبر الجندى المجهول الإسرائيلى الذى أذاق أبناء العروبة مدنييهم وعسكرييهم كل مرارة حقده الأسود عليهم ، واجترائه على ضرب مصالحهم ، واغتصاب حقهم زوراً وسحتاً وبهتاناً ، حملت البعض على الاعتقاد والربط بين تلازم انتهاء الاستنزاف وقبول مبادرة روجرز ، وبين ما آلت إليه الحالة المؤسفة التى أصبحنا فيها.

فهل حقاً هذا التلازم هو تلازم بين سبب ونتيجة ؟ وهل طريق الخطوة خطوة بدأ من هذه الخطوة ؟

إننى لا أدعى منذ البداية أنه يمكن إتفاق الجميع على نتيجة حول هذه القضية ، ولكن ما يجب توضيحه هى تلك العوامل التى أشرت إليها ، ولم أدخل فيها حتى الآن . وتتبع أغوارها لدينا ولدى العدو لعلها تلقى أضواء تساعد كل من يريد أن يصل إلى الحقيقة إلى بغيته . فمع اشتداد وطأة حرب الاستنزاف على قوات العدو ، وتطور عمليات عبور القوات المصرية لقناة السويس حتى وصلت إلى عبور كتيبة كاملة بمعداتها . ومع تصاعد قصف مدفعية الميدان المصرية لمواقع العدو على الجبهة الشرقية لقناة السويس .

وقبل إقدام إسرائيل على الإلقاء بقوة سلاح طيرانها فى المعركة ، صرحت جولدا مائير (رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك) فى 13 نوفمبر سنة 1969 « أنها لا ترى هناك فرصة للسلام ، مادام عبد الناصر فى الحكم» [13] . وعادت جولدا مائير لتؤكد نفس هذه المعانى فى فبراير سنة 1970 ، حيث قالت : « إن الهدف السياسى الاستراتيجى لإسرائيل هو إسقاط جمال عبد الناصر ، عسى أن يكون هناك من هو أكثر استعداداً للتفاوض مع إسرائيل منه ، فلابد أن أى أنسان غيره سوف يكون مختلفاً عنه» [14] .

ويعلل عاموس بيرلمتر (أستاذ العلوم السياسية الإسرائيلى بجامعة هارفارد الأمريكية) هذا التطور فى الهدف السياسى

(13) اللواء حسن البدرى - مرجع سابق .
(14) اللواء حسن البدرى - مرجع سابق .

الاستراتيجى الإسرائيلى فى دراسة له نشرتها صحيفة « معاريف الإسرائيلية » آنذاك تحت عنوان « العدو كان ومازال ناصر» ، أورد فيه تحليلاً سياسياً شاملاً للقوات المصرية ، فعرض لجميع إمكانات التحرك المتاحة أمام مصر ، ابتداءً من احتمال عدم محاربة إسرائيل والحفاظ على الوضع القائم ـ وهو ما استبعده فوراً ـ وحتى احتمال تدمير إسرائيل كلية .. وتناول بالتحليل فرص مصر فى كسب تأييد ومساندة الأصدقاء ، والضغط على الأعداء فى كل من هذه الاحتمالات ، وانتهى بيرلمتر فى تحليله إلى استنتاج أن هذه الإمكانات المتاحة أمام مصر هى الأكثر تنوعاً ، ومن ثم فهى الأكبر حجماً وقدرة على التأثير فى الموقت ، من تلك التى يمتلكها أى من أطراف أزمة الشرق الأوسط .

وبالتالى ـ وعلى حد تعبيره – يقول : « إن الإمكانات المتاحة لمصر موجهة نحو مجهود مركز لتحقيق أعز القيم السياسية لدى عبد الناصر ، وهى ضرب إسرائيل « ، ويستطرد : « إن واجبنا المقدس الآن هو تشجيع نظام حكم آخر فى مصر ، ولنجعل من هذا محور استراتيجيتنا العليا . فنخصص كل المفاوضات ، وكل سياساتنا تجاه الدول العربية والأجنبية ، وتجاه فلسطين والأمم المتحدة ، وكل ميزانيتنا العسكرية ، وكل جهودنا لخلق صورة عنا ، وعن أعدائنا فى العالم ، كل ذلك يجب توجيهه من أجل زعزعة الثقة فى النظام المصرى ، بصفته النظام العربى الوحيد القادر على أن يهيئ لنفسه أحسن الفرص لمواجهتنا ،

علينا الآن تحقيق ما لم نحققه عام 1967 ، لأن ناصر هو الزعيم الوحيد الموثوق فيه لدى العرب والشرق والغرب على السواء»[15].

وهكذا يتضح وضوح الهدف الاستراتيجى لقادة إسرائيل . وعلى الرغم من قبول جمال عبد الناصر لمبادرة روجرز وموافقته على وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر تنتهى فى 7 نوفمبر سنة 1970 .

إلا أن عبد الناصر لم يعول كثيراً على هذه المبادرة فقد قال: « إننى لا أعتقد أن لهذه المبادرة أى نصيب من النجاح وفرصتها فى ذلك لا تتعدى نصف %»[16] . والأهم من الأقوال عموماً هى الأفعال، فلقد استمر خط التواصل فى دعم وتطوير القوات المسلحة فى مجراه وفى سرعته الطبيعية .

وفى منتصف سبتمبر 1970 ، قام النظام الأردنى بتدبير مذبحة رهيبة لقوات وأنظمة منظمة التحرير الفلسطينية ، المستقرة والكبيرة هناك ، وأقدم على إحداث أكبر تصفية للشعب الفلسطينى تمت على أيدى غير إسرائيلية حتى حينه .

وتحرك جمال عبد الناصر بفعل وضوح استراتيجى حول طبيعة الصراع مع الصهيونية والامبريالية ، ووضوح قوى الأعداء لديه ، وقوى الأصدقاء أى تحديد القوى المعاكسة ، وقوى الحق العربى ، ودعا زعماء العرب لعقد مؤتمر قمة عاجل لوقف المذبحة وخفض حدة التناقضات الثانوية ، كى لا تتحول إلى

(15) اللواء حسن البدرى مرجع سابق .

(16) أحمد حمروش : مرجع سابق .

تناقضات عدائية تخرج الجميع عن جادة الصواب فى تحديد العداء الحقيقى والموضوعى لكل من الامبريالية والصهيونية، ونجح عبد الناصر فى مسعاه إلى حد ، وأوقف المذبحة ، وفى اليوم الأخير لمؤتمر القمة الطارئ هذا ، رحل جمال عبد الناصر ، وعلى الرغم مما يشاع حول رحيله ، وعن قصة تروى عن إصابة عضلة قلبه بشلل بطئ ومتعمد من قبل أحد معالجيه ، وبالرغم من اختفاء مركز العناية الطبية المركزية والمنتقل من موكبه لحظة وقوعه فى الأزمة ، وعلى الرغم من تصريح لأحد المسئولين فى البحرية الأمريكية عن حدث سيهتز له العالم فى غضون الساعات القادمة ! ، ولم يك هناك من أحداث غير رحيل جمال عبد الناصر ، وعلى الرغم من كل ذلك ، فلقد رحل جمال عبد الناصر ، وجاء رحيله فى اتجاه رغبة أكيدة ، وتصريحات مفضوحة للدوائر الإسرائيلية والامبريالية . وجاء رحيله قبل أن تنقضى فترة وقف إطلاق المقدرة بثلاثة أشهر .

ولأن النظام الوطنى المصرى المعادى للامبريالية وإسرائيل لم يك كله ، هذا الزعيم الوطنى البارز جمال عبد الناصر فحسب . ولكن هو جماع عدة مؤسسات وطنية تبرز على رأسها القوات المسلحة المصرية ، ولأن القرار السياسى هو محصلة لحركة وفاعلية القوى السياسية المتعددة داخل البلد المحدد .

ولأن الحركة الوطنية والديمقراطية للشعب المصرى كانت فى حالة مد عارم ، تحركه الرغبة والمصلحة فى كسر إسرائيل وتحرير الأرض المغتصبة ، وعبرت عنه فى سلسلة من الحلقات

والهبات التلقائية والمنظمة ، كانت أبرزها انتفاضة 9، 10 يونيو 1967 العملاقة الجبارة ، وأحداث العمال والطلبة فى فبراير ونوفمبر سنة 1968 ، وجنازة الشهيد عبد المنعم رياض فى 10 مارس 1969 ، وهبة الجماهير العريضة فى جنازة الزعيم الوطنى الخالد جمال عبد الناصر فى أول أكتوبر سنة 1970 ، ثم مظاهرات العمال والطلبة على امتداد أعوام 1971 ، 1972 ، 1973. ولأن كل هذه عوامل فاعلة ، استمرت معركة تطوير القوات المسلحة ، واستمرت عملية بناء الحائط العظيم ، بل النظام المتكامل للدفاع الجوى عن مصر كلها ، تسير على قدم وساق .

وعلى الرغم من التغيير الذى حدث فى القيادة السياسية للبلاد ، وتزايد وتنامى دور أنور السادات فى القرار السياسى والعسكرى من 15 مايو سنة 1971 ، بما يمثله من قوى سياسية واجتماعية ذات توجه مخالف عن توجهات قيادة البلاد إبان حرب الاستنزاف . وبالرغم من تفكيك الحلف المعادى للإمبريالية والصهيونية ، وإذكاء روح العداء للسوفيت ، وطرد مستشاريهم وخبرائهم من القوات المسلحة المصرية ، فقد كانت المحصلة لكل هذه العوامل استمرار وتطوير للقوات المسلحة وسط جو الصمت والسكون ، حيث صمتت المدافع لحين ، وانتهى الاستنزاف ، ولكن لم تنته عمليات التطوير والبناء .

الحائط العظيم يكتمل :

بينا فيما سبق أن يوم الثامن من أغسطس سنة 1970 ، وإن كان يحدد نهاية حرب الاستنزاف ، إلا أنه لم يك يحمل نفس

المعنى لعملية بناء الحائط العظيم ، بل لعملية بناء نظام متكامل للدفاع الجوى المصرى على أضلاع المستطيل المصرى فى اتجاه الخطر الإسرائيلى .

فما هى إلا أيام انقضت ، حتى عادت القوات والأطقم المصرية التى أتمت تدريباتها داخل الاتحاد السوفيتى ، وأخذت تحل مكان وتستبدل مواقع القوات والأطقم السوفيتية الأمامية لتصير هذه المواقع والمعدات فى أيدى الأطقم المصرية تماماً . ولتسجيل بداية عمل المصريين على أنظمة الصواريخ من طراز سام 3 ، التى أضحت بدورها تشكل دوراً ملحوظاً بالنسبة لبيان قوات ووسائل الدفاع الجوى كلها ، وحائط الصواريخ بصفة خاصة .

وأخذ العمل يجرى على قدم وساق فى عملية بناء الدشم الخرسانية لوقاية وتحصين مواقع وأطقم الصواريخ من كافة الأنظمة سواء البتشيورا أو الديسنا أو الديفينا . وأصبح ما كان مستحيلاً من أشهر يقترب من كونه واقعاً متاحاً . فالدشم والتحصينات أخذت تعلو وتنتشر وكأنها قطوف دانية لجهد دءوب للبنائين المصريين ، العسكريين منهم والمدنيين وثمرة للمشاركة السوفيتية بالخبرة فى عمليات التخطيط واختيار المواقع ، والتصميم والإشراف على التنفيذ .

وفى هذا المجال لن أنسى العزم والإصرار الذى حمله أحد المستشارين السوفيت ، ممن أعمل معهم والذى قاربت مدة خدمته فى مصر على الانتهاء ، حين جاء من إجازته فى أحد الأيام وأخرج

خريطة بموقع كان مسرحاً لعمليات البناء فى فترة الكمائن وقد قصفه العدو ، وأخذ يستحثنى على مرافقته لهذا الموقع للضرورة القصوى ، وحين طلبت منه تفسيراً لذلك وضع يده على جيبه ، وعجز عن الكلام وقد اغرورقت عيناه بالدموع، مما جعلنى لا ألح فى طلب هذا التفسير واستأذنت وقمت لمصاحبته ، وإذا بنا نفاجأ فى أرض الموقع المقصوف بأطلال لمبانى لم تكتمل، وأخذ المستشار ينبش الأرض بعصاً ، وأنا لا أفهم ما يدور . وبعد أن أعياه البحث ونبش الموقع بوصة بوصة ، وجدته يجرى إلى العربة ، و يحضر زجاجة فارغة ويملؤها بجزء من تراب الموقع ، بعد ذلك زفر وتنهد وكأنه استراح ، فرحت أطلب تفسيراً لما جرى ، فقال : هذا خطاب ابن زميل لى مقدم مهندس فى القوات المسلحة السوفيتية، استشهد فى هذا الموقع ، وهذا الخطاب يطلب رفات أبيه ، أو جزءاً من الأرض التى استشهد عليها . وها هى فى الزجاجة ، وأردف : لقد استراح ضميرى فبعد أيام قليلة سأكون فى أرض الوطن ، وما كنت لأستطيع أن أقابل ولد الصديق بدون هذه الزجاجة ، إنها جسد أبيه ، وما كان هذا الجسد غير حفنة من تراب وطنى امتزج فيها العرض بالأرض، وصارت رمزاً لصداقة بنيت عليها بالدم والعرق .

وهكذا وقبل أن ينتهى عام 1970 ، أصبح حائط الصواريخ حقيقية مادية مجسمة بكل أبعادها . فلقد كثرت وحداته، وتداخلت أقواس نيرانها لتكون سرحاً أحكم بناؤه ، وتراصت لبناته بحيث يشد بعضها بعضاً . وأصبحت أطقمه ووحداته آمنة فى مرابضها محصنة داخل دشم خرسانية شديدة المتانة والتحمل .

ودخلت وحداته فى أكبر عملية تدريب واجترار لخبرة القتال والمران على المحتمل من أساليب جديدة وأسلحة متطورة للعدو. وجرت عملية إحلال وتبديل للمواقع ، تنقلت فيها الوحدات بين الضلع الشرقى والضلع الشمالى لهذا الحائط العظيم . وجاء عام 1971 ليشهد قيام هذا البناء المتكامل لأنظمة الدفاع الجوى المصرى . فهل انتهت الملحمة الكبرى ؟ .

للإجابة على هذا السؤال يجب تتبع ما يلى :

بحث عن الثغرات .. وسدها :

قلنا أنه مع نهاية 1970 : أصبح هناك ما يسمى بنظام متكامل للدفاع الجوى المصرى ، يعتمد اعتماداً فعلياً على شبكة من صواريخ سام السوفيتية من البتشيورا ، والديفنا، والديسنا، والاسترلا « الأخير صاروخ خفيف غير موجه توجهاً رادارياً ، ولكنه باحث عن الحرارة وله أثره البالغ ضد الطيران المنخفض»، وأن هذا النظام قد تشكل على أضلاع المستطيل المصرى التى يحمل منها الصدام مع العدو الإسرائيلى ، وبالذات الضلع الشمالى ، وعلى وجه التحديد الشمالى الشرقى ممتداً إلى غرب الإسكندرية ، والضلع الشرقى وبالتحديد فى مواجهة قناة السويس وخليج السويس ، ولكن بالنظر إلى خريطة مصر، ودراسة قوات الطيران المعادية لها دراسة مدققة بدت هناك ثلاث ثغرات حقيقية على طول الضلعين الشمالى ، والشرقى للمستطيل المصرى .

ولم تكتف قوات الطيران الإسرائيلى المعادى ، بالدراسة والتدقيق فقط ، بل راحت تختبر قدرتها على تحسس الجسد المصرى بيدها الطولى من هذه المواقع . وما كان لنظام محكم أن يستمر دون سد هذه الثغرات ولحمها ضمن نسيج الحائط العظيم ، فأين كانت هذه التغيرات ؟ ؛ وكيف استغلها طيران العدو ؟ ؛ وكيف وبمن سدت ؟

كانت أولى هذه الثغرات فى نظام الدفاع الجوى المصرى ، هو موقع مدينة بورسعيد ، وشريط ضيق فى المسافة بينها وبين المنزلة . فمدينة بورسعيد تحيطها المياه من كل الجوانب ، ولا يربطها بداخل البلاد إلا طريقين جنوبها وغربها إلى الساحل ، ومياه البحيرات ومياه البحر المتوسط ومياه قناة السويس تحاصرها من كل جانب .

وكانت مشكلة اليابسة مشكلة معقدة ، فلا يمكن نصب قواعد الصواريخ على مياه البحيرة . وعمق البحيرة من الكبر بحيث يجعل المدينة خاضعة لابتزاز الطيران، لذلك تم قدح الذمن العسكرى المصرى والسوفيتى ، وتم تطريز ساحل البحيرات بحزام من المواقع الحصينة للصواريخ المضادة للطائرات، وعولج ما تبقى من أى احتمال يهدد أمن المدينة ذاتها ، بفكرة الكمائن التى تعتمد على الإخفاء والتمويه وتستغل أى لسان من اليابسة فى كفالة الأمن للمدينة الباسلة . وقد قامت على هذه العملية أطقم الصواريخ المضادة للطائرات ، والتى يعمل عليها أطقم تشغيل مصرية كاملة .

وشاركت الخبرة السوفيتية فى التخطيط والمستشاران الاعتياديان للوحدات فقط .

الثغرة الثانية والثالثة : يتحدد موقعها فى أماكن قرب كل من مدينتى أسيوط ونجع حمادى . ففى مواجهة مدينة أسيوط ينقطع امتداد سلاسل الجبال الشرقية ليشقها سهل صحراوى يسمى (وادى الأسيوطى) ، وهو يمتد من شاطئ البحر وحتى أسيوط فى مسافة لا تتعدى 50 كم كثيراً . وكانت الطائرات المعادية تستخدم هذا الوادى كممر محمى بين سلاسل الجبال لتنقض منه على المدينة الهامة ، والتى تعد عاصمة الصعيد كما يقولون ، ولتتجه منها شمالاً وجنوباً .

وبالمثل كانت هناك ثغرة مماثلة عند نجع حمادى . هذه المدينة الهامة التى تقسم قناطرها الوطن إلى قسمين ، فعندها يضيق الوادى وينحرف النيل شرقاً ليدخل فى الصحراء ، وتصير القناطر ، الكوبرى الذى يفصل شمال البلاد عن جنوبها ، كذلك فهى المدينة الصناعية الهامة ولأن هذه الثغرات أبعد عن منطقة الجهد الرئيسى ، ويحتاج سدهما إلى مجهود كبير، لم يك من السهل تدبيره من وحدات النظام فى ضلعيه الشمالى والشرقى الشمالى . فأى توفير لوحدة من وحدات هذا الخط تعنى خللاً قد يصيب الحائط فى الصميم ، ووحدات العمق حول القاهرة والإسكندرية وأسوان تشكل حزام لا غنى عنه ، وخط للدفاع عن أهداف حيوية لا يمكن التفريط فيها . مرة أخرى لم يك هناك من منقذ غير قوات حلف معاداة الامبريالية والصهيونية .

ولأن هذه القوات جاءت فى المرة السابقة بأسلحة جديدة ، وبنوع من الصواريخ لم نكن نعرفه من قبل ، وكان أحدث الصواريخ فى الدفاع الجوى السوفيتى حتى هذا الوقت ، وهو صاروخ سام3 " البتشيورا " فقد جاءت به القوات السوفيتية لتسد به أبواب مصر التى فتحت آنذاك ، ولتجعل منه نظاماً يلعب دوراً ملحوظاً فى بنية نظام الدفاع الجوى المصرى ، وبالذات حائط الصواريخ المصرى . وفى هذه المرة جاءت القوات ، وجاءت معها بالمفاجآت أيضاً . فكيف جاءت ؟ ؛ وبماذا جاءت ؟

مع نهاية شهر مارس سنة 1971 ، تم اختيار مجموعة من المستشارين السوفيت تحت قيادة جنرال سوفيتى لتشارك بعض القادة المصريين ـ وعلى رأسهم قائد قوات الدفاع الجوى الفريق (محمد على فهمى) ـ لتخطط شبكة من مواقع الصواريخ ، كى يتم إعدادها وتجهيزها فى الثغرتين حول أسيوط ونجع حمادى .

وقد رافقت الفريق المتجه إلى أسيوط . وبجهد جهيد ، توغلنا فى الصحراء هنا وهناك ، وتسلقنا قمم الجبال الشاهقة بالأقدام أحياناً لاختصار المسافات . وركبنا سيارات الجيب السوفيتية الصنع والمتينة والقادرة على الاحتمال من طراز جاز أحياناً أخرى، لنلتف حول هذا الجبل الشاهق حتى ننفذ منه إلى قمته على مدقات تستخدمها سيارات المحاجر .
وشاهدنا وعشنا كثيراً حكايات ومواقف الجبال الطريفة أحياناً ، والشاقة والشديدة الصعوبة أحياناً أخرى . فلن أنسى

يوم أن قطعنا مسافة 37 كيلو متر فيما يقرب من أربع ساعات بالسيارة الجيب ، يومها خرج علينا ذئبان بدوا لى فى ضخامتهما وكأنهما تمثالان مروعان وقد انتفضا واقفين من طريق الكباش فى معبد الكرنك بالأقصر . وأخذا يحتكان بنا ، بل وتجاسرا إلى حد محاولة قلب السيارة .

ورحنا نبحث عن سلاح لدى ركاب العربة ، ولم نجده ، وكم اختلط خوفنا ساعتها بضحكنا بتهكم المستشار السوفيتى عن مجموعة عسكرية تقوم بمهمة بدون سلاح ، وبعد تدقيق وجدنا أن السائق معه رشاشه فى صندوق العربة ، ولكن ليس به طلقات ، وضحكنا على الذئبين وأخرجنا الرشاش من أحد الجوانب وراح أحدنا يشد الأجزاء ويرجعها حتى تصورا أننا نستعد لإطلاق النار ، فتركا نفسيهما للريح وتنفسنا الصعداء، وحسبنا غيظنا من أنفسنا . فكيف نخطئ هذا الخطأ الصغير، الذى يمكن أن يتحول فى طرفة عين إلى خطأ كبير يكون ثمنه حياتنا .

ولن أنسى يوم أن علمنا بأنه توجد وحدة صواريخ ضمن مجموعة من الوحدات أتت على عجل ، وكانت هذه الوحدة واحدة من أكثر الوحدات امتلاكاً لسجل باهى عظيم ، فلقد اشتركت فى عمليات الكمائن وأسقطت أكثر من طائرة معادية ، واحتلت موقعها فى حائط الصواريخ على خط قناة السويس . وبعد أن أجريت لها عمرة ما بعد القتال ، جاءت هنا على الفور لتسد الثغرة إلى حين ، ثم تعاود مهامها حيث أنها

تدخل ضمن وحدات الاحتياطى الاستراتيجى للقادة . ولدى علم المستشار الذى أعمل معه بوجود هذه الوحدة أجرينا معهم اتصالاً، وتحدد وقت لاستقبالنا ، وكنت أعرف هذه الوحدة جيداً ، فهى لم تتمتع بمستوى قتالى رفيع فحسب ، بل بمستوى إدارى عال أيضاً، ويبدو أن هذه سمة المنجزين دائماً .

فهم متفوقون فى كل الاتجاهات ، حتى ولو أجادوا بعضها دون البعض ولو من منظورهم .

وبعد أن انتهينا من عمل اليوم توجهنا إلى هذه الوحدة ، وكم كانت حياة جد شاقة ، فالموقع مجهز تجهيزاً ميدانياً ، وليست به دشم حصينة ، وطبيعة الأرض والمكان طبيعة موحشة ، ورغم ذلك حول الرجال هذه البقعة الموحشة إلى موقع يمكن الإقبال عليه ، ويمكن أن تحس لديه بالراحة ، وجلسنا وأخذنا نسترجع الذكريات ، وقائد هذه الوحدة الرائد الشاب يشكو من القذف به إلى هذا المكان ، والمستشار السوفيتى يعزيه بأنه إذا لم يك أهلاً للثقة ، ما أتى إلى هنا ، وسط صيحات الجميع والتندر بأن الأكثر عطاءً أكثر عبئاً وإرهاقاً ، ويسلم المستشار السوفيتى بهذه المقولة ثم يتحفظ بقوله أن ذلك يكون كذلك ، طالما ضاقت دائرة الخبرة ودائرة الثقة .

ويدعونا إلى الغداء ، ونجد أنفسناً أمام مأدبة غنية بكل ما لذ وطاب فى نطاق إمكانيات هذا الموقع الفقير ، ومنسقة تنسيقاً رائعاً ، بدت معه وكأنها امتدت على ساحة فندق سياحى فاخر ، وهممنا بالجلوس ، وإذا برياح الخماسين العاصفة تضع

بصماتها الرملية على كل الأكل والأطباق ، ولم تجد معها أى مجهودات بذلت لإنقاذ الموقف ، ولم يك أمامنا غير أن نتناول هذه الوجبة الدسمة ، وقد تبلت برمال الصحراء النقية الصفراء وسط صيحات تعلو " هل هذا قدر المبدعين ؟ " ، " أهو كل يوم من ده ! " وأنا أترجم : " تحملوا أيها الرجال تلكم واجبات ملاقاة عدو الإنسان وعدو الأوطان " .

وتطول الذكريات وتبرز إلى الذهن عشرات القصص والنوادر، ولكن تحضرنى واقعة ذات دلالة كبيرة . فبعد انقضاء بعض الشهور على بداية حكم السادات ، أخذت بعض النغمات تظهر هنا وهناك حول تقصير الاتحاد السوفيتى فى إمداداته لنا بالسلاح ، كماً ونوعاً حديثاً ومتقدماً . ولأن الأمر لم يتحول بعد إلى تيار كامل ، كثيراً ما ترجمت بعض المناقشات بين ضباط مصريين تصفو سرائرهم وتبيض نوازعهم فى هذا الموضوع ، وبين مستشارين سوفيت ، وتحضرنى واقعة حوار تحمست لها فى البداية للضابط المصرى الذى أثارها .

فقال : " إننى أعلم أن الاتحاد السوفيتى يمتلك نظاماً آلياً، وآخر نصف آلى للتحكم من بعد ومن مركز واحد فى مجموعة متكاملة من وحدات الصواريخ ، وأن هذا النظام المتطور للغاية لم نعرفه نحن هنا بعد ، فلماذا لم يعطيه الاتحاد السوفيتى لنا ؟ " .

ووجهت السؤال ، وأضفت من عندى أن هذا إن صح تقصير من

حليف لحليفه ضمن منظومات معاداة الاستعمار والصهيونية ، فهذا شىء لا يغتفر .

ورد الضابط السوفيتى (عضو الحزب الشيوعى السوفيتى) قائلاً : " هل لديكم ما يثبت أنكم طلبتم هذا ، وأننا لم نجب طلبكم ولم نلبيه " ، فاندفعت من فورى : " الأمر لا يحتاج لأى طلب ، ألسنا شركاء كفاح ؟ " .

استوقفنى الضابط السوفيتى وقال : " أيها الأصدقاء لا تدعونا نخمن احتياجاتكم ، ولا تدعونا نقدر إمكانياتكم فى استخدام هذا أو ذاك ، فأنتم تفهمون التكنولوجيا الحديثة والتقدم العلمى على أنه الأحدث فقط . إن قمة العلم والتكنولوجيا أن تستخدم السلاح الذى يبرز قوتك ، وتبرز أنت نقط القوة التى فيه " ، وأضاف : « إن الفيتناميين لم يحصلوا على نصف ما حصلتم عليه من أصناف ، ولم تكن هذه مسألة مطروحة على مائدة مفاوضاتهم قط ، وكانوا يرحبون بالسلاح الأقل تطوراً ، ويجبرون السلاح المتطور على ملاقاته فى حدود وضمن الظروف التى ينسجونها هم ، ويظهر دائماً أن أداؤهم أكثر تفوقاً ، فهم يستخدمون الإدارة والعقل إلى جوار السلاح ، فليس بالسلاح وحده تحسم المعارك» .

ثم أضاف يسأل الضابط المصرى : " هل درست هذا النظام الذى تقول عليه ؟ ودرست ظروف استخدامه ؟ " وأجاب الضابط المصرى: " أنا أعلم أنه نظام متطور ، وهو يكفل توزيع النيران توزيعاً

محسوباً على ضوء إمكانات أكبر اتساعاً وأكثر تنوعاً من ظروف وحدة واحدة".

ورد الضابط السوفيتى : " حقاً ما تقول ، ولكن ألا ترى معى أيها الصديق ، أن طاقم اللوحة المركزية يجب أن يكون معداً إعداداً فنياً وتكتيكياً راقياً؟ ، وأن دور القائد العام للتشكيل دور يقوم على مهارات يدوية وفنية وأخرى عقلية وتكتيكية قتالية ؟، وأن نظام الصواريخ لديكم نظام حديث نسبياً ، ولم يتواجد قائد التشكيل الأعلى الذى ترقى من ضابط توجيه درب يدوياً وفنياً على إدارة المناجل وإجراء عملية البحث والتفتيش الرادارى ؟ ".

وأكمل فى سؤال : « أيكون النظام أحسن أم أسوأ فى ظل ندرة أو عدم تواجد مثل هذا القائد ؟ » وصمتنا ، وأحسست أن كثيراً من حججنا قد تكسر ، ولكن بقيت لى بعض قناعة عن أن الأمر لم يخل من تقصير ، وقبل أن أترك القوات المسلحة علمت أن هذا النظام قد عمم ، ولكن ما حاولت معرفته ، أكان هذا أجدى أم أقل جدوى ؟ ؛ سؤال لم أحظ بالجواب عليه لأننى لم أعايش تجربته .

المهم أن هذه عينة لما كان يجرى حول هذا الموضوع فى تلك الأيام ، سردتها قبل أن أدخل إلى الواقعة ، وذلك بهدف حشد أكبر مجموعة من العناصر لإظهار الصورة على حقيقتها . وتتلخص الواقعة فيما يلى :
صاحبت ثلاثة من المستشارين السوفيت فى أحد الأيام . وذهبنا

نحدد على الطبيعة مكان موقع كان قد تحدد على الخريطة. وتشعبت بنا الصحراء ، ولم تسعفنا خرائط الطبوغرافيا التى نحملها ، فأنا لست مدرباً على استخدامها ، وحتى كثيراً من مصطلحاتها لم يمر على من قبل ، وفى بطن أحد الجبال الشاهقة وجدت أثراً لعسكريين ، وتقدمنا إليهم وعلمنا أنهم حقاً يشكلون وحدة عسكرية تتبع سلاح المهمات والذخيرة ـ فرع التسليح ، وأن وحدتهم عبارة عن مخزن كبير ، وهم الجنود فى استحضار قائدهم ، وأتى القائد وهو رجل بدين لم أتوقع وجود مثل حجمه فى الأفرول العسكرى . ولكنه كان شخصاً خفيف الظل ، لقبه بالعربى كان منطوق كلمة روسية تعنى مفهوماً يقدسه السوفيت وينتشون طرباً لسماعه ، ويعتبرون أنفسهم أبطال ودعاة هذا المفهوم (السلام) .

وبسبب هذا اللقب نشأت ألفة سريعة بين هذا القائد المصرى وبين المستشارين السوفيت ، وقرر أن يستضيفنا على الغداء، وكان مسلكه يأتى إلى مخيلى بصورة شيخ البلد البدين المعمم صاحب المندرة الكبيرة ، والابتسامة المريحة ، والغضبة الشرسة الجهول . وقرر ضمن ما قد قرره أن يصطحبنا فى جولة داخل مخازنه ليرينا قمة التطور والتكنولوجيا . وفى جو مرح خفيف بدأنا هذه الجولة . والتقط أحد المستشارين بعينيه ـ وكانت رتبته عقيد مهندس ، ويشغل منصب كبير مهندسى أحد التشكيلات الكبيرة فى بلاده ، ويعمل مستشاراً لمنصب مناظر فى بلدنا مصر ـ اكتشف هذا المستشار تواجد مجموعة من محطات اختبار الصواريخ ، وأحصيناها فوجدنا منها ستة

وحدات كاملة لم تفتح منذ قدمت من بلادها ، وأن هذه الوحدات الستة يمكنها متابعة وتلبية الاحتياجات الفنية لما بين 30 ، 35 وحدة قتالية ، وأن هذه المحطة كانت محل شكوى دائم عن نقص وحداتها . وتكهرب الجو ، وانقلب الصفاء والمرح إلى صياح وزمجرة .

وكان ضمن هؤلاء الثلاثة المستشار الذى كان طرفاً فى الحوار المشار إليه سابقاً ، وتحولت أنا فجأة وكأننى المسئول الأول فى مصر لأواجه هذه الغضبة ، ولم يفهم القائد البدين ما الذى جرى . وأفهمته ، فقال : « طيب ، وأنا مالى ؟ أنا مجرد قائد مخزن» .

وكان الموقف قد تعقد بصورة لا يسهل معها عودة الصفاء سريعاً . حاولت تفادى موجة الغضب هذه ، وأظهرت لهم أن هذا القائد غير مسئول ، فسأل أحدهم :هل يبلغ القيادة بما لديه ؟، وعلى الفور أحضر هذا الضابط نسخة من تقريره اليومى الذى يرسله إلى قيادته هو . وتحول غيظهم تجاهى فترة ، ومع سماحة وجه هذا الرجل البدين قل التوتر نسبياً ، ولكنهم رفضوا الغداء، واكتفوا بمضغ غضبهم ، واقتاتوا أحزانهم وهمهم ، ولذت أنا بالصمت العميق . وأخذنا اتجاهنا إلى الموقع وذهبنا إليه وأنجزنا مهمتنا .

وانصب جهدنا فى هذه الفترة على تجهيز المواقع تجهيزاً هندسياً سريعاً ، وفى مواقع تبادلية كانت تجرى عمليات بناء الدشم وتشيد المواقع تشييداً حصيناً . ولاحظت أن العمل الذى يجرى سواء فى الأول أو الثانية ، يختلف عما شاهدته من قبل . فالمخطط

الداخلى لكل موقع يختلف عن الصور المألوفة لدينا ، وتركيز المتابعة يظهر لى بوضوح شديد ، فهو يتم تحت إشراف جنرال سوفيتى يشغل منصب مستشار رئيس عمليات الدفاع الجوى . ولاحظت أيضاً أن كل موقع يلحق به موقعين إداريين .

ومرت فترة تقرب من الشهرين ، وفى مايو سنة 1971 قدم تشكيلان كبيران يضمان مجموعة من الوحدات المتعددة تعمل على أصناف جديدة من الصواريخ . لم تك قد قدمت إلى مصر قبل هذا التاريخ ، بل أكد لى المستشار الذى أرافقه بأنه لم يرها قط قبل الآن ، وإذا كانت انقضت فترة العام لمغادرته الاتحاد السوفيتى ، فإنه يقطع أن هذا الطراز لم يوجد على الإطلاق فى أى من التشكيلات الكبرى التى يعرفها ، إنه صاروخ جديد للغاية ، إنه صاروخ سام 4 " الفولجا " ، إنه الصاروخ المتطور الذى طور على ضوء تجارب القتال على الساحة المصرية ، إنه يحمل إمكانيات هائلة للمناورة المكانية فهو مثبت على قواعد إطلاق متحركة .

لقد اتجه أحد الفريقين إلى نجع حمادى ، وظل الآخر فى أسيوط ، وانتشرت الأطقم السوفيتية للصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام 4 فى مواقعها ، وفى نفس التوقيت قدمت معها أطقم قتالية عسكرية مساعدة تعمل على سلاح أشبه بالمدفعية الصاروخية الخفيفة ، يقوم بمهام الحماية حول الموقع الأصلى ، وهو سلاح جد متطور ، إنها مدافع " الشيلكا " ذات المواسير الأربعة والمحمولة على شاسيهات الدبابات .

وتواجد إلى جوار كل طاقم قتالى سوفيتى ، طاقم مصرى

متكامل ، سواء فى وحدات الصواريخ أو فى وحدات المدفعية من طراز «الشيلكا» . وتحددت بهذا مهمة كل طاقم سوفيتى فى اتجاهين ، الأول : القيام بمهمة العمل القتالى ، والاشتراك ضمن شبكة الدفاع الجوى المصرى ، وفى نظام متكامل يقوم على فكرة التغطية المتبادلة بين وحدات الصواريخ من ذات الصنف من ناحية ، ومن ناحية أخرى تأمين كل وحدة صواريخ ، بمجموعة من مدافع الشيلكا تشكل عليها دائرة حماية ضد الأهداف المنخفضة .

والاتجاه الثانى : يقوم الطاقم السوفيتى بتدريب ونقل الخبرة الفنية والقتالية إلى الطاقم المصرى بحيث لا يغادر الأول الموقع ، إلا ويكون الثانى فى وضع القدرة على تشغيل وإدارة الوحدة والاشتباك بها تماماً وبصورة مستقلة .

وأذكر أن هذه الفترة لم تشهد فقط هذه الأسلحة الراقية والحديثة جداً فحسب ، ولم تشهد الأطقم السوفيتية - وقد انكبت على واجباتها القتالية والتدريبية - فحسب ، ولكن شاهدت أيضاً استخدام مجموعة متكاملة من الأسلحة عموماً، فعلى سبيل المثال حظى سلاح الإشارة بأكثر محطات الاتصال اللاسلكى السوفيتى تقدماً وتطوراً ، وكذلك سلاح المركبات .. إلخ .

وتحمل لى ذكرى هذه الأيام فرص لن تعوض ، فقد عشت لأيام ضمن وحدة سوفيتية كاملة ، وخبرت أكلهم ، وطريقة معيشتهم ، وبرنامجهم اليومى ، ونظام تجنيدهم ، وطريقتهم فى

التدريب والقتال ، والعلاقات بين الضابط والجنود ، ورأيت ما يبذلونه من جهد وعمل ضمن نظام دفاعنا الجوى .

ولن أنسى الحالات المتكررة لنزيف الجنود من الشباب السوفيتى نظراً للحر الشديد والمجهود المضنى ، فمازالت ترتسم فى ذاكرتى صورة هذا الشاب السوفيتى الذى لم يبلغ التاسعة عشر من عمره ، حينذاك ، وقد اندفع الدم من أنفه ومن عينيه ومن أذنه نتيجة مجهود وقيظ ذلك اليوم ، إن حرارة شمس الجنوب اللافحة التى فجرت الدم ، وأسالته من أنوف ومآقى وآذان بعض الشباب السوفيتى الذى جاء ليقاتل إلى جوارنا دفاعاً عن أرضنا ، وضد عدونا المشترك الامبريالية وربيبتها إسرائيل ، لأقل حرارة من حرارة الوجدان المصرى الأصيل والوفى ، والعارف بعمق أبعاد الصداقة المصرية السوفيتية التى سطرتها دماء الشهداء وجهد وعرق المدافعين عن أرض مصر من خندق واحد . إن عمق هذه الصداقة لأشد غوراً وأصلب عوداً من بعض النغمات الناشزة ، والتى تطن بعبارات التقصير السوفيتى ، والضغط السوفيتى ، والهيمنة السوفيتية ، حتى ولو علت إلى حين .

***

نهاية الجولة :

جاء منتصف عام 1971 ليشهد اكتمال نظام فعال ومتطور للدفاع الجوى المصرى ، تلعب فيه أنظمة الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام السوفيتية الدور الرئيسى ، لقد كان لدينا مع بداية حرب الاستنزاف صنف واحد من هذه الصواريخ ،

اتسعت أصناف هذا النظام لتصير ستة أنظمة للصواريخ الموجهة رادارياً وحرارياً من أصناف الديفنا ، والديسنا ، والبتشيورا ، والفولجا ، والإستريلا ، والشيلكا .

لقد تعددت وحدات هذا النظام ، وشاركت فى إنجاز مهماته قتالياً أطقم مصرية وأطقم سوفيتية ، وعلت أبنية هذا النظام وتراصت لبناته ليرتفع حول مصر من أكثر من اتجاه يحتمل منها أن يأتى عدو مصر والعرب إسرائيل ومن وراء إسرائيل ، حائطاً عظيماً ، قلت بصدده فى بداية هذه الذكريات ، ربما اشتهر عن سور الصين العظيم ، ومن المؤكد أنه أدى خدمات دفاعية لمصر لا يمكن لسور الصين العظيم أن يؤديها فى عصر الطيران والجيوش المتطورة والأسلحة الحديثة ، وإذا حمل سور الصين العظيم صفته باعتباره أحد عجائب الدنيا السبع ، فإن حائط الصواريخ المصرى ، سوف يحمل ذكرى ستخلدها الأجيال القادمة ، وكتب التاريخ العسكرى ، فعلى عتباته دارت أول معارك ما يسمى بالحرب (الالكترونية الحديثة) ، وعلى عتباته أسقطت أحدث الطائرات الأمريكية الصنع الإسرائيلية التشغيل حتى حينه ، وعلى عتباته انحصر نفوذ القوة الجبارة للعسكرية الإسرائيلية الغاشمة والتى تتجسد فى يدها الطولى ، سلاح الطيران المعادى ، إنه الحائط العظيم .

وقبل أن تفرغ قصتى مع هذا الحائط العظيم ، بقيت بعض سطور تكمل رتوش هذه الصورة التى أود أن تساوى ما كتبت به من مداد ، وإن كنت أعلم أنها ستعجز عن الوفاء لقطرة دم

واحدة سالت من شهيد واحد مصرى أو سوفيتى دافع عن تراب وطنى الحبيب مصر .

فبعد أن فرغت من المشاركة فى سد ثغرات الجنوب ، جاء دورى للمشاركة فى سد ثغرات الشمال ، وكانت الأقدار أرادت أن تجعل منى شاهداً واسع الرؤية والاحتكاك لهذه التجربة لهذه التجربة العميقة ، والخبرة الثرية للعسكرية المصرية .
فلقد توافق أمر التحرك لوحدتى لاحتلال موقع الكمين فى الشمال ، لطلب قدم ووفق عليه وكان سينفذ بعد يومين ، هذا الطلب كان طلب إجازة لإتمام مراسيم زواجى .

ولن أنسى نوبة الضحك التى غرق فيها المستشار السوفيتى لحظة علمه بهذا الأمر ، وقوله : « يبدو أنك بعد جهدك وانشغالك فى تجهيز بيتك المضنى هذا لن تتزوج» ، فقلت له : « لماذا ؟» ، فأجابنى إجابة متقطعة بضحكات هستيرية : « لقد جاء أمر تحرك لكمين» . وأسكتنى الذهول ، وتتطاير الشرر من عينى لضحكه ، وهممت بالكلام ، ولكنه تدارك الموقف ، وقال : « فلنتحرك أولاً لنستقر فى المكان الجديد ، وبعدها سأطلب لك الإجازة بنفسى ، فإذا لم نستطع ، سأدبرها مع قائد الوحدة» .
وكان هذا المستشار حديث فى مقدمه إلى مصر ، ولم يلتقط بعد الكلمات العربية التى تساعده على حد أدنى من التفاهم . وتحركنا ، واحتللنا موقعنا ، ثم تأخر نزولى يوم واحد ، وسافرت قبل زفافى بيوم واحد ، وتزوجت ولم تطل إجازتى ، فقد تم استدعائى لمصاحبة وفد سوفيتى قادم لتوه للطواف بوحدات قطاع

معين ، لشرح وتدريب الأطقم القتالية على كيفية استخدام وحدات جديدة أضيفت إلى المحطات لتقليل آثار عمليات التداخل والتشويش الرادارى . ورافقت هذا الوفد ، وقد بذلنا جهداً نظرياً وتدريبياً عظيماً ، أتى بثمار كبيرة فيما بعد ، وبعد انتهاء هذه الجولة رجعت إلى الوحدة ، ومنها إلى المنزل حيث واصلت ما انقطع من إجازة الزواج .

وانتهى عام 1971 عام الحسم إن سلمياً أو قتالياً ، ولم يحسم ما كنا ننتظر حسمه ، واتضح أن الأسباب تكمن فى الضباب . ورغم أن الضباب ظاهرة طبيعية ، إلا أن السادات تصور أن الحرب التى نشبت فى شبه القارة الهندية قد لفتنا بالضباب ، وتذكرت أغنية أوبراليه روسية انفجر أحد المستشارين يوماً يتغنى بها عندما كنا نسير فى رتل من أرتال تحركاتنا الكثيرة ، حيث كان الضباب كثيفاً ، وهى تقول « خلف الضباب لا ترى الأشياء» ، ولم يدر بخلدى لحظة واحدة أن السادات كان قد سمع هذه الأغنية ، ولكنها كانت عنواناً لإحدى خطبه فى تبريره لانقضاء عام الحسم سلمياً أو قتالياً بلا حسم .

وخطا عام 1972 بعضاً من خطواته ، ووجدت استدعاءً آخر يطلبنى ، ولم يك هذه المرة استدعاء من إجازة لعمل ، ولكنه كان استدعاء من قيادة الدفاع الجوى يطلبنى من وحدتى . ولبيت الطلب ، وذهبت إلى حيث استدعيت ، وعلمت أن هناك قراراً باستبعادى عن الترجمة ومصاحبة المستشارين والخبراء السوفيت ، ولما طلبت تفسيراً لذلك ، لم أحظ بأى رد ، ووجدتنى

فى حجمى الحقيقى رقيباً بالجيش ، مطارداً ومبعداً إلى أقصى الوحدات على ساحل البحر الأحمر .

وتذكرت جهدى وذكرت به من يريد ، ولم أجد أذناً صاغية، وقررت رفض العقاب على فعل يعجز أحد عن بيانه ، وطلبت تفسيراً مرة أخرى ، ووعدت بذلك ، وبعد تجدد مدة الوعد مرة ثم مرات ، لم يجبنى أحد بنبت شفة ، وتشبثت بموقف محدد ، إذا كنت فعلت أى خطأ ، فأولى بى أن أظل فى هذا المبنى الفخم تحت رقابة من يريد أن يعاقبنى ، فأنا رجل متزوج وتضاعفت خدمتى فى القوات المسلحة عن المدة المقررة بثلاثة أضعافها ، وإذا كنت سأجلس فى الظل ، فلا شك أن ظل القيادة أحسن وأنعم . وبعد جهد جهيد تم توزيعى عن وحدة من وحدات الدفاع الجوى ، كان شرطها الوحيد ، أن لا يكون بها تسليحاً سوفيتى الصنع، وفعلاً ـ ومع بداية مارس سنة 1972 ـ نقلت إلى وحدة قريبة من منزلى للمدفعية المضادة للطائرات ، كان تسليحها إسبانى ، وترجع أعمار مدافعها إلى نهاية الحرب العالمية الثانية .

وعشت فى هذه الوحدة الجديدة حوالى أربعة شهور ، وذات صباح ـ وعلى وجه التحديد فى 21 يوليو سنة 1972 ـ قرأت ضمن من قرأ صحف الصباح ، وعلمت منها أن الأمر لم يعد قرار إبعادى وطردى من مصاحبة الخبراء والمستشارين السوفيت ، ولكن أصبح القرار هو طرد الخبراء والمستشارين السوفيت أنفسهم من مصر ، وفى زمن أقل مما حدد لهم خرج المستشارون والخبراء وأطقم القتال والقوات السوفيتية التى كانت تلعب دوراً هاماً ، وبناءً على

طلب من مصر وجاءت لتنفيذ مهام الدفاع الأولى عن مدن مصر الآهلة وأهدافها الحيوية فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وجاءت بأحدث صواريخها لتسد ثغرتى نظام الدفاع الكامل عند نجع حمادى وأسيوط فى عهد أنور السادات ، وأبى السادات إلا أن يرى السوفيت استعماريين ومهيمنين ، ولكن كيف ؟ ؛ لم نحظ بجواب هذه المرة أيضاً ، لقد صور السادات هذا القرار دوماً على أنه واحداً من أعظم إنجازاته ، وأخذ يتغنى به حتى صرعه أحد شباب القوات المسلحة المصرية فى 6 أكتوبر سنة 1981 .

وبصرف النظر عن القرار وصاحبه ، فالتاريخ وحده هو الحكم على القرار وعلى صاحبه ، إلا أن القوات السوفيتية لم تغادر أوطاننا إلا وقد خلفت نظاماً قوياً ومتكاملاً للدفاع عن أجواء مصر ، لقد ساهمت فى إقامة هذا النظام تخطيطاً ومداً بالسلاح وتدريباً وإشرافاً على التنفيذ ، ثم ساهمت بقوات مقاتلة ، وروت بدم الصداقة بقعاً كثيرة من أرض الوطن مصر . ومع ذلك لم تذكر هذه القوات - ولا من يمثلها - أنها كانت وحدها فى الميدان ، لقد ثمنت دورها ضمن وفى إطار الدور المصرى البطل لقادة عظام وضباط أبطال وجنود بواسل ، ورأت فى سلاحها مجرد سلاح تحمله إرادة رجال ، ولم تتغن - ولو لحظة - بفنونها أو تكنولوجيتها الراقية والمشهود لها عالمياً ، وبالذات فى مجال الصواريخ ، ولكنها رأت وعلمت أن القتال بشر وسلاح ، وأن البشر دائماً قبل السلاح .

لقد عاش المستشارون والخبراء السوفيت بين أفراد القوات

المسلحة المصرية ، يأكلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، لم يطلبوا ميزة أو يأتوا بميزة معهم ، لم يأتوا بثلاجات أو مبردات للمياه ، ولم يأتوا بخيام حمراء أو زرقاء أو خضراء أو صفراء تذخر بأصناف المأكولات الشهية والمعلبات الفاخرة . ولم ينزلوا بالفنادق الفاخرة على حساب القوات المسلحة ، ولكنهم أكلوا الفول معنا ، ولبسوا نفس الأفرول ، وتبادلوا السجائر مع الضباط والجنود ، وناموا فى العراء حيث نمنا .

ولن أنسى ما حييت تلك الواقعة التى ما زالت تصيبنى بالقشعريرة كلما تذكرتها ، فبعد إرهاق عدة ليالى متتالية، وفى ساعة السحر أى قبل الفجر بقليل ، وقد نصبنا المعدات وفرغنا من تسطيحها وتوجيهها ، وبقيت عمليات الصيانة ، وضبط المعدات ، وبعض الأعمال الروتينية الخاصة بأطقم التعمير ومنصات الإطلاق ، وبين منصتى إطلاق كانت هناك كومة من شباك التمويه ، ونادى المستشار السوفيتى على قائد الوحدة فوجده قد افترش مرتبة فى العربة الجيب ونام عليها .

وجلسنا (المستشار وأنا) على هذه الكومة ، ومع لسعة برد السحر ، وإرهاق أيام متتالية ، اختلسنا فيها النوم ركوباً فى العربات فقط ، غالبنا النوم ونمت ونام المستشار متكوراً على نفسه ، ولم ندرِ كم مر من الوقت ، وصحونا على صرخات عالية وهرولة نحونا وصوت موتور رهيب ، إنه صوت إحدى المجنزرات التى توجد ضمن معدات المحطة لأعمال الجر والمناورة المكانية ، وكل ما كان يفصل جنزيرها عنا بضع سنتيمترات ، ولم يرنا

السائق ، ولكن ظن أنه يسير على تبة من الرمال ، فلما التف الشباك على الجنزير أوقف المجنزرة وراح هو ومساعده يخلصان الجنزير من الشباك ، ففوجئا بنا وكأننا جثتين ، فعلا صراخهما ، وأدركنا ما كان يحدث وسيحدث ، وتعانقنا من فورنا .

ولأول مرة أحس بالدمع الساخن يتساقط من عين هذا الرجل الحديدى ، والذى عملت معه لأكثر من سنة ، وأجهش بالبكاء ، وذكر طفله الصغير ذا السنوات الست ، وهزنى ما حدث للأعماق ، وذهبت لقائد الوحدة ألفت نظره لما حدث ، فرد على بالصراخ والسباب ، وذهبت من فورى لقائد التشكيل الأعلى وأخبرته بما حدث ، فأتى بمستشاره وأخبره بالواقعة ، وطلب مستشار وحدتى ليتأسف له ، فلما علم المستشار بما فعلته عنفنى ، وقال : « لقد جئنا لنحارب عدونا المشترك ولم آت للنزهة ، وما هزنى بالأمس كان مجرد نوبة ضعف أمام تصورى صورة طفلى وقد صار يتيما» .

هكذا عاش السوفيت بيننا ، هكذا كنا معهم . وها هى قصتى مع حائط الصواريخ قد انتهت ، ولعلى قد أكون أضفت بها جديداً للقارئ ، ولعلى أكون قد ساهمت فى تكريم جهد خارق قامت عليه مجموعات من أخلص أبناء هذا الوطن ، وأكثرهم بذلاً وعطاءً ، ولعلى أكون قد أوضحت ما غمض من دور القوات السوفيتية الصديقة ، ورددت لهم بعض الدين وفاءً لمصر ولقضيتها ، وعرفاناً بمصالحها وحلفائها .
ولكن ما أعيه جيداً أن ما قلته وما سردته لم يف دين شهداء

الوطن وشهداء الصداقة لمصر . فدماؤهم الطاهرة ستظل فى وجدانى راية للتحرر والثورة والعطاء .

وليغفر لى القارئ إن كانت اختلطت الأمور الشخصية بالأمور العامة ، فقد عملت قدر طاقتى لتجنب الجوانب الإنسانية والحياتية لهذه الفترة الثرية من عمرى ، وبذلت الجهد كل الجهد لأصنف هذه المواد لتنطبق على النموذج المحدد للمفهوم الاستراتيجى كما حددته فى مقدمة هذه الصفحات ، حول الصراع الرئيسى وتمييزه عن الثانوى ، وحول قوى الأصدقاء والحلفاء ، وحول قوة الأعداء وحلفهم ، وحول المهام وأولوياتها ، ولو قدر لهذه الصفحات أن تزيل تداخل المفاهيم والتشويش المتعمد أو غير المتعمد المرتبط بقضية وطننا ، لكان هذا مبلغ طموحى .

فنحن كما يقولون ، نعيش الزمن الرديء ، حيث نرى الاستسلام يسمى سلاماً ، والعدو يصير صديقاً ، والحليف يصنف عدواً ، والأخوة والأشقاء يكونون ألد الأعداء .

وبواعث الصراع ومخلفاته من مصالح وأرض ودماء تصير بواعث وهواجس نفسية ، والعدو يصير الحكم ، والصراع الوطنى الديمقراطى المقدس ضد أعداء الأوطان ومغتصبى المصالح وقاهرى الشعوب يصير لعبة ، وإن أوراقها بيد عدو الأوطان والشعوب ومصالحها .

وعلى ضوء تجربتى التى سردتها فى الصفحات السابقة ، وعلى قدر الثقة التى تولدت من خلالها ، وعلى قدر نتائجها وانتصاراتها

الباهرة ، وعلى قدر طاقة العطاء التى تفجرت من أبناء مصر الذين بنوها بعرقهم وجهدهم ودمائهم ، وعلى قدر وقوف حلفاء الحق معنا ، وعلى قدر طاقة العطاء التى تفجرت فيضاناً من أبناء مصر سنداً لنا وعوناً لمهامنا ومعضلاتنا ، أعلم علم اليقين أن هذا الزمن الرديء حتماً سيعبر ويمر ، بل ويفر سريعاً ، وإنه لن يدوم ولمصر رجالها ، وللشعب مصالحه ، وللحقوق وضوحها ، وللتاريخ حتميته .

تمت

أحمد عبد الحميد شرف
مايو 1983

حرب الاستنزاف *

بقلم اللواء حسن أحمد البدرى

---

* دراسة نشرت للواء حسن أحمد البدرى بمجلة السياسة الدولية - أكتوبر 1978 - إصدار مؤسسة الأهرام .

حرب الاستنزاف
(28سبتمبر 1968ـ7 أغسطس 1970)

بقلم: اللواء حسن احمد البدرى

التزمت الصهيونية فى تنفيذ مخططها التوسعى، بأسلوب استراتيجية القضمات، وسلكت فى ذلك، نفس النهج الذى سارت عليه النازية من قبل مع فارق وحيد هو المدى الزمنى الذى يفصل بين مراحل التنفيذ.

فشهور استيعاب النازية لكل مكسب جديد قبل العودة إلى العدوان تحولت إلى سنوات فى المخطط الصهيونى ويعود ذلك الفارق إلى واقع التطور التاريخى فى المنطقة التى نشأت فيها كل من الصهيونية والنازية، وكذلك الفارق بين حجم قاعدة القوة التى انطلقت منها كل من العقيدتين التوسعيتين فقد انطلقت النازية من دولة قوية معترف بها.

أما الصهيونية فقد انطلقت استنادا إلى عصابات مسلحة وأقلية سكانية، وعلى أرض عربية، لم يكن الاعتراف الدولى بسيادة السلطة الصهيونية عليها قد توفر بعد فبينما اكتفت الأركان العظمى الألمانية ببضعة أشهر فحسب، كفترة هدوء بين قضماتها المتتالية فى النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا ثم بولندا ثم فرنسا قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية فإن التطبيق الصهيونى لاستراتيجية القضمات، عمل على أن تطول تلك الفترة إلى نحو عشر سنوات، كمعدل عام .

كما أن فترة الهدوء التى وقعت بين غزو بولندا فى سبتمبر 1939 وغزو فرنسا فى مايو 1940 وهى الفترة التى عرفت فى التاريخ باسم الحرب الكاذبة والتى بلغت ثمانية أشهر، قد تميزت بنشاط دبلوماسى وسياسى زائد لفرض الأمر الواقع، وإجبار الحلفاء على قبول الخريطة النازية الجديدة لأوروبا، كذلك فإن فترات الهدوء بين الجولات الإسرائيلية قد تميزت هى أيضاً، بزيادة النشاط لفرض واقع جديد فى المسرح، ورسم خريطة مختلفة له وينبئنا سجل التاريخ، أنه بقدر ما خدمت فترة الهدوء بين المعارك للمنتصر، وقربته من تحقيق أهدافه ومراميه، سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ومعنوياً فأنها، وبدرجة أشد أضرت بالمهزوم ليتفشى اليأس فى صفوفه ويتشتت جمعه وتهبط معنوياته، وقد ينصرف الرأى العام العالمى عن قضيته، حتى تتوارى فى زوايا النسيان أو تهبط إلى قاع اهتمامات المجتمع الدولى .

وبتطبيق ما سبق من نظريات على الصراع العربى الإسرائيلى، يتضح أنه غداة هزيمة 1967 وإسرائيل تجتاز فترة احتواء مكاسب الجولة الثالثة وتستكمل وتهيئ الاستعداد لجولة تالية، كما أن نجاح المخطط الصهيونى فى تلك الفترة، كان متوقفا على استمرار الهدوء فى المسرح، أو حصر الصراع فى أضيق الحدود الممكنة، وبغاية السرعة وقد أكدت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية سلامة ذلك التقدير فيما بعد، بما مارسته من أعمال الردع الجسيم، والعمليات الوقائية أو الجهات المضادة المسبقة التى شنتها ضد كافة الجبهات العربية من نهاية 1967، وحتى معركة نهر البارد فى شمال لبنان .

وليس هناك أشد ضرراً بالمصلحة القومية العربية، من أن يتدهور الصراع فى المسرح إلى مستوى الحرب الكاذبة أو حالة اللا حرب و اللاسلم فالترجمة الصادقة لهذا الوضع، هى إتاحة الفرصة للعدو لتحقيق أهدافه العدوانية، واحتواء مكاسبه، تحت أفضل الظروف التى ينشدها، ويعمل جاهداً على فرضها فى المسرح.

كما أن أكثر ما يخدم المخطط الصهيونى، إطالة فترة الهدوء التى تفصل بين الجولات، كى يسهل أمامه الطريق لبلوغه أهدافه المرسومة وأن يكون شكل النصر الذى تحقق فى المسرح فى الجولة العدوانية السابقة عليه، نصرا سريعاً بفضل الحرب الخاطفة، على أن يكون زهيد التكلفة، قليل الخسارة المادية والبشرية، بفضل الضربات الجوية المفاجئة المركزة، وعمليات التطويق البعيد والالتفاف ثم الاندفاع إلى الأعماق التعبوية فى المسرح، لإفساد الاتزان الاستراتيجى على مختلف الجبهات ويؤكد تقدير المؤسسة العسكرية الإسرائيليةأن هاتين الصفتين الأساسيتين للنصر، ونعنى بهما السرعة وقلة التكلفة هما أكثر العوامل التى تمكنها من بث اليأس فى صفوف العرب، وأنه لا جدوى من مواصلة النضال . وإزاء هذا الواقع الذى ترتب على هزيمة يونيو 1967 والذى انتفخت أوداج صقور المؤسسة العسكرية الصهيونية زهوا بنصرهم، لدرجة أن وقف أبرز زعمائها يوم 12 يونيو ليعلن بكل غطرسة بأن العرب يعرفون رقم هاتفه، وأنه فى إنتظار رجائهم ليأتوه مستسلمين ، إلا أن أضغاث أحلامه لم تتحقق، بل ذهبت أدراج الرياح، حين فاجأهم العرب، بكل صلابة وإيمان راسخ، وبدأت

حرب الاستنزاف بعد عبورها مرحلة الصمود، فكانت مفاجأة لقادة إسرائيل، وإكباراً وإجلالا من الذين يؤمنون بتسفيه العدوان.

ولربما بدت حرب الاستنزاف أو حرب السنوات الثلاث أقل صور الرفض العربى الحقيقى إيجابية من ناحية النوع لفهم إسرائيل (بعد استبعاد الرفض بالكلام الذى تميزت به الممارسة العربية طويلا) إلا أنها كانت الأنسب تحركاً، فى ضوء الظروف السياسية والعسكرية والمعنوية التى سادت المسرح غداة يونيو 1967، لعبور فترة الإعداد والتجهيز لما هو أكثر إيجابية من صور الصراع، ولتجنب سقوط قضية الاحتلال الإسرائيلى فى مهاوى التجمد، بكل ما يعنيه ذلك، ولكى لا تنخر الهزيمة فى كيان الأمة العربية من ناحية، ولحرمان إسرائيل من الاستيعاب الهادئ والمتئد لنتائج إنتصارها العسكرى.

الأهداف العسكرية لحرب الاستنزاف:

إن حرب الاستنزاف، فى مفهومها العسكرى: هى تلك الصورة من الصراع المسلح الإيجابى الذى يدور بين خصمين أو عدة خصوم لا يستطيع أحدهم أو بعضهم مؤقتاً ولأسباب مرحلية أن يستخدم قوته الرئيسية الضاربة، لحسم الموقف لصالحه فى مسرح الحرب، بل يفضل حصر مجال نشاطه الحربى، فى شن أعمال عسكرية متعددة، وإن كانت محدودة الهدف، ممتدة المدى والزمن تشكل فى مجموعها عبئاً على العدو، ويعنى ذلك أن حرب الاستنزاف يجب أن تشتمل على أنشطة عسكرية تدار بغرض إنهاك الخصم بشرياً واقتصادياً ومعنوياً، كما يجب أن

تهدف إلى اكتساب الخبرة الميدانية، وإتمام الاستعداد لمواجهة تكون أشد حسما فى المستقبل.

هذا عن الأهداف العامة لحرب الاستنزاف، أما الأهداف التفصيلية فهى :

1ـ إنزال أكبر قدر ممكن من الخسائر البشرية بالعدو .
2ـ النيل من معنويات العدو .
3ـ توفير أفضل الظروف الممكنة، لبناء جيش متمرس على الحرب، بهدف إنتزاع النصر فى المواجهة الحتمية التالية .

أما بناء الجيش المتمرس على القتال، فلا يكون إلا فى لهيب المعركة، وفى مجال الواقع، باعتبار ذلك أفضل الطرق لحشد القوى المسلحة، وخلق القائد المحنك، والمقاتل الكفء .

فالتاريخ العسكرى يشير إلى أن أبناء الجيوش القوية القادرة قد اتخذ أحد مسارين، أو كليهما معا :

فأما جيوش بنيت فى مسارح حرب بعيدة عن دولها، مثل مسرح غاليبولى خلال الحرب العالمية الأولى، ومسرح الحرب الأسبانية قبيل الحرب العالمية الثانية بالنسبة للجيش الألمانى، ومسرح إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية ومسارح الحرب المعاصرة فى كوريا وفيتنام وشبه القارة الهندية بالنسبة للجيش الإسرائيلى، ولعل من قدر لهم أن يقرءوا كتاب موشى ديان عن حرب العصابات بعد زيارته لمسارح الحرب فى الشرق الأقصى عام 1966، قد استوقفهم قوله : أن التطبيق الذكى لشكل

المعركة القادمة، يتم من خلال الاقتحام الجوى الرأسى وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت المفاجأة وحدها، هى التى قابلت قوات الاقتحام الجوى الرأسى المحمولة جوا والمحدودة العدد نسبيا التى دفعت بها إسرائيل إلى ميدان المعارك على الجبهات العربية عام 1967 (وأصبحت هذه القوات الآن من ركائز القوة الإسرائيلية بعد التوسع فيها، واستخدامها فى العديد من الاشتباكات العسكرية وشبه العسكرية) .

وأما جيوش بنيت فى مسرحها، ومن خلال أشكال بسيطة من القتال تتزايد وتتسع بتزايد قدرتها القتالية ومن الأمثلة عليها: الجيش الإسرائيلى كذلك الذى كانت قواته هى منظمات الهاجاناه والبالماخ العسكرية فى فلسطين، فيما بين الحرب العالميتين الأولى والثانية، وحتى إعلان قيام الدولة سنة 1948 وما تلاها من أعمال إغارات ما بين 1952 ـ 1956 وفى هذا الصدد لم نزل نذكر قول ديان "أننى لا أميل إلى استخدام وسائل تمثل المعركة لإضفاء الواقعية والتمرس على القتال فى تدريبات القوات الإسرائيلية فالقوات العربية التى نغير عليها، ونشتبك معها، تكفل لنا مستوى ممتازا من التطعيم للمعركة" .

ولقد كان لحرب السنوات الثلاث، دورها البارز فى خلق المقاتل العربى الجديد، فالجندى العربى الذى عاد من معركة 1967 ليقص الخرافات عن أهوال جيش العدو الذى يقهر، وجنوده الذين يتطاير الشرر من أعينهم، أصبح يستهل عمليات العبور إلى الضفة الشرقية حتى صارت مجرد مسألة روتينية ، وفاق عدد المتطوعين للعبور قبل كل عملية العدد المطلوب اشتراكهم

فيها، والسبب باختصار هو أن الجندى العربى، قد أتيحت له، ولأول مرة منذ معارك 1948، فرصة متكافئة فى الإشتباك مع العدو، وأصبح يرى جنود الأعداء يجفلون من رؤيته ، ويفرون حتى قبل أن يقتحم عليهم تحصيناتهم، ويرى دماءهم تسيل من هول ضرباته، وتتناثر أرواحهم فرقاً عن أجسادهم ، فاكتشف المقاتل العربى نفسه، وعادت ثقته فى قدرته، فتلهف على قتال العدو، وكأنه فى مباراة رياضية ، يعلم مسبقاً أنه المنتصر بعون الله وتأييده .

ولا يقتصر أثر حرب الاستنزاف بالنسبة لهدف بناء جيش قادر ومتمرس على القتال على هذا الجانب المعنوى فقط بل ما لا يقل عنه خطورة وهو ما يتصل بالمفاهيم العسكرية وبتطوير السلاح وباختيار قدرة القادة فالجيوش التى لا تبنى من خلال المعارك سواء أكان ذلك فى مسارح أجنبية أم محلية لا شك فى أنها ستدخل الحروب بمفاهيم عسكرية متأخرة ولنا فى ذلك عبرة من الجيش الروسى الذى دخل الحرب العالمية الثانية بمفاهيم الحرب العالمية الأولى، وكذا جيش بريطانيا، الذى لم يعرف انتصارا ما بين 1942ـ1939 .

ذلكما مثالان بارزان على ذلك، كما أن السلاح الذى حارب به أى من الجيوش المنتصرة بمعاركه الأخيرة ، لم يكن أبدا هو نفس السلاح الذى خاض به أولى معاركه فى ذات الحرب ، فالمعارك المستمرة تدفع إلى التطوير المستمر، والأسلحة العربية فى نهاية حرب الاستنزاف ، كانت حقا مختلفة نوعا وليس فقط

كما عن تلك التى بدأت بها هذه الحرب أما حين يسود الهدوء جبهات القتال فإن معيار الحكم على نوعية السلاح، يصبح إجتهادا، ويتفاقم خطر اكتشاف جيش ما بعد فوات الأوان أنه قد تورط فى حرب بأسلحة الجيل السابق . الأمر الذى عانى منه العرب أكثر من مرة فى صراعهم مع إسرائيل وكذلك فإن المعارك الحقيقية حين تحتدم، تصبح كالبوتقة التى تنصهر بداخلها المعادن ، فتظهر النفيس منه والخبيث، كما أنها المحك للحكم على كفاءة القادة وقدراتهم الذهنية والقتالية وهو بالقطع، معيار أكثر صدقاً من عدد الأنواط والرتب التى يحملونها على صدورهم وأكتافهم، فى فترات المهادنة العسكرية .

ولقد كانت للفيلد مارشال مونتجمرى كلمة معبرة قالها حين زار مصر منذ سنوات فسألته عن الأسباب الحقيقية التى نال بفضلها كل هذا التقدير، وتلك التى جعلته قائداً من أبرز القادة فى التاريخ العسكرى فجاءت إجابة ذلك القائد المرموق، أبسط بكثير عما توقعه الكثيرون ولكنها كانت أيضا أعمق مما يسهل استيعابه إذ أجاب بقوله: لقد كنت محظوظاً كانت أقدميتى تجعلنى بعد هؤلاء القادة الذين دفعوا من قبلى ثمن إهمال وتخلف مفاهيم من سبقوهم، بأن قادوا جيوشاً غير مدربة وبأسلحة متخلفة ، تسيرها المفاهيم العسكرية لقرن مضى وفى نفس الوقت، كانت أقدميتى تضعنى قبل الجيل الذى تعلم ممن سبقه من هؤلاء الذين تطوروا فلا لهيب المعارك، فأصبحت أنا قائدهم .

مراحل حرب الاستنزاف:

بمجرد أن قرر العرب فى مؤتمر قمة الخرطوم، وضع استراتيجية قومية شاملة لمعركة التحرير استطاعوا أن يعبروا إلى مراحل ما بعد الهزيمة مرحلة الصمود وأن يدخلوا ثانية المراحل مرحلة الردع فى طريقهم إلى مرحلة التحرير ولقد مرت ثانية هذه المراحل، وهى التى تجسدت فى حرب الاستنزاف، بعد فترات زمنية، كانت لكل منها ظروفها فى ضوء الموقف المتطور باستمرار، تحت ضغط المعارك العسكرية.

المرحلة الأولى (28سبتمبر 19-68 أبريل 1969):

بدأت هذه المرحلة، بتراشق المدفعية عبر قناة السويس، وكانت أول إعلان إيجابى جاد وحقيقى عن التصميم العربى على رفض نتائج الهزيمة، إذ كان هذا الإعلان بالطلقات وبالاستعداد لدفع الثمن ولقد كانت بداية التراشق، مفاجأة تامة للقوات الإسرائيلية وقد وصفها زئيف شيف أبرز المعلقين العسكريين الإسرائيليين بقوله: فى الساعة 17,40 بينما كانت الشمس فى ظهر المصريين، تبهر أبصار رجال المدفعية الإسرائيلية، بدأت المدافع المصرية ضرباً مركزاً وهبط الظلام بسرعة وبذلك ضمن المصريون عدم تدخل الطائرات الإسرائيلية وفى ذلك الوقت ضربوا حوالى 10 الآف قذيفة واستمرت عملية القصف حتى الغد، ولمدة يومين متواليين خلال هذا الأسبوع وخلال سلسلة هذا القصف، أطلق المصريون حوالى 40 ألف قذيفة وقنبلة، تجاوز مجموع أوزانها 2 مليون رطل من المتفجرات.

المرحلة الثانية من (19 أبريل 1969-4 يونيو1969):

وهى الفترة التى بدأت بأول عملية عبور مصرية محدودة إلى الضفة الشرقية، واحتلال موقع إسرائيلى لعدة ساعات، ورفع العلم المصرى عليه مرفرفاً، ليعلن أن مصر على الدرب تسير، وأنه لا مناص للعدو من أن يندحر أو يعود مرغما من حيث أتى ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت عمليات العبور تسير، جنباً إلى جنب ، مع عمليات القصف المدفعى.

المرحلة الثالثة (5 يونيو 1969-19 يوليو 1969) :

إن ما يميز هذه المرحلة، هو تزايد حدة تصعيد العمل العربى على الجبهة المصرية، فقد اتخذ شكل الغارات البرية القوية بمجموعات قتال كبيرة، راحت تتزايد حجماً، حتى وصلت إلى مستوى الكتيبة الكاملة، وتزايدت مهامها القتالية، حتى وصلت إلى مستوى المعركة الكاملة، كما تزايدت مدتها، حتى وصلت إلى مستوى اليوم الكامل، بل ولعدة أيام متتالية .

المرحلة الرابعة (20 يوليو 1969-6 يناير 1970) :

اعترفت إسرائيل دون قصد بقدرة الجيش المصرى وشجاعته، وتضحيات أبطاله، وذلك لما أصابها من خسائر فادحة، بفضل لإقدامه وبطولاته فى حرب الاستنزاف التى قاست منها الأمرين، وذلك عندما بدأت هذه المرحلة، بدفع سلاح طيرانها إلى المعركة ولذلك كان قرارها هذا، بمثابة نقطة تحول بارزة، ذات دلالة خاصة إذ كانت وجهة نظر موشى ديان، منذ بدأت حرب الاستنزاف، هى: عدم تدخل سلاح الطيران، إلا عندما تحاول

مصر العبور الشامل لقناة السويس، بما يجبر إسرائيل، عندئذ، على توجيه ضربة وقائية مكثفة للقوات المصرية وكان رأى المعارضين لدفع سلاح الطيران إلى المعركة قبل عمليات العبور المصرى الشاملة للقناة، هو أن ذلك سيكون من شأنه استهلاك الطائرات فى عمليات غير أساسية نسبيا، على أن يتدخل الطيران فقط لوقف العبور الشامل للجيش المصرى، وليس قبل ذلك. ولكن القيادة السياسية العسكرية الإسرائيلية، إضطرت إلى إصدار أوامرها لسلاح طيرانها بالاشتراك فى المعارك حين وجدت بالقياس والدراسات أن تطورات حرب الاستنزاف، أصبحت تنبئ بمعدل سريع فى تزايد القدرات العسكرية المصرية، التى سوف تنتهى دون شك باستكمال البناء إلى عملية عبور شامل، وحين شعرت أيضاً، بأن حجم الخسائر الإسرائيلية، وبخاصة البشرية منها، فى تزايد مستمر، وأنها ارتفعت إلى معدل يصعب قبوله ومما يؤيد ذلك، أن ما أذاعته مصادر إسرائيلية، يتبين أن معارك الشهور الثلاثة مايو ويونيو ويوليو 1969 قد ألحقت بالقوات الإسرائيلية على القناة خسائر كبيرة إرتفعت وفق الأرقام الإسرائيلية من 51 إصابة بينهم 13 قتيلا فى مايو، إلى 89 إصابة بينهم 17 قتيلا فى يونيو، إلى 112 إصابة بينهم 30 قتيلا فى يوليو.

وتأكيدا لهذه الدلالات الإيجابية التى فرضت على إسرائيل، دفع سلاح طيرانها إلى المعركة، رغما من التقديرات السابقة لوزير دفاعها وهيئة أركانها.

يوضح ذلك زئيف شيف فيقول:

كان السبب المباشر الذى أنهى الجدل فى القيادة الإسرائيلية حول إدخال سلاح الجو فى المعركة، هو عملية العبور التى قامت بها وحدة مصرية يوم 10 يوليو 1969 فى منطقة بور توفيق وكانت القيادة المصرية، قد ذكرت أن قواتها الخاصة، قامت باقتحام المواقع الإسرائيلية، وقتلت وجرحت نحو 40 جندياً إسرائيلياً، بعد ما تم احتلال الموقع لمدة 24 ساعة كاملة، وتدمير خمس دبابات إسرائيلية ومركز مراقبة واستطاعت القوات المصرية أيضاً، أن تختطف جنديا إسرائيليا، وأن تعود به عبر القناة إلى المواقع المصرية. ويستطرد شيف قائلا: وكان ذلك هو أبرز نجاح حققه المصريون، ومن الواضح أنه سوف يحفزهم على بذل نشاط أخر وكان لا بد من إيقافهم بسرعة. واستمرت خسائرنا تتصاعد لأسبوع أخر، إلى أن اتخذ القرار الحاسم، بدفع سلاح الطيران إلى المعركة.

وتتناول صحيفة معاريف الإسرائيلية الموضوع نفسه فتقول: أمام الضغط الهائل الذى مارسه المصريون، والحياة التى أصبحت لا تطاق على الجبهة الجنوبية رجحت القيادة الإسرائيلية فكرة استخدام سلاح الجو هذا السلاح الذى كانت كل التقديرات، تؤكد الإصرار على الاحتفاظ به للمستقبل.

وفى 7 سبتمبر 1969 أعلن رئيس الأركان العامة الإسرائيلية:

لقد قامت طائراتنا بنحو 1000 غارة فوق الجبهة المصرية منذ 20 يوليو الماضى، وهدف هذه الإغارات، هو تخفيف حدة العمليات

المصرية البرية على طول قناة السويس ولكن يجب أن يكون مفهوماً لنا، أن إسرائيل لا تستطيع إجبار مصر على الالتزام الكامل بوقف النار.

الجدير بالملاحظة، أنه حتى هذه المرحلة وخلالها، لم تشترك الجبهة الشرقية فى القتال، وإنما اقتصر النشاط فى غير جبهة القناة، على عمليات الفدائيين الفلسطينيين.

وقد ركزت إسرائيل فى هذه المرحلة، بالدرجة الأولى، على توسيع ساحة القتال مع مصر، لترغمها على نشر قواتها فى اتجاهات ثانوية وفرعية ليقل الحشد المصرى على الجبهة الرئيسية، بما يجبر مصر على إعادة توزيعه بشكل دفاعى يضر بالاتزان الاستراتيجى العربى الإيجابى فى المسرح.

كما اهتمت إسرائيل بفتح ممر جوى، على الجبهة، لتستطيع الطائرات الإسرائيلية، أن تتسلل منه إلى عمق الأراضى المصرية، بعد تعرية الجبهة من دفاعها الجوى، كى تستدرج الطيران المصرى إلى مجابهة مباشرة مع الطيران الإسرائيلى، وتجره إلى معارك غير متكافئة، مما يؤدى إلى إضعاف معنوياته، وانكماش عملياته.
وتنفيذ لهذه الخطة، راحت الطائرات الإسرائيلية، فى أواخر أغسطس وخلال سبتمبر وأكتوبر، وحتى أوائل نوفمبر من 1969، تقصف شبكات الرادار، ومواقع الصواريخ المصرية، فى جبهة القناة، وعلى امتداد ساحل خليج السويس.

وقد وضح لمصر، أنه لا مناص من استمرار مزاولة الضغط على إسرائيل، برغم كل المصاعب، وعدم التحول إلى الموقف الدفاعى

السلبى الذى تريده إسرائيل، وإلا فقدت حرب الاستنزاف غايتها الأساسية، وهى القيام بأعمال هجومية مستمرة على القوات الإسرائيلية حتى لا تستقر فى مواقعها فى سيناء ولهذا قامت قوات الصاعقة المصرية، بعدد من الهجمات فى هذه الفترة فى عمق سيناء، كما واصلت القوات الجوية المصرية، هجماتها على الأهداف الإسرائيلية، بما أثبت أنها لم تهزم خلال معارك يوليو وأغسطس، أو ينال اليأس من إرادتها .

وكان من أبرز العمليات العسكرية المصرية التى أكدت هذا الاتجاه ما يلى :

فى 11 سبتمبر 1969: قامت القوات الجوية المصرية بأكبر هجوم لها على القوات الإسرائيلية منذ عام 1967 إذ شنت 60 طائرة مصرية، غارات مفاجئة على قوات إسرائيل فى سيناء .

وفى 28 سبتمبر 1969، قامت وحدة مصرية خاصة محمولة جوا، بهجوم على مركز للجيش الإسرائيلى فى منطقة المصفق، على مسافة 85 كيلو مترا شرق القنطرة .

وفى 2 أكتوبر 1969: أعلنت مصر عن قيامها بهجوم مماثل على العدو الإسرائيلى فى خليج السويس وفى ليلة 3-4 أكتوبر 1969: قامت الوحدات الخاصة بهجوم كبير عبر القناة وفى 9 أكتوبر 1969: قامت وحدة مصرية خاصة تتكون من 250 جنديا، بعبور القناة، واشتبكت مع أحد المواقع المعادية ودمرته .

المرحلة الخامسة (7 يناير 1970 إلى 13 أبريل 1970):

وللمرة الثانية، تمنح إسرائيل دون وعى أرفع الأوسمة للجيش المصرى، الذى أقضى مضجعها، وزلزل الأرض من تحتها، وأمطر عليها السماء بنار حامية من فوقها، فى الوقت الذى تعلن فيه للعالم أجمع ودون وعى أيضاً أنها دولة همجية، لا تحترم المواثيق الدوليةوذلك حين بدأت هذه الفترة بتصعيد خسيس وضيع فى الهدف السياسى الإسرائيلى، وفى نوعية الأهداف المنتقاة عسكرياً ومدنيا، لشن الغارات الجوية عليها.

فراحت تقصف معسكرات دهشور وأنشاص والتل الكبير وهاكستب والخانكة على بعد كيلو مترات من العاصمة المصرية، وزادت خلالها من كثافة الإغارات فى الأعماق، ثم تحولت إلى ضرب الأهداف المدنية فقصفت مصنع أبى زعبل ومدرسة أطفال فى بحر البقر وفى هذه المرحلة أيضا، استمرت الإغارات الإسرائيلية على القوات المصرية فى جبهة القناة وكان واضحا أن خطة إسرائيل فى هذه المرحلة، تستهدف الآتى:
استغلال الثغرات التى فتحتها الإسرائيلية منذ يوليو 1969 فى شبكة الدفاع الجوى المصرية على القناة وخليج السويس للتوغل خلف الخطوط الأمامية، والضرب فى الأعماق.

مواصلة الضغط على جبهة قناة السويس، لعرقلة عملية بناء القدرة العسكرية المصرية اللازمة للانتقال إلى مرحلة التحرير وتشتيت الحشد المصرى، وإجبار مصر على إعادة توزيع قواتها فى هيكل دفاعى جامد.

إجهاض الإنجازات العسكرية المصرية التى تحققت حتى هذه الفترة، والتى قد تدفع أو تجبر مختلف الأطراف العربية، وبخاصة دول المواجهة، على المشاركة الإيجابية فى الجهد العسكرى الموجه ضد إسرائيل، تحت ضغط الرأى العام الشعبى فيها محاولة الاسراع بتوجيه الضربات المخططة بدقة، إلى ما بعد عصب الجهد العسكرى المصرى من أهداف ، على أمل إصابة القدرة العسكرية المصرية، بشلل يكسر حدة الاتجاه الثورى، وما يلقاه من تدعيم وانتشار، بالتحام ثورة مصر بثورة ليبيا والسودان.

هذا من حيث الخطة وأهدافها المباشرة ، أما عن الهدف السياسى الاستراتيجى لهذا التطور الإسرائيلى الذى بلغ أقصى مراحل التصعيد، فقد تمثل فى التركيز بالدرجة الأولى على إسقاط نظام الحكم فى مصر بالإضافة إلى بث اليأس فى نفسية الشعب المصرى، لعله يكفر باستمرار الحرب، واحتمالات التحرير وكانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل ، قد أعلنت صراحة فى 13 نوفمبر 1969 أنها لا ترى هناك فرصة للسلام ، ما دام عبد الناصر فى الحكم وفى فبراير 1970 أكدت مائير من جديد، أن الهدف السياسى الاستراتيجى لإسرائيل، هو إسقاط جمال عبد الناصر، عسى أن يكون هناك من هو أكثر استعدادا للتفاوض من عبد الناصر ، فلا بد أن أى إنسان غيره، سوف يكون مختلفا عنه .

ويحلل عاموس بيرلمتر أستاذ العلوم السياسية الإسرائيلى بجامعة هارفارد الأمريكية، هذا التطور فى الهدف السياسى

الاستراتيجى، فى دراسة له نشرتها صحيفة معاريف الاسرايلية أنذاك تحت عنوان: العدو كان وما زال ناصر أورد فيها تحليلا سياسيا شاملا للقدرات المصرية فعرض لجميع إمكانات التحرك المتاحة أمام مصر ابتداء من احتمال عدم محاربة إسرائيل والحفاظ على الوضع القائم وهو ما استبعده على الفور حتى احتمال تدمير إسرائيل كلية وتناول بالتحليل، فرص مصر فى كسب تأييد ومساندة الأصدقاء، والضغط على الأعداء فى كل من هذه الاحتمالات وانتهى بيرلمتر فى تحليله إلى استنتاج أن هذه الإمكانات المتاحة أمام مصر، هى الأكثر تنوعا، ومن ثم فهى الأكبر حجما وقدرة على التأثير فى الموقف، من تلك التى يملكها أى من أطراف أزمة الشرق الأوسط .

وانتهى بيرلمتر إلى تحديد الهدف السياسى الاستراتيجى لإسرائيل فى هذه المرحلة، فقال:

إن الإمكانات المتاحة لمصر، موجهة نحو مجهود مركز، لتحقيق أعز القيم السياسية لدى عبد الناصر، وهى ضرب إسرائيل .

أن واجبنا المقدس الآن، هو تشجيع قيام نظام حكم آخر فى مصر، ولنجعل هذا محور استراتيجيتنا العليا فنخصص كل المفاوضات وكل سياستنا تجاه الدول العربية والأجنبية، وتجاه فلسطين والأمم المتحدة، وكل ميزانيتنا العسكرية، وكل جهودنا، لخلق صورة عنا، وعن أعدائنا فى العالم، كل ذلك يجب توجيهه من أجل زعزعة الثقة فى النظام المصرى، بصفة كونه النظام العربى الوحيد القادر على أن يهيئ لنفسه أحسن الفرص لمواجهتنا علينا الآن تحقيق ما لم نحققه عام 1967، لأن ناصر هو

الزعيم الوحيد الموثوق فيه لدى العرب والشرق والغرب على السواء وخللا هذه الفترة من الاستنزاف المضاد والضربات الإسرائيلية التى أدت إلى كشف الغطاء الجوى المصرى، استطاعت القوات المصرية، برغم ذلك، ورغما عن التفوق الجوى الإسرائيلى أن تستمر فى عمليات هجومية نشطة بل إذا ما راجعنا العمليات الجوية المصرية خلال هذه الفترة، لوجدناها تفوق فى كثافتها أية فترة سابقة.

ففى 24 يناير 1970 أغارت الطائرات المصرية على المواقع الإسرائيلية شرق بحيرة التمساح، وفى اليوم نفسه، أغارت أيضا الطائرات المصرية على المواقع الإسرائيلية ثلاث مرات، وصلت إحداها إلى منطقة العريش، فى أبعد هجوم جوى مصرى منذ حرب 1967.

وفى 25 يناير، أعلنت مصر أن وحدة من الصاعقة هاجمت محطة الرادار الإسرائيلى فى منطقة حوض أبو سمارة على مسافة 30 كيلو متر شرق القنطرة وفى 5 فبراير، قامت وحدة مصرية بعبور القناة، ودمرت دبابتين وعربتى نصف جنزير.

وفى 6 فبراير أعلنت مصر أن وحدة من رجال الضفادع البشرية هاجمت ميناء أيلات وأغرقت سفينتى تموين، فى هجوم مماثل للهجوم الذى كانت قد شنته فى 17 نوفمبر 1969 .

وعلق رئيس الأركان الإسرائيلى على الهجوم المصرى على إيلات، فاعترف بالبراعة التنفيذية التى تم بها وفى هذه الفترة، سئل عزرا وايزمان، عن احتمالات نجاح مصر فى جذب الإتحاد السوفيتى إلى مزيد من التدخل فى الشرق الأوسط، تحت ضغط

غارات العمق، فأجاب قائد سلاح الطيران السابق ووزير المواصلات وقتها بقوله: لا يوجد هناك أمل كبير فى تدخل السوفييت فى الشرق الأوسط بضغط من مصر .

المرحلة السادسة والأخيرة
من 13 أبريل 1970 إلى 7 أغسطس 1970 :

فى هذه المرحلة أعلنت إسرائيل عن إفلاسها العسكرى فى ردع مصر أو النيل منها، وذلك بوقف غارات العمق الإسرائيلى وهى مرغمة وانتهت بوقف إطلاق النار على جبهة قناة السويس، ولقد جاء قرار إسرائيل بوقف غارات العمق اضطراراً تحت ضغط المفاجأة الاستراتيجية المتطورة التى حققتها مصر، بإدخالها بطاريات صواريخ الدفاع الجوى سام-3 إلى العمق المصرى، لإحكام الدفاع عنها ومما يؤكد تلك المفاجأة، أن دافيد العازر رئيس الأركان الإسرائيلية، أدلى بتصريح قال فيه: أن مخطط الجيش الإسرائيلى لعام 1971-1970 يتضمن مواصلة الضغط على مصر بالقصف الجوى على القناة وفى الأعماق ثم بعد تصريحه بأيام قليلة فقط، إذ بإسرائيل تضطر لوقف غاراتها على العمق المصرى، نتيجة لضغط المفاجأة الاستراتيجية المصرية، على نحو ما قدمنا.

وبإيقاف غارات العمق، انقلب الوضع الاستراتيجى، واستطاعت مصر الانتقال من فترة، كانت فى مجموعها دفاعية خلال المرحلتين الرابعة والخامسة إلى فترة هى فى أساسها هجومية فى المرحلتين التاليتين بعدهما، ويعود الفضل الأكبر فى ذلك إلى

الخطوة الاستراتيجية البارعة التى نجحت القيادة السياسية المصرية فى اتخاذها على المستويين المحلى والدولى ولم يتوقف أثر هذه الخطوة، على نتائجها العسكرية المتمثلة فى الدعم الحديث والمؤثر، وإنما فى كونها ردعاً سياسياً، ومانعاً خطيراً، حال دون توسيع إسرائيل لمجال ضرباتها على مصر، وتصعيد خططها للاستنزاف المضاد ونتيجة لذلك ركزت مصر كل قواها فى منطقة الصدام المباشر على امتداد قناة السويس، فى شكل هجمات برية وجوية، أخذت طابعاً جدياً فى العنف والكثافة، وازدادت كذلك الهجمات الإسرائيلية على القناة، ودخل الصراع أعنف مراحله وأخطرها. ويمكن أن نحدد الخطوط العامة للخطة المصرية فى هذه المرحلة بالآتى:

حشد جميع الطاقات العسكرية وتركيزها فى منطقة الصدام المباشر، لمواصلة الضغط على الخطوط الأمامية الإسرائيلية .

تحريك أنظمة صواريخ الدفاع الجوى المصرية إلى داخل منطقة الصدام المباشر، لتخفيف التفوق الجوى الإسرائيلى، وتهيئة أفضل الظروف على جبهة القناة لما يلى ذلك من أعمال تعريضة مصرية.

المتابعة بالغارات الجوية، والغارات البرية على الخطوط الإسرائيلية الأمامية والخلفية، لاستكمال سلسلة الحلقات فى الحرب النفسية .

ومما لا شك فيه، أن مصر كانت تدرك أن نجاحها فى دفع بطاريات صواريخها، وعناصر دفاعها الجوى، إلى الخطوط

الأمامية سيؤدى إلى نتائج خطيرة بالنسبة للموقف الاستراتيجى الإسرائيلى العام، لأن خطوة كهذه، لم تكن تعنى فقط فقدان إسرائيل السيطرة الجوية فوق المواقع المصرية فحسب بل فوق مواقعها الأمامية أيضا لأن مدى الصواريخ المصرية، يمكن أن ينال حينئذ من الطائرات الإسرائيلية لمسافة 30-20كم داخل سيناء وهو ما يعتبر خطراً حقيقياً، وخطوة حيوية فى أية خطة تستهدف اقتحام قناة السويس فى جولة مقبلة.

وقد تنبهت إسرائيل لهذا الاحتمال فقامت بقصف عنيف لشبكة الدفاع الجوى المصرى فى الجبهة، للحيلولة دون توسعها واقترابها من القناة وكانت الغارات تستمر 24 ساعة متواصلة على مواقع العمل فى قواعد الصواريخ المتقدمة .

وفى 30 مارس 1970 صرح أيجال ألون: بأن إسرائيل تنوى القيام بأقصى مجهود ممكن للحيلولة دون توسع شبكة الدفاع الجوى المصرية كما قال: أن السيطرة الإسرائيلية فوق منطقة القناة، ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، فبدون هذه السيطرة، تستطيع المدفعية المصرية، أن تتمتع بتفوق ساحق فى النيران، وتستطيع الطائرات المصرية، أن تضرب المواقع الإسرائيلية دون هوادة . أن خطتنا هى متابعة قصف شبكة الدفاع الجوى المصرية الحالية والمنشآت العسكرية الأخرى، كما سنمنع إقامة أية شبكة دفاعية جديدة أو ترميم الشبكات القديمة التى تمكننا من تدميرها .

وفى 10 مايو 1970صرح موشى ديان بأن إسرائيل لن تسمح بإقامة أنظمة صواريخ سام3 على قناة السويس ، وأكد أنها لن تقوم بأية عمليات عسكرية خارج نطاق الدفاع عن مواقعها الأمامية وكان ذلك تأكيداً جديداً على إدراك إسرائيل للخطر البالغ الذى يمكن أن تواجهه، إذا ما نجحت مصر فى دفع صواريخها الحديثة، إلى منطقة الجبهة، لتغطى بها عشرات الكيلو مترات من سماء سيناء وتتمكن بذلك من إدارة عمليات عبور شامل إلى شرق القناة كما كان هذا التصريح لوزير الدفاع الإسرائيلى، تعبيرا عن طبيعة المرحلة الجديدة التى دخلتها حرب الاستنزاف، والتى أجهضت فيها محاولات إسرائيل لإنهاء هذه الحرب، برفعها إلى أقصى درجات التصعيد ضد وفى ظروف غير متكافئة ، نظرا لتفوق سلاحها الجوى العمق المصرى ، وقد ركزت إسرائيل غاراتها الجوية فى هذه المرحلة، بوحشية على الشريحة الأمامية للجبهة المصرية على طول القناة، كما تعقب سلاحها الجوى المحاولات المصرية المستمرة، لبناء قواعد الصواريخ على الجبهة ، والذى سقط الكثير من عمال مصر الأبطال شهداء الواجب، وهم يعملون بلا كلل على إقامة هذه القواعد الجوية، أيماناً منهم بأنها سوف تزود قواتهم المسلحة بالغطاء المؤثر ضد خطر سلاح الطيران الإسرائيلى .

وقد بلغت جملة خسائر مصر خلال شهر يونيو 678 شهيدا وجريحا شكلت نسبة0,13% من تعداد القوات المسلحة التى بلغت أنذاك نحو نصف مليون فرد وكانت نسبة الخسائر فى الضباط إلى الرتب الأخضر 1: 6,5 فى الشهداء، و 1: 32,5 فى

الجرحى وتحملت قوات الدفاع الجوى أعلى نسبة خسائر بين سائر التخصصات الأخرى (43,47%) مما أكد استمرار تركيز إسرائيل على تدمير وسائل الدفاع الجوى، ومنع اقترابها من ضفة القناة، لا سيما وقد كشفت الإحصاءات، أن عدد الطائرات الإسرائيلية المغيرة خلال شهر يونيو، وقد ازداد بنسبة 141% عما كان عليه فى شهر مايو، كما ازداد بنسبة 267% عما كان عليه فى شهر أبريل 1970.

وبمقارنة أعمال العدو الجوى فى منطقة الجبهة، نجد أنه خص الجيش الثانى بنسبة 81% من إجمالى حجم القصف الجوى خلال شهر يونيو، ولم يوجه إلى الجيش الثالث سوى 13,6% من جهوده ، وكان عدد أيام القصف على الجيش الثانى 20 يوماً ، بلغت خلالها 1638 طلعة طائرة، بينما كان عدد أيام القصف على الجيش الثالث 12 يوماً ، بلغت خلالها 274 طلعة طائرة فقط ويعود ذلك إلى أن هيكل تمركز كتائب الصواريخ المضادة للطائرات ، كان أشد كثافة فى نطاق الجيش الثانى، ولهذا بلغ زمن القصف الجوى عليه 204 ساعات بينما لم يتجاوز زمن القصف الجوى على الجيش الثالث 42 ساعة فقط والجدير بالملاحظة، أن العدو لم يقم بأى قصف فى العمق ، وأنه خص التجهيزات الهندسية لكتائب صواريخ الدفاع الجوى بنحو 5,3% من إجمالى حجم المجهود الجوى لشهر يونيو أما التراشق بنيران المدفعية الميدانية، فقد بلغ على الجانب المصرى 853 تراشقاً مقابل 1199 على الجانب الإسرائيلى، طوال شهر يونيو 1970. وبرغم تركيز الغارات الإسرائيلية المكثفة على الجبهة فقد

ظلت القوات المسلحة المصرية، تبذل أقصى الجهد للاحتفاظ بالنمو الهجومى لعملياتها بعد مرحلة الانتشار، التى أنجزتها بسرعة ونجاح فى المرحلة السابقة ومن الأمثلة الجريئة لهذه العمليات، إغارة الطائرات المصرية فى 11 أبريل 1970 على المواقع الإسرائيلية على بعد 25 كيلو متر خلف خطوط المواجهة الأمامية الإسرائيلية، وصلت إلى رأس سدر وعيون موسى على الضفة الشرقية لخليج السويس.

وفى 23 أبريل، أغارت الطائرات المصرية على مستعمرة ناحال يام فى شمال سيناء، على بعد مائة كيلو متر شرقى القناة.

وفى 25 أبريل، هاجمت قاذفات الاليوشن 28 المصرية المواقع الإسرائيلية قرب العريش، على ساحب البحر المتوسط.

وفى 26 أبريل احتلت قوة مصرية مكونة من 200 جندى، موقعاً إسرائيلياً فى القطاع الجنوبى من القناة ودمرته.

وفى 28 أبريل ، أغارت مقاتلات مصر القاذفة، من طراز سوخوى، على المواقع الإسرائيلية، بينما كانت المدفعية المصرية تدك المواقع الأمامية المعادية بمعدل 10 قذائف فى الدقيقة، وفق التقدير الإسرائيلى وفى أول مايو، أعلنت إسرائيل أنها تصدت لمحاولة عبور قامت بها وحدة مصرية مكونة من 80 جنديا، وأنها كانت المحاولة الثالثة خلال 4 أيام، وأكدت مصر أن تلك كانت من أنجح عمليات العبور.

وفى 3 مايو، تحركت وحدة بحرية مصرية خاصة، وقامت بقصف مركز على قيادة إسرائيل فى خليج السويس، على بعد 220 كيلو مترا جنوبى مدينة السويس .

وفى 24 يونيو 1970، تقدم وليام روجرز بمبادرة أمريكية عرفت باسمه، جاءت تحت ضغط الواقع المتغير فى مسرح الحرب، بعد أيام قليلة من بلوغ العمليات المصرية ذروتها فى أسبوع تساقط الطائرات الإسرائيلية ففى 3 يونيو 1970، أسقطت بطاريات الصواريخ المصرية 4 طائرات فانتوم وسكاى هوك، وأسرت مصر 3 طيارين وفى اليوم التالى أسقطت قوات الدفاع الجوى المصرى 3 طائرات أخرى ، وفى يوم 6 يونيو، أسقطت طائرتين جديدتين، ثم طائرة استطلاع إلكترونية، كانت تقل 12 ضابطا إسرائيليا فوق سيناء وبلغ بذلك مجموع ما أسقطته مصر من طائرات الفانتوم وحدها 7 طائرات فى شهر واحد وقد شهدت هذه المرحلة فى شهورها الأخيرة، حرباً إلكترونية بالدرجة الأولى، واستمرت التطورات التى أدخلت على الأسلحة المستخدمة من الجانبين خلال المعارك العديدة بين سلاح الجو الإسرائيلى وقوات الدفاع الجوى المصرية .

واتجه معدل القتلى الإسرائيليين ، إلى الارتفاع المستمر طوال هذه المرحلة فوفق ما سمحت بإعلانه إسرائيل، بلغ عدد القتلى 9 فى مارس ، ثم 27 فى أبريل ثم 31 فى مايو، ولأول مرة منذ بدأت حرب الاستنزاف ، نقرأ فى صحافة إسرائيل .

لقد أصبحت المبادرة الأمريكية وسيلة خلاص أن سياستنا خلال السنوات الثلاثة السابقة، لم تكن بمثابة إنجازات جيدة، بل سلسلة من الأخطاء الصعبة ، التى أدت بنا إلى نتائج خطيرة للغاية، منها دخول السوفيت إلى المنطقة وظهور المنظمات الفدائية الإيجابية ، كما تجاوزت ميزانية الدفاع، نحو المليار دولار وفقدنا أصدقاءنا وإذا كان الأمر كذلك، فليس صحيحاً أن المصريين قد استنزفوا فى حرب الاستنزاف ، وإنما الأصدق أننا نحن الذين استنزفنا ولذلك استجبنا للمبادرة الأمريكية .

تقويم حرب الاستنزاف فى سجل الصراع العربى الإسرائيلى :

تنفرد حرب الاستنزاف التى دارت على مدى ثلاث سنوات ضد العدو الإسرائيلى، بأنها كانت أطول حرب أدارها العرب منذ الجولة الأولى 1947- 1949، ولهذا اعتبرتها السجلات العسكرية الإسرائيلية، رابع الجولات مع العرب، وأن حرب رمضان هى الخامسة وبرغم أن الدراسات الاستراتيجية العربية، لم تزل قاصرة إلى يومنا هذا فى التقدير الدقيق لآثار الحرب طويلة المدى مع إسرائيل . فأننا نلمس التعبير عن مخاطر استمرار الحروب الطويلة على الكيان الصهيونى فى فلسطين، من خلال الدراسات العديدة التى قدمها فكروهم العسكريون والاستراتيجيون فى تقويم حرب السنوات الثلاث فنجد فى كشف الحساب والذى قدمه فى صورة كتاب، كل من العميد يهوشع رفيف السكرتير العسكرى لوزير الدفاع الإسرائيلى الأسبق ، والعميد شلومو

جازيت المشرف على المناطق العربية المحتلة آنذاك ، النص التالى الذى أورده فى دراستهما :

من الواضح أن غاية النظرية العسكرية المصرية فى إدارة حرب الاستنزاف ، هى توريط إسرائيل فى حرب نشطة طويلة المدى، تتضمن أشكالا متنوعة من الصراع المسلح، تعلو فوق مستوى الحرب الباردة، وتهبط عن مستوى الحرب الشاملة، وتندرج فى الشدة والمهاودة بين هذه وتلك، تبعا للفرص السا نحة ، والظروف السائدة فى المسرح.

كما تنفرد حرب الاستنزاف كذلك ، بأنها كانت أول جولة عربية إسرائيلية، تضطر فيها إسرائيل إلى الاحتفاظ بنسبة مرتفعة من التعبئة العامة لجيشها لفترة طويلة نسبيا، وهو ما ترك آثاره السيئة على الناحية الاقتصادية والمعنوية فى المجتمع الإسرائيلى على نحو لم يسبق له مثيل فقد اضطرت إسرائيل، أن تعبئ ما يزيد على 20 لواء من جيشها، وهى نسبة تعبئة تزيد على 50% من إجمالى وعاء التعبئة البرية الإسرائيلية كما اضطرت إلى تعبئة كل سلاحها الجوى، أى بنسبة 100% من وعاء التعبئة فيه، هذا وقد خفضت إسرائيل التعبئة فى سنة 1971 بمجرد إنتهاء حرب الاستنزاف إلى 10-15% من قواتها البرية، كما هبطت نسبة تعبئة القوات الجوية أيضا، هبوطاً حاداً.

وتنفرد حرب الاستنزاف ثالثا، بأنها كانت أولى الجولات التى تدور بين قوات متكافئة فى حجمها الإجمالى بصفة عامة ففى

1948 لم يواجه ال 80ألف مقاتل صهيونى، إلا 30 ألف جندى عربى من جميع الدول العربية، أى أن إسرائيل كانت متفوقة بنسبة 26: 1 فى أولى الجولات وفى الجولة الثانية عام 1956 ارتفعت نسبة التفوق العددى الإسرائيلى إلى 8: 1 حيث حشدت 16 لواء شكلت منها 48 كتيبة فى مسرح العمليات ضد مصر، بينما لم يكن لمصر فى سيناء حين بدأت المعارك، سوى 6 كتائب مشاه ولواء مدرع واحد وفى 1967 كان لإسرائيل ربع مليون جندى، وحوالى 375 طائرة، بينما لم يكن للعرب إلا 120 ألف مقاتل، وما يقل عن 150 طائرة، أى ما حشده العرب لم يتجاوز 0,3% من إجمالى تعدادهم، بينما حشدت التعبئة القومية الإسرائيلية حوالى 13% من إجمالى تعداد السكان الإسرائيليين أى ما يناهز 40 مثلا لما حشدته الدول العربية جميعا وما زاد الصورة أسى، أن بعض ما حشده العرب من جهد ضئيل، لم يكن قد وصل إلى مسرح العمليات، عندما اشتعلت نيران الحرب صباح الخامس من يونيو 1967، فكانت القوات العراقية ما زالت تقطع فيافى بادية الشام، والقوات السعودية تخترق الصحراء نحو عمان، وكانت القوات الكويتية ما زالت تحتل القطار الذى سيدخل بها محطة العريش وهكذا يمكن القول بأن حرب 1967 بدأت وانتهت، بينما قوات العرب فى الطريق إلى أرض المعركة.

أما فى حرب السنوات الثلاث، فقد أجبر العرب إسرائيل ولأول مرة فى تاريخها العسكرى على أن تحارب فى مسرح حرب، بعد أن كانت تقاتل فى كل الجولات السابقة من 1948- 1967

فى مسرح عمليات فبالرغم من عدم الاشتراك الفعلى للجبهة الشرقية، إلا بعمليات قصف مدفعى سورى خلال المرحلة السادسة من حرب السنوات الثلاث فقد اضطرت إسرائيل وبفضل نشاط المقاومة الفلسطينية بالدرجة الأولى إلى أن تحارب على جميع الجبهات، وأجبرت على العمل على الحافة الخارجية لمسرح الحرب وعلى الرغم من أن العسكرية الإسرائيلية ، فى هذه الظروف المختلفة جذرياً عن تلك التى مارست فيها عملياتها من قبل، قد أثبتت مرونة فكرية واضحة وسرعة ملحوظة فى استيعاب هذه الظروف الجديدة، والمسايرة العاجلة معها ، إلا أنها اضطرت إلى أحداث تغيرات أساسية فى البنية العسكرية الإسرائيلية ، وبخاصة فى نسبة التعبئة العامة.

فقد كان حجم القوات المسلحة النظامية وقتئذ نحو 50 ألف جندى، يزيدون عند التعبئة الكاملة إلى ثلث مليون جندى وقد أجبر الاستنزاف العربى، إسرائيل على أن ترفع التعبئة إلى 50% ليصل حجم القوات الإسرائيلية العاملة إلى نحو 150 ألف جندى، أى بزيادة نحو 100 ألف جندى عن الأحوال العادية ولقد لجأت إسرائيل فى تدبير هذه الزيادة إلى أمرين:

الأول: رفع الحد الأقصى لسن الاستدعاء للاحتياط والخدمة فى الجيش العامل من 49 سنة، إلى 50 سنة، وذلك فى 30 أكتوبر 1969.

الثانى: سحب جزء من قوة العمل المدنية، بما خفض من قوة العمل من الذكور من 70 ألف إلى 22 ألف فقط، وذلك وفقا

للإحصاءات الإسرائيلية عن منتصف 1970 ويرجع سبب هذا النقص، إلى ما امتصته القوات المسلحة الإسرائيلية من أيد عاملة، نتيجة اضطرارها إلى زيادة نسبة التعبئة القومية، لمقابلة أعباء حرب استنزاف المتزايدة التى فرضها عليها العرب كما استطاعت العسكرية المصرية، أن تحسن الاستفادة من بعض نقاط الضعف فى الموقف الإسرائيلى الجديد وأن تحيد بعض نقاط القوة فيه ولقد تسببت حرب السنوات الثلاث فى تجمد القوات الإسرائيلية ولأول مرة فى تاريخها داخل خنادق ثابتة، فغيرت بذلك من شكل وأسلوب التكتيك الميدانى الإسرائيلى الذى اعتمد بالدرجة الأولى فى الماضى، على المرونة العالية، وخفة الحركة المستمرة، التى يتميز بها المقاتل الإسرائيلى على المقاتل العربى، ويتميز بها قبل ذلك الفكر والتخطيط العسكرى الإسرائيلى، على الفكر والتخطيط العسكرى الإسرائيلى، على الفكر والتخطيط العسكرى العربى.

إن حرب السنوات الثلاث، بفضل تعدد أنواع معاركها، وامتداد مسرحها طولا وعرضا، أفادت القوات المصرية، وأتاحت لها أفضل فرص التدريب الواقعى، واكتساب خبرة القتال الفعلى والتعرف على صفات العدو، ونقط الضعف والقوة فيه كما أتاحت فرصة اختيار القادة العسكريين الأكفاء، ومكنتهم من الاحتكاك بالفكر العسكرى الإسرائيلى فى الممارسة وبفضل هذه الحرب، تطور السلاح المصرى وفق ضرورات الواقع، وأصبح السلاح الذى يستعمله المقاتل المصرى فى نهاية هذه الحرب، مختلفاَ نوعياَ عما كان يقاتل به عند بدايتها بقدر ما

اختلف هذا الجندى نفسه نوعيا، بما أثبته من سرعة استيعابه للسلاح الجديد والمعقد، مع إتقانه القتال به ولقد جاء اعتراف الإسرائيليين بعد انتهاء هذه الحرب ليؤكد هذه الحقائق ومن ذلك اعترافهم بأن عملية عبور الوحدات المصرية للقناة واشتباكها مع القوات الإسرائيلية فى تحصيناتها واحتلالها منطقة لسان بور توفيق لعدة ساعات، كانت بمثاب نبه القيادة العسكرية الإسرائيلية، إلى ضرورة الزج بسلاح طيرانها، لتوجيه ضربات مكثفة منتقاة، بهدف كسر حدة تصاعد الخط البيانى للقدرات العسكرية المصرية.

ويوضح الجدول رقم (1) مدى تنوع النشاط العسكرى العربى خلال المرحلة من مارس 1969 إلى أغسطس 1970 وفق ما أورده العميدان زئيف وجازيت لقد كبد العرب إسرائيل خلال حرب الاستنزاف، ثلاثة أمثال ما لحقها من خسائر بشرية خلال حرب الأيام الستة.

هذا وقد أشار المعدل الشهرى للخسائر، إلى اتجاه للتزايد المستمر طوال مراحل حرب الاستنزاف فخلال مرحلة الصمود من 11 يونيو 1967 إلى 7 سبتمبر 1968 التى سبقت حرب الاستنزاف، كان معدل الإصابات البشرية الإسرائيلية أقل من 10 جنود شهرياً.

وخلال الفترة من 8 سبتمبر 1968 إلى 4 يونيو 1969، إرتفع المعدل ليصبح ما بين 50-40 جندى شهرياً.

وخلال الفترة من 5 يونيو 1969 إلى 7 أغسطس 1970 وصل المعدل إلى 72 إصابة شهريا وهى أعلى نسبة تحملتها إسرائيل

فى عدوانها على العرب، على مدى ثلث القرن المنصرم.

وتشير الإسرائيلية كذلك إلى تزايد الخسائر البشرية على كافة جبهات القتال خلال الفترة من مارس 1969 وحتى أغسطس 1970، وذلك طبقا لما سمحت بنشره السلطات الإسرائيلية وأورده العميدان زئيف وجازيت فى دراستهما التى سبق الإشارة إليها مبينة فى الجدول (2).

وقد نشرت المجلة العسكرية لجيش الدفاع الإسرائيلى أن القوات الإسرائيلية فقدت خلال حرب الاستنزاف أربعين طيارا، وأن خسائر القوات البرية فى نفس الفترة بلغت 827 قتيلا و3141 جريحا وأسيرا، وهى أرقام لا تقل كثيرا عما أورده زئيف وجازيت كما أوردت نفس المجلة، ما سمحت بنشره الرقابة العسكرية عن الخسائر فى الأسلحة والمعدات فقالت أن إسرائيل قد فقدت خلال حرب الاستنزاف 27 طائرة قتال (و40 طيارا) ومدمرة وسبعة زوارق وسفن إنزال ونقل و119 مجنزرة، 72 دبابة، 81 مدفع ميدان وهاون.

وعلى الرغم من حرص إسرائيل على إخفاء الحجم الحقيقى لخسائرها المادية من أفراد وأسلحة ومعدات، منعاً لما قد يترتب عليها من آثار معنوية سيئة على الصعيد المحلى والخارجى، بين التجمعات اليهودية فى مختلف أرجاء العالم، وازدياد الشعور المعنوى بانعدام الأمان، إلا أن حجم هذه الخسائر على النحو الذى أورده زئيف وجازيت، يشكل 6,6% من متوسط معدل تزايد سكان إسرائيل، مما يعد نسبة مرتفعة جداً تؤثر على معدل

الهجرة إلى إسرائيل بالنقص بشكل مباشر وعنيف كما تؤثر على الهجرة المضادة منها بالزيادة بما يعنى ردود الفعل السياسية والمعنوية بالتأثيرات السلبية على المجتمع الصهيونى بعامة وعلى المجتمع الإسرائيلى بخاصة لهذا اجتمعت مراكز البحث المختلفة على أن الاستنزاف البشرى كان له تأثيره الواضح فى مجالين:

الأول: معدلات تدفق الهجرة اليهودية إلى إسرائيل بالنقص .
الثانى: الشعور بالعقد النفسية تجاه تزايد الخسائر البشرية .

هذا عن الاستنزاف البشرى، أما عن الاستنزاف الاقتصادى، فقد بلغ متوسط ما تحمله كل فى فرد فى إسرائيل من الإنفاق العسكرى نحو 417 دولار خلال عام 1970، بينما كان 138 دولارا فقط عام 1966 وهذا يعنى أن حرب الاستنزاف، قد زادت من العبء الاقتصادى على كل فرد فى إسرائيل بنحو 300%، وبهذا اتسع مسرح حرب الاستنزاف ليشل بالإضافة إلى الاستنزاف المباشر للطاقة البشرية والمعنوية على خطوط المواجهة الأمامية، استنزافا غير مباشر بدرجة أو بأخرى للقاعدة الاقتصادية الإسرائيلية نفسها ولقد أشار ديان إلى جانب من جوانب التكلفة الاقتصادية المباشرة لحرب الاستنزاف فى محاضرة ألقاها يوم 17 أغسطس 1972 أمام طلبة كلية القيادة والأركان، حين قال أن تكاليف الإنفاق العسكرى فى الأراضى العربية المحتلة منذ نهاية جولة يونيو 1967 وحتى مبادرة روجرز فى 7 أغسطس 1970بلغت 1364 مليون ليرة إسرائيلية (حوالى 320 مليون

دولار)، انفق أكثر من 60% لمواجهة أثار حرب الاستنزاف، وإعادة إنشاء خط بارليف، وما تم تدميره من تحصينات خلال الاستنزاف وبديهى أن ذلك لا يمثل إجمالى التكلفة الاقتصادية لحرب الاستنزاف.

ولقد استمر الإنفاق العسكرى الإسرائيلى يرتفع بمعدلات متزايدة منذ عام 1968، حتى بلغ ذروته عام 1970، عندما بلغ معدل الزيادة نحو 81% عن سنة 1969، بما تجاوز معدل تزايد موارد إسرائيل المتاحة، التى لم تزد إلا بمقدار 13,7% عما كانت عليه عام 1969 وعلى نقيض ما حدث عقب عدوان إسرائيل عام 1956 فإن الإنفاق الحربى لم ينخفض عقب عدوان 1967بل تزايد بخطى حثيثة، فمن 7,1% عام 1968، إلى 34% عام 1969، إلى 81% عام 1970، وبهذا وصل عام 1970 إلى نحو 26,5% من الناتج القومى الإجمالى و20% من إجمالى الموارد المتاحة، وتعتبر كلها أعلى النسب فى العالم فيما بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أنه حتى عندما تورطت أمريكا فى حرب فيتنام، وما ترتب عليها من أعباء عسكرية ثقيلة، شكا منها المواطن الأمريكى بمرارة، فإن الإنفاق الحربى لم يتجاوز إلا 10% من الناتج القومى الإجمالى وهناك ارتباط طردى وثيق بين زيادة الإنفاق العسكرى وزيادة حجم فائض الاستيراد (عجز ميزان المدفوعات) فالزيادة فى الإنفاق الحربى تمول عن طريق زيادة فائض الاستيراد بدرجة أكبر مما تموله به عن طريق زيادة الناتج القومى الإجمالى فعلى حين تراخى معدل النمو فى الناتج القومى الإجمالى من 13% إلى 11% إلى 8,5% فى السنوات 1969،1968،

1970، على التوالى، زايد فائض الاستيراد لمقابلة الزيادة فى الإنفاق الحربى من 4,6% سنة 1969 إلى 42% سنة 1970.

وتعكس الزيادة الكبيرة فى الإنفاق العسكرى الإسرائيلى آثار الاستنزاف العربى من ناحية، وتزايد الواردات العسكرية بمقدار ثلاثة أضعاف ما كانت عليه سنة 1967، لتصل سنة 1970 إلى 778 مليون دولار (وهناك ما يشير إلى أن إسرائيل استخدمت 415 مليون دولار من احتياطاتها لشراء معدات حربية لم تسجل فى ميزان المدفوعات) ، وهو ما تأكد بعد فحص بنود الموازنة العسكرية فبينما شكل ما انفق بالعملة الأجنبية حوالى 50% منها سنة 1968، ارتفع سنة 1970.

إلى 62% من الميزانية العسكرية، ليستوعب ما أنفق على الواردات الحربية، والذى تجاوز 54% من حصيلة الصادرات سنة 1970 والجدير بالملاحظة، أنه للمرة الولى منذ قيام إسرائيل لم تغط فيها واردات رأس المال، العجز فى ميزان المدفوعات، وبالتالى المنخفض الاحتياطى بمقدار الفارق، واستمر هذا الوضع طوال فترة الاستنزاف العسكرى حتى سنة 1970 فانخفض الاحتياطى نتيجة لعجز واردات رأس المال بمختلف أنواعه، عن تغطية عجز ميزان المدفوعات ب 2,2% سنة 1968 عما كان عليه سنة 1967 واستمر الانخفاض فى الاحتياطى حتى بلغ أدناه سنة 1969، بمعدل انخفاض قدره 20%، ثم خفضت حدة الانخفاض سنة 1970.

فوصل الاحتياطى إلى 350 مليون دولارا وهذا الحجم من

الاحتياطى، لم يكن يكفى لتغطية واردات إسرائيل لشهر ونصف فقط، وهو أقل من الحجم الذى ينصح الاقتصاديون بالاحتفاظ به والذى يوجب ضرورة الاحتفاظ باحتياطى يغطى واردات الدولة لمدة ثلاثة شهور، أى ما لا يقل عن 600 مليون دولار بالنسبة لإسرائيل. ولقد انعكس استمرا ارتفاع الإنفاق العسكرى بمعدلات متزايدة خلال مراحل حرب الاستنزاف، مع محدودية الموارد المتاحة على انخفاض معدلات نمو التكوين الرأسمالى، التى انخفضت من 44% إلى 25% إلى 15% فى سنة 1968، 1969، 1970 على التوالى، الأمر الذى أدى إلى انخفاض معدل نمو الناتج القومى الإجمالى من 13% إلى 11% إلى 8,5% فى سنة 1968، 1969، 1970 على التعاقب.

وبالإضافة إلى الآثار السلبية سالفة الذكر على الاقتصاد الإسرائيلى طوال مراحل حرب الاستنزاف، فإن هناك ظاهرة أخرى توضح لنا مدى ضغط ارتفاع الإنفاق العسكرى الإسرائيلى خلال تلك الحرب على الموارد المتاحة ونعنى بذلك، تزايد نصيب القروض من إجمالى واردات رأس المال منذ شهدت سنوات 1968، 1969، 1970 اضطرار إسرائيل إلى اللجوء إلى الاقتراض لتغطية احتياجاتها وهذا يعنى أن المصادر التقليدية للمعونات والهبات لم تستطع فى فترة حرب الاستنزاف، أن تلبى احتياجات إسرائيل من رأس المال وتعتبر تلك النقطة بالغة الأهمية، وهى رد بالدليل العلمى على أولئك الذين يدعون قدرة إسرائيل على الحصول على معونات بلا حدود فقد ارتفعت أهمية القروض النسبية لواردات رأس المال من حوالى 45% سنة 1969، إلى حوالى 55%

سنة 1970 ولا شك أن لجوء إسرائيل إلى الاقتراض لتغطية عجز ميزان مدفوعاتها خلال حرب الاستنزاف، قد ألقى على أجيالها القادمة عبء تسديد هذه الديون وفوائدها، كما أجبر إسرائيل سنة 1970 على أن تطرح سندات للدفاع للبيع فى الخارج، بلغت قيمتها حوالى 600 مليون جنيه.

وقد انعكست هاتان الظاهرتان على ميزانية سنة 1970، 1971 التى زادت فيها أعباء الديون الخارجية بمقدار 58% عما كانت عليه فى السنة السابقة لتصل إلى 925 مليون ليرة إسرائيلية وازدادت الديون نفسها بمقدار 30% لتصل إلى 939 مليون ليرة وتشمل هذه الأعباء كل الديون الداخلية والخارجية إلا أن عبء الديون الخارجية كان يشكل الجزء الأكبر فيها، لأنها تدفع بالنقد الأجنبى، وقد وصلت أعباءها سنة 1970 إلى 235 مليون دولار. ونود أن نشير بهذا الصدد، إلى أن اتجاه معدل نمو الدخل القومى للتباطؤ يجب أن يحظى بالمزيد من اهتمام العرب، لأنه مع استمرار ارتفاع الإنفاق الحربى، لا بد أن تلجأ الدولة إلى الوسائل التضخمية لتمويله (عن طريق الاقتراض من البنك المركزى) وهو ما حدث فى إسرائيل فعلاً خلال حرب الاستنزاف، إذ كان هناك عجز فى الميزانية سنة 1969، بأكثر من بليون ليرة، ارتفع سنة 1970 إلى أكثر من 3 بلايين ليرة، وكان لا بد لذلك أن ينعكس على مزيد من اتجاه الأسعار للارتفاع، وهو ما حدث أيضا سنة 1970، إذ ارتفع مستوى الأسعار بنحو 10% ثم 12% فى سنة 1971، الأمر الذى انتهى بتخفيض

الليرة الإسرائيلية فى نوفمبر سنة 1971.

لقد أثارت هذه الاتجاهات التضخمية للأسعار، صعوبات كثيرة أمام المخطط الإسرائيلى فى اتفاقاته على تجميد الأجور بين الحكومة والهستدروت، لأنها كانت تعنى المزيد من الإضرابات لرفع الأجور وارتفاع الأجور يعنى مزيد من ارتفاع الأسعار ومن ثم المطالبة برفع الأجور مرة أخرى، وهكذا دواليك إلى أن يجد الاقتصاد نفسه فى حلقة مفرغة، من ارتفاع الأجور وغلو الأسعار وذلك بهدف من بين أهداف حيوية عديدة أخرى فى المجال الإسرائيلى الداخلى لم نزل ندير صراعنا العربى الإسرائيلى بعيداً عنه نتيجة الفهم المحدود لطبيعة وظروف عدونا المشترك. وبدرجة أهم للفصل التعسفى بين دراسة العدو علمياً وبين التخطيط لمواجهته، فضلا عن عدم تكامل هذا التخطيط عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، وسيادة النظرة العربية الجزئية إلى النزاع العربى الإسرائيلى، الأمر الذى تتفوق فيه إسرائيل نتيجة التزامها بما يعرف اليوم، فى شتى أنحاء المعمورة بعلم إدارة الصراع. الاعتبارات السياسية العربية المعوقة:

هذا عن الجانب الاقتصادى، أما عن الجانب السياسى لحرب الاستنزاف التى تميزت بضعف فعالية الجبهة الشرقية خلال العمليات فليس ثمة شك، أن هذا الضعف يعود بالدرجة الأولى إلى عدة اعتبارات سياسية تتصل بمحاولات بعض الأنظمة العربية عدم الاشتراك فى القتال، حتى أن مصر والمقاومة الفلسطينية هما اللتان أعلنتا رسميا عدم التزامها بقرار وقف إطلاق النار الصادر فى 8 يونيو 1967، وخاضتا معا

حرب الاستنزاف ضد إسرائيل وضاعف من غيبة فعالية الجبهة الشرقية وهى عنصر حاسم فى الصراع الإسرائيلى ضد إسرائيل مشكلات التنسيق بين القوات العربية المرابطة على هذه الجبهة مع بعضها بعضا وبينها وبين الجبهة المصرية، والعمل الفدائى الفلسطينى داخل وخارج الوطن المحتل ويشير الجدول (3) الذى أورده العميدان زئيف وجازيت، إلى حجم مشاركة الجبهة الشرقية فى أعمال القتال ما بين مارس 1969 وأغسطس 1970 بالأرقام ويبين الجدول (3) الحجم الكبير نسبياً للأنشطة القتالية التى مارستها المقاومة الفلسطينية، وبخاصة خلال عامى 1968و 1969، وعلى رأسها معركة الكرامة العظيمة فى مارس 1968.

التى مارستها بعض الحكومات العربية ضد حركة المقاومة الفلسطينية، والسلبيات فى الممارسة من جانب قيادات المقاومة الفلسطينية، وأثرها فى تحويل جهد المقاومة، من جهد موجه ضد العدو الإسرائيلى، إلى خلافات فيما بين المنظمات من ناحية وبينها وبين الحكومات التى ينطلق العمل الفدائى من قواعد فى أرضها من ناحية أخرى وقد انتهى ذلك جميعه، إلى موقف خطير فجرته بعض الأنظمة العربية التى لم تشترك قواتها المرابطة فى الأردن بأى مجهود فى حرب الاستنزاف، واستغلت فيه مزايدات بعض قيادات العمل الفدائى، الأمر الذى مهد لنظام الحكم الأردنى لكى يوجه ضربته القاصمة للعمل الفدائى الفلسطينى فى سبتمبر 1970.

ورغما عن ذلك، فإن الجدول (4) يشير لأسباب خسائر إسرائيل

فى الأفراد ما بين مارس 1969 وأغسطس 1970، والذى نشر فى نفس المصدر السابق، وهو يبين مدى فعالية المقاومة الفلسطينية، حين كان جهدها الأساسى موجهاً إلى العمل الفدائى السرى، بأكثر مما أصبح موجهاً إلى العمل السياسى العلنى.

وقد ظهر من خلال حرب الاستنزاف كذلك، أن المخطط العسكرى العربى، لم يحكم الضوابط الحقيقية التى ينظم بها معدل التصعيد فى سلم الاستنزاف قبل أن يمارسه عملياً فى الميدان الأمر الذى وضحت نتائجه خلال المرحلة الخامسة من حرب السنوات الثلاث حين دفعت القيادة الإسرائيلية بسلاح طيرانها إلى المعركة بهدف نزع الغطاء الجوى المصرى وفق خطة مدروسة على مدى شهور وهو التصعيد الإسرائيلى المضاد الذى خطط بدقة بحيث يستفيد سلاح الجو من نقطة التفوق الإسرائيلى البارزة، ويستفيد كذلك الطيارون من إحدى الحقائق المعاصرة للحرب، وهى طول الوقت الذى يستلزمه إعداد متكامل، وذلك لخلق الطيار المقاتل القادر على أن يخوض بكفاءة قتالاً جوياً بطائرة بالغة التعقيد وتدريب وإعداد العاملين الأكفاء على الأجهزة الأرضية المعقدة.

وصولاً إلى الطاقم الفنى الأرضى الرفيع المستوى الذى يقوم فى الحرب الجوية بالعبء الأساسى فى أية معركة جوية، منذ لحظة إصدار الأمر إلى الطائرة المقاتلة بالانطلاق فى الجو حتى لحظة إصدار الأمر الأرضى إلى قائدها بأن يضغط على (زر) إطلاق الصاروخ، أو الرشاش ليسقط الطائرة المعادية ورغما عن

ذلك فقد استطاعت القيادة السياسية المصرية أن تعوض النتائج التى ترتبت على عدم إحكام المخطط العسكرى لضوابط حرب الاستنزاف، بخطورة استراتيجية بالغة الأهمية، استخدمت فيها كل ثقلها، كزعامة ثورية عربية، تثبتها الممارسة ويؤكد الواقع تصميمها على استمرار القتال وكانت أولى نتائج هذه الخطوة هى عبور المرحلة الخامسة والخطيرة من حرب الاستنزاف إلى سادس مراحلها بعد تأمين العمق المصرى بالصواريخ والأطقم السوفيتية بكل ما ترتب على ذلك سياسياً وعسكرياً.

وإذا كان خروج الإسرائيليين إلى الشوارع واندفاع جنودهم من الخنادق، وهم يرقصون ابتهاجاً بوقف إطلاق النار فى 7 أغسطس 1970 فرحين بهدنة تدرا عنهم مشاهدة المواكب اليومية لجنازات قتلاهم، وهى تسير كئيبة فى شوارع حيفا وتل أبيب وغيرها من مدنهم، كان حدثا له دلالته، فلقد كان الأكثر تعبيراً، خطاب الوداع الذى ألقاه حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلية الذى قاد جيش إسرائيل خلال حرب الاستنزاف من موقع القمة العسكرية، حين قال لمرءوسيه: إذا ما استؤنف إطلاق النار مرة أخرى فعليكم أن تختاروا مجالات عمل وأساليب قتال أكثر تجددا عما اتبع فى حرب الاستنزاف، التى خضنا خلالها قتالاً شاقاً طويل الأمد مليئا بالدماء، ذلك لأن ظروفاً كثيرة قد طرأت على المسرح منذ ذلك الحين وإذا كانت حرب الاستنزاف قد شهدت فى مرحلتها السادسة والأخيرة، حرباً إلكترونية بالدرجة الأولى، ركزت فيها إسرائيل كل ما تستطيع من آلاف الأطنان من المتفجرات فوق الشريحة الأرضية الممتدة على قناة السويس

فى الجبهة، خشية نجاح مصر فى دفع قواعد صواريخها لتغطى جبهة القتال، فى نطاق يمد ظلال سيطرتها الجوية إلى مشارف المضايق فى سيناء، ويتحقق بذلك للقوات المصرية، الظروف الملائمة للانتقال من مرحلة الردع إلى مرحلة التحرير، فلقد شهدت شهور الصيف، منذ الوهلة الأولى لإطلاق النار استثماراً للوقت بلغ الذروة، بحيث كانت قواعد الصواريخ المصرية فى نهايتها تقف مطمئنة مطلة على مياه قناة السويس متوثبة لتحمى جنود المتشوقين لاقتحام، كى يدمروا خط بارلبف و يحطموا أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر، وقد نالوا ما تمنوا، وأثبتوا أنهم أشبال أسد لا تضام، على نحو ما تحقق للعرب من نصر على عدوهم عصر العاشر من رمضان المجيد.

تبقى كلمة عرفان لشهيد حرب الاستنزاف ومخططها على المستوى العسكرى الفريق أول عبد المنعم رياض، الذى كان تجسيدا لروح التحدى التى تمثلت فى كل لبنة من بناء الجيوش العربية منذ انخرط فى سلكها مع مطلع عام 1939، ثم شارك فى إقامتها من جديد بعد الخامس من يونيو على ركائز متينة من العلم والإيمان.

لقد أسهم شهيدنا العظيم، فى إعادة البناء بجماعة فكرة وشغاف وجدانه، وقبل أن ينصب الصرح، إدار بشجاعة ومهارة حرب الاستنزاف، التى مهدت الجسر المادى والمعنوى للعبور العظيم، عصر السادس من أكتوبر 1973، بدءا بالقصف النيرانى المكثف عصر 28 سبتمبر 1968، وحتى سقط شهيدا فى أقصى المواقع الأمامية ظهر التاسع من مارس 1969، فقدم لامة العرب الدليل على روح الإيمان بغير حدود بحق الوطن المفدى، وبرسالة المقاتل الشريف.

وعندما يحتفل العرب بذكرى أبنائهم الأوفياء فأنهم يستعرضون سجلاتهم الحافلة باقتخار، ليستمد منها الخلف القدوة الحسنة من السلف وسجل عبد المنعم رياض قدوة للعسكرية العربية الشريفة، استوعب نظريات الحرب الحديثة، بوعى المفكر المثقف، وأحاطها بدروسها الميدانية بنفاد بصيرة العليم بعبرة التاريخ، ثم أدرك بذكائه وثوريته، الأبعاد الحقيقية للمخطط الصهيونى الخبيث، فكان أن وهب نفسه خالصة للنضال والقائد الأصيل من تعلو هامته عندما تدلهم الخطوب، ولقد كانت بسمة عبد المنعم رياض الواثقة، ووعده الحق فى تلك الأيام الحالكة السواد، بلسماً يشفى الجراح أن غدنا سوف يكون أفضل من يومنا.

وسواء كانت سجايا القائد تولد معه أو تصقلها الخبرة الطويلة والدراسات العميقة، فإن موهبة عبد المنعم رياض كإنسان، قد تفاعلت مع قراءاته كدارس، وخبراته كقائد، حتى جعلت منه رجل استراتيجية عليا من الطراز الأول، قديراً على التنسيق والتوجيه، وصولا إلى الهدف المنشود. وقد أتاحت له إجادته الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية، أن يعب من مناهل العلم والمعرفة، من أمهات المراجع العالمية، ثم وفرت له خبرته الميدانية المزج بين النظرية والتطبيق، فيصعد إلى الذروة. ولما اجتمعت له ناصية العلم والتجربة، مع مقومات الخلق والشجاعة، كان طبيعياً أن ينحو عبد المنعم رياض إلى اللامركزية فيفسح المجال للمرءوسين كى يتصرفوا ويبتكروا وبهذا فاقت الإنجازات فى مرحلة إعادة البناء التى أمسك بزمامها أشد المعدلات تفاؤلا. وقوله المأثور فى ذلك قد يستحق العمل الثقيل كتفى الرجل

القوى، بينما يسهل على الجماعة المترابطة أن تنهض به. وعندما رنا ببصره، وهو فى القمة إلى الساحة العربية الفسيحة، أدرك بثقاب بصيرته، موطن الداء، فختم تقديره الاستراتيجى للموقف العام يوم تولى منصب رئيس أركان القوات المسلحة المصرية قائلا أن التحالف العسكرى، هو أرقى مظاهر التعاون السياسى بين الدول، ومن ثم فإن تصفية الجو السياسى العربى، هى الخطوة الأولى نحو النصر وفى أخر اجتماع له بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة وكنت أجلس فى مواجهته، أدار بصره فى الحاضرين قائلا النصر مستطاع طريقه شاق و دونه تضحيات وليس له بديلاَ.

وعندما احتجب عبد المنعم رياض بجسده فإنما كان يلقى يومها بوصيته، فقد ظلت تعاليمه ووصاياه تمد الصرح الشامخ بالثقة حتى صنعت فى النهاية، فكراً عربياً دائم التجدد أضاء الشهيد مشعله ليشق ظلام الهزيمة، ويسهم بالقدر المعلى فى إعادة البناء من الأساس، ثم سلم المشعل إلى جيل العبور من زملائه وتلاميذه، نبراسا هاديا، وسراجاً منيراً. كان منتهى عمله أن يستعيد العرب الحق والأرض والكرامة ، وكفاه شرفاً أنه عندما تسلم الأمانة فى أعقاب الهزيمة مباشرة كان السؤال على كل شفاه متى يستسلم العرب فلما استشهد، كان السؤال متى يعبرون. وبين يونيو 1967 ومارس 1969 كان عبد المنعم رياض أحد الذين حققوا هذا التحول المجيد مع زملائه قادة العرب فى كل من الأمة العربية الأصيلة من المحيط إلى الخليج فطوبى له ولشهداء العرب بين القدسين والصالحين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

الكتاب و المؤلف



أحمد عبد الحميد شريف

* سُطِّر هذا الكتاب منذ بدايات السبعينات على صورة مذكرات شخصية ، و يوميات الكاتب .

* فى سنة 1982 تمت صياغته بالصورة التى بين أيديكم،حيث استبعدت تفاصيل معينة من اليوميات و أضيفت بعض التوثيقات للوقائع و الأحداث .

* طلب البعض تنقيح هذه النسخة ، و لكن المؤلف أصر أن يصدر الكتاب للقارئ بشكله هذا ، فصدر فى طبعتيه : الاأولى عام 1988 ، و صدرت طبعته الثانيه ـ التى بين أيديكم ـ بمبادرة من دار نشر أنباء روسيا فى ذكرى 40 سنة على نصر أكتوبر العظيم ، و أضيف لها ملحق دراسة عن الحرب الإستنزاف للواء حسن البدرى، إعتمَد عليها المؤلف فى كتابه ضمن مراجع ـ للأسف ـ محدودة حول هذه المرحلة الساطعة من تاريخنا.

* مؤلف هذا الكتاب من مواليد 13\2\1947 .

- تخرج من كلية الاقتصاد و العلوم السياسية سنة 1968
- التحق بالقوات المسلحة كمجند فى الفترة من سبتمبر سنة 1968 حتى يناير سنة 1974
- عمل مترجماً عسكرياً بين القادة المصريين و الخبراء العسكريين السوفييت فى الفترة من سنة 1969 حتى سنة 1972 .
- ترجم بعض الكتب من الروسية الى العربية أهمها : كتاب ناصر لأجار شيف عن دار الثقافة الجديدة سنة 1978.
- وكتاب لينين و قضايا التحرر الاقتصادى و الاجتماعى عن دار الامل سنة 1988

الفهرس